د. الحسينى الحسينى معدّى
الأساطير
الأفريقية
أساطير العالم
كنوز
للنشر والتوزيع

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الإفريقية

سلسلة أساطير العالم
الأساطير الإفريقية

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدّى

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل ـ القاهرة تليفون: 0127717795

التنفيذ الفنى

فور إتش للكمبيوتر

٠١٠٦٦٧٤٣٣٥

رقم الإيداع: ٢٢٨٢٩/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 977-5307-82-k

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الإفريقية

تأليف

د. الحسينى الحسينى معدّى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمة

يُطالع القارئ فى الصفحات التالية بعض الأساطير الإفريقية، ولا أظن أننا نعرف الكثير عن تلك الأساطير، بسبب جحافل الاستعمار الذى نشر على أراضيها الجهل والفقر والمرض والقهر لقرون عدة. وكاد أن يكتم أنفاسها، ويطفئ نور الحياة فيها، إلا أن الأدب الشعبى لهذه القارة قد استطاع رغماً عن ذلك أن يضىء شمعة خافتة مرتعشة النور، وجذوة خابية اللهب لتحمل مكنونات الصدور وخباياها، وخفقات الضلوع وزفرات الأنفس فى إطار فنى يدعو إلى الأسى عن طريق المتعة.. ويثير الإحساس بالجمال، كما يقودنا إلى فلسفة عميقة الجذور تكشف حقيقة الصراع المستعر بين الإفريقى المغلوب على أمره والاستعمار المتغطرس.

من هنا كانت أهمية الأدب الشعبى الإفريقى أنه وثيقة مهمة تستحق التأمل والدراسة، لأنها أولاً وقبل كل شىء تصوير فنى لموقف الإنسان الإفريقى من الحياة والأحداث من حوله، كما أنه تعبير عن ذاته ووجدانه وإحساسه ومشاعره على حين يراه المستعمر شيئاً غير ذى بال لا وزن له ولا حساب.

وهذه الأساطير التى بين أيدينا قد توافرت لها من الخصائص الفنية ما يجعلها ممتعة، فضلاً عن ولوجها أعماق النفس البشرية تسبر أغوارها وتترجم فى صدق مشاعرها، فيحس المرء لقراءتها بفائدة محققة.

على أن الخيط العرض الذى ينتظمها هو الصراع الأبدى بين الحق والباطل بين الحرية والعبودية، كما أنها تمثل موقف الإنسان من قوى الطبيعة ومحاولته تفسير ظواهرها وتعليل أسبابها، ثم هى من قبل ومن بعد تومض ببصيص من نور يجلو موقف الرجل الأسود الإفريقى من مستعمريه.

ومن اللافت للنظر فى هذه الأساطير أننا نلاحظ تقارباً يكاد يكون تاماً بين

مشاعر الإنسان الإفريقى فى طول القارة وعرضها، كأنما يمكن القول دون تجاوز للحقيقة، بوجود أدب شعبى إفريقى عام كالأدب العربى الذى يُنظم اللسان العربى فى أرجاء العالم العربى، وهذه نقطة تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث ليس هنا مجال الإفاضة فيها.

وبعد فإن إحساسنا بالمتعة الفنية لمطالعة هذه الأساطير إنما يعود فى حد ذاته إلى ما يحفل به الأدب الشعبى من روب الجمال وما يتوافر له من عناصر الإبداع الفنى ذلك أنه ينفذ إلى قلب القارئ ووجدانه لأنه صورة رائعة لا كلفة فيها ولا تزيين، لإحساساته ومشاعره.

إن الأدب الشعبى الإفريقى جدير بأن يتبوأ مكان الصدارة بين الآداب الشعبية فى العالم ليساير المكانة العالمية التى احتلتها الشعوب الإفريقية التى انتزعت حريتها من براثن الاستعمار الغربى.

وإذا كانت إفريقية قد حققت إرادتها ووعت ذاتها، وأدركت حجم طاقاتها الخلاقة على التحرر والانطلاق، فجدير بآدابها الشعبية أن تتصدى للتعبير فى قوى وصراحة عن أمانى الشعوب الإفريقية وتطلعها إلى غد مشرق بسام، وأن تحطم بقايا الأغلال التى عاقت حركتها نحو التحرر ورانت على قلوب أبنائها، وتفتح أمام أنظارها مجالات جديدة للإبداع الفنى يواكب الحياة المتطورة التى تحياها القارة الناهضة.

وأتركك عزيزى القارئ.. لتستمتع بقراءة تلك الأساطير.. والله الموفق لما يريد.

د. الحسينى الحسينى معدّى

أصل الحياة والموت
أساطير الخلق الإفريقية

كيف خلق العالم من قطرة لبن

فى البدء كان..

قطرة عظيمة من اللبن، وجاء دوندارى «Doondari» وخلق الحجر، وخلق الحجر الحديد، وخلق الحديد النار، والنار الماء، والماء الهواء، وجاء دوندارى، ومن الحجر والحديد، ومن النار، ومن الماء والهواء خلق الإنسان، وحينما تكبر الإنسان، خلق دوندارى العماء، وقهر العماء الإنسان، وحينما تكبر، خلق دوندارى النوم، وقهر النوم العماء، وحينما تكبر، خلق دوندارى الموت، وقهر الموت النوم، وحينما تكبر الموت، جاء دوندارى فى صورة چينو «Gueno» الخالد، وقهر الموت.

الخالق والموت

فى البـدء، لم يكن هناك شىء، وفى ظلام الكون كـان الموت (سـا) «Sa» وامرأته، وابنته الوحيدة، وعن طريق السحر، خلق (سا) بحراً شاسعاً من الوحل، ليكون مكاناً له، وفى يوما ما تبدى الإله الاتنجانا «Alatangana» وزار (سا) فى مكانه الموحل، فانزعج الإله مما رأى، وعنف (سا) بقسوة، وقال له: «لقد خلقت مكاناً سيئاً، غير صالح للسكنى، لا نبات فيه، ولا كائنات حية، ولا ضوء»، ثم بدأ الإله فى إصلاح هذه الأخطاء، فجعل الوحل صلباً، وخلق بذلك الأرض، ولكنها بدت له كئيبة قاحلة، فخلق النباتات الخضراء، وكسا الأرض بها، وخلق الحيوانات من كل نوع، ونظر (سا) حوله، فشعر بالرضى، وأكرم ضيافة الاتنجانا، وأظهر له مشاعر الود والصداقة، ومضى بعض الوقت، ولما لم يكن ألاتنجانا متزوجاً، فقد طلب من (سا) أن يزوجه ابنته، ولكن (سا) لم يرد ألاتنجانا زوجا لابنته، فاعتذر له، ثم رفض رفضاً قاطعاً، فاتفق الاتنجانا مع الفتاة سراً وتزوجها، وهربا من غضب (سا) إلى ركن ناءٍ من الأرض، وعاشا معاً فى سعادة، وأنجبا سبعة أولاد وسبع بنات، أربعة أولاد وأربع بنات بيض، وثلاثة أولاد وثلاث بنات سود، ومضت الأيام، وفوجئ ألاتنجانا وزوجته بأولادهما يتحدثون بلغات غريبة، وكانت دهشتهما عظيمة، حينما وجدا أنفسهما لا يفهمان هذه اللغات، وانزعج الاتنجانا من هذا الأمر، ورأى أن يذهب إلى (سا)، ودون توان، مضى فى طريقه إليه، وعندما قابل (سا) الاتنجانا قال له بجفاء: «هذا هو عقابى، وجزاء إساءتك إلىّ، لن تفهم أبداً ما يقوله أبناؤك، ولكن سأهب البيض منهم الذكاء والحبر والورق، ليدونوا أفكارهم، وللسود سأهب المحراث والمنجل والفأس، ليحصلوا على ما يحتاجون إليه، ويمدوا أنفسهم بالغذاء، على أن يتزوج البيض من بعضهم البعض، وكذلك السود»، وحرصاً على رضاء والد

زوجته، قبل ألاتنجانا شروط (سا)، وعاد إلى أبنائه، واحتفل بزواجهم جميعاً، مثلما أوصى (سا)، وبعد زواجهم تفرق الأبناء فى كل أنحاء الأرض، ومن هؤلاء الأجداد تكاثر البشر، البيض والسود، ولكن الظلام كان يسود الأرض التى انتشر فيها أبناء ألاتنجانا، وكان على ألاتنجانا أن يلجأ إلى (سا) مرة أخرى، فأحضر توتو tou-tou الطائر الأحمر الصغير، وديكاً، وأمرهما بالذهاب إلى (سا) وسؤاله النصيحة، وذهب الطائران فقال لهما: «سأهب لكما تغريدة الضوء، لكى يسعى أبناء ألاتنجانا إلى أعمالهم»، وعاد الطائران إلى ألاتنجانا، فوجداه غاضباً، وقال لهما: «لقد أمرتكما بالذهاب إلى (سا)، وزودتكما بالزاد للرحلة، ولكن يبدو أنكما قد أهملتما واجبكما، فحق عليكما العقاب»، ووقف الطائران فى حزن شديد، فرق لهما ألاتنجانا وسامحهما، وحينئذ، بدأ التوتو يغرد تغريد الضوء، وتلاه الديك صائحاً، وهنا بدأت المعجزة، فما إن انتهى الطائران من تغريدهما، حتى لاح فجر اليوم الأول، وظهرت الشمس فى الأفق، كما أمر (سا)، حتى أكملت رحلتها، فذهبت للنوم على الجانب الآخر من الأرض، وفى هذه اللحظة، بدت النجوم فى السماء، لتمنح البشر بعضاً من ضيائها فى ظلام الليل، ومنذ ذلك اليوم، يغرد طائر التوتو، ثم يليه الديك صائحاً، ليأتى ضوء النهار، وهكذا منح (سا) البشر الشمس والقمر والنجوم، ولكنه دعا ألاتنجانا وقال له: «لقد أخذت ابنتى الوحيدة بعيداً عنى، ورغم ذلك، فقد أسديت لك خيراً كثيراً، وجاء دورك الآن، لترد على صنيعى، فكما حرمتنى من ابنتى، عليك أن تقدم لى واحداً من أولادك كلما أشاء، وسيكون ندائى الذى يجب أن يُطاع دائماً، صوت طرق القرع اليابس، يسمعه مَنْ اختاره منهم فى أحلامه، فيلبى». ودون إرادته وافق ألاتنجانا، اعترافاً منه بما فعل، وهكذا، ولأن ألاتنجانا قد خالف التقليد الذى يقتضى بدافع صداق العروس، كتب على البشر الموت(❖).

(❖) أسطورة من مالى.

كيف ترك الإله الأرض؟

فى زمن بعيد، كان نيامبى «Nyambe» يعيش مع زوجته ناسيليلى «Nasilele» على الأرض، فخلق الغابات والأنهار والسهول، وخلق الحيوانات والطيور والأسماك، وخلق كامونو «Kamunu» الإنسان وزوجته، وبعد مضى وقت قصير، استطاع كامونو أن يميز نفسه عن بقية المخلوقات، فكان يحفر الخشب، ويصنع لنفسه كوباً منه، مثلما يفعل نيامبى.

وحينما كان نيامبى يصهر الحديد أو يطرقه، كان كامونو يفعل أيضاً، وكان نيامبى يندهش، ثم بدأ يخشى أفعال كامونو، وذات يوم صنع كامونو لنفسه رمحاً، وقتل به أحد أبناء الظبى الأحمر الكبير، ثم قتل به حيوانات أخرى وأكلها. فجاءه نيامبى وعنفه: «كامونو، إن ما تفعله سيئ، لماذا تقتل؟ هؤلاء أخوتك، لا تأكلهم، فأنتم جميعاً أبنائى. كامونو، اذهب بعيداً، لا مكان لك هنا»، وذهب كامونو بعد أن طارده نيامبى، وأقصاه بعيداً، ومضى وقت وهو فى مكانه البعيد، يقتل الحيوانات ويأكلها، ثم عاد ثانية، وعند مورد الماء، رأته كانجومبا «Cangomba» الظبية الحمراء الكبيرة، فذهبت إلى الطائر شاسيشو «Sasisho»، رسول نيامبى، وقالت له: «لقد رأيت كامونو، الذى يقتلنا، يقف عند الماء، ممسكاً بيده هراوة ووعاءً سحرياً». وذهب الطائر إلى نيامبى وقال: «لقد عاد كامونو، وهو هنا الآن». قال نيامبى: «أعرف، دعه يبقى». وكان كامونو يريد أرضاً ليزرعها، فذهب إلى كانجومبا، وأخذته إلى شاسيشو رسول نيامبى، وأعطى نيامبى لكامونو حقلاً، وفى ليلة، دخل الجاموس حقل كامونو، فطارد كامونو الجاموس، وطعن واحداً منها. وفى الصباح، وجده مقتولاً فى الحقل، فذهب إلى نيامبى وقال: «لقد قتلت جاموساً». وقال نيامبى: «دعوه يأكله». وذات يوم مات وعاء كامونو الذى يعد فيه عقاقيره السحرية، فذهب إلى كانجومبا

وقال لها: «كانجومبا، اذهبى إلى نيامبى وتحدثى إليه، قولى له لقد مات وعاء عقاقير كامونو»، فقال نيامبى: «هكذا تنتهى أشيائى أيضاً»، وعاد كامونو إلى حقله، وفى الليل، دخل الغزال حقل كامونو، وطعن كامونو واحداً منها وقتله، وأخذ ذيله، وذهب إلى كانجومبا وقال لها: «لقد قتلت غزالاً»، وذهبت كانجومبا إلى نيامبى فقال: «هو عطاء منى، فليأكله»، ومات كلب كامونو، فذهب كامونو إلى نيامبى ليخبره، فقال نيامبى: «أنا أعرف». وعاد كامونو إلى زوجته، وقال لها: «لقد رأيت كلبى مع نيامبى، ووعائى». ورفضت الزوجة أن تصدق هذا، وقالت: «لا يمكن أن يكون الأمر هكذا»، وغربت الشمس، ودخلت الفيلة حقل كامونو، فأسرعت زوجته ونبهته، فأخذ رمحه وطعن فيلاً فقتله، وانقضى الليل، فذهب كامونو إلى كانجومبا وقال لها: «اذهبى إلى نيامبى وقولى له إننى قد قتلت فيلاً». وقال نيامبى: «هو عطاء منى، فليأكله»، ومات ابن كامونو، فذهب مع كانجومبا إلى نيامبا، وهناك وجد كامونو ابنه جالساً مع نيامبى، فقال نيامبى: «إن أشيائى أيضاً تنتهى هكذا». ثم دعا نيامبى كانجومبا وساسيشو، وقال لهما: «إن كامونو يعرف مكانى، ويأتى إلىَّ كلما أراد، يجب أن أذهب إلى مكان آخر». واتخذ نيامبى من إحدى الجزر مكاناً له، وحينما عرف كامونو، جمع عدداً كبيراً من أعواد البامبو، وصنع حزماً منها، ووضع بعضها فوق بعض، وصعد فوقها، ينظر إلى جزيرة نيامبى، ليعرف مكانه، ثم حفر زورقاً من الخشب، وأخذ كل ما جمعه من الحيوانات والأسماك، وذهب إلى نيامبى، وقدمها قرباناً له، وقبل نيامبى قربان كامونو وهو حزين، ولم يأكل الحيوانات والأسماك لأنهم أبناؤه، ثم بحث عن مكان آخر له، فجعل فى الأرض جبلاً، واتخذ له مأوى فوقه، ولكن الإنسان تبعه إلى هناك أيضاً، فأرسل ساسيشو وكانجومبا إلى كل أنحاء الأرض، ولكن حيثما ذهبا، وجدا أبناء الإنسان، فدعا نيامبى العرافين، وجاءت سيمبكيكى «Simbukiki» الحشرة المتنبئة، وأرسلا كل الطيور إلى الجنوب، وإلى الشمال، ثم دعوا نالنجوانا «Nalungwana» كاهن نيامبى، فأقام الطقوس، وأحضر ليبى «Lieuyu» العنكبوت، وأمسك به وقال

لنيامبى: «ليبى، سيجد المكان»، وأطلق نيامبى ليبى، وأرسل معه ساسيشو، فذهبا، ثم عادا وقالا لنيامبى: «لقد وجدنا المكان»، فقال نالنجوانا : «كلا، إنكما لم تصلا بعد، اذهبا واعبرا النهر»، وذهب ليبى وساسيشو وعبرا النهر، ثم عادا وقالا لنيامبى: «لقد وجدنا المكان، عند الضفة الأخرى من النهر»، فقال نالنجوانا : «هذا هو المكان، ليتوما Litooma مدينة نيامبى».

ودعا نيامبى الحيوانات جميعاً، وقال لها: «يمكنكم أن تتبعونى، حتى لا يؤذيكم الإنسان». فقالت الحيوانات: «نحن لا نستطيع أن نعيش فى مكان آخر غير الأرض»، وقالت الظبية الحمراء الكبيرة: «لن يستطيع الإنسان أن يؤذينى، فأنا أسرع منه»، وقال التيتل: «وأنا أيضاً»، وقالت حيوانات أخرى كثيرة: «ونحن كذلك»، وقالت السمكة: «أنا لا أخاف الإنسان، فأنا أحيا فى الماء»، وقال فرس النهر: «الإنسان؟ أنا أستطيع أن أقتل الإنسان، أنا أقوى منه»، وقال الفيل: «وأنا أيضاً». وقال الجاموس والأسد: «وكذلك نحن»، وقال الضبع: «سوف أرقد وأنتظره فى الليل، وأنشب مخالبى فيه وهو نائم»، وقال الأوز البرى: «سوف أعيش مستعيناً بأجنحتى»، وقالت الطيور الأخرى: «ونحن أيضاً»، وهكذا، توالت الأقوال، ولكن نيامبى كان يعرف أن الإنسان أكثر دهاءً من الحيوانات، فقال لها : «اذهبوا جميعاً، واجمعوا خشباً». وجمعت كومة عظيمة من الخشب، فقال نيامبى: «ضعوا إناءً فوق الخشب، وأشعلوا فى الخشب النار»، واشتعلت النار، وتوهجت، واشتدت حرارة الأرض من حولها، فقال نيامبى: «والآن من منكم يستطيع أن يأتى بالإناء؟». وتقدم التيتل، ولكنه خاف، وخافت أيضاً الظبية الكبيرة، والغزال، ولم يستطع الكثير من الحيوانات حتى الوقوف أمام النار، فولوا هاربين، وحاول الفيل، والخرتيت، فاحترق جلدهما، وأسرعا إلى الماء هاربين، وقهرت النار كل الحيوانات، ولم يستطع أى منها أن يأتى لنيامبى بالإناء، واعترفت بعجزهم، فدعا نيامبى كامونو، فجاء كامونو وأبناؤه بأوعية من الخشب والقرع اليابس، وملأوها من النهر، وسكبوا الماء حول النار ليرطبوا الأرض، ثم سكبوا الماء على النار، فأخمدوها، وتقدم كامونو، فأخذ الوعاء، وقدمه إلى

نيامبى، وعندئذٍ، وافقت بعض الحيوانات التى لا نعرف عنها شيئاً الآن، على أن تذهب مع نيامبى، وجمع نيامبى كل البشر والحيوانات وقال: «إذا كان هناك إنسان قد ولد اليوم، فليأتِ إلىَّ»، فقال كامونو: «إنه مولود غض، وكأنه صنع من الماء، ولا يستطيع أن يبتعد عن من ولدته»، فقال نيامبى: «إذا كان هناك حيوان قد ولد اليوم، فليأت إلىَّ»، فجاء الحيوان الصغير مسرعاً، ووقف أمام نيامبى. فقال: «ليكن هذا، بعد ولادته يسير الحيوان، ويظل الإنسان فى المهد وقتاً»، وحان وقت رحيل نيامبى وزوجته ناسيليلى، ورسوله ساسيشو إلى ليتوما، فقال نالنجوانا: «ليكن ليبى العنكبوت أعمى، فلا يعرف طريقه إلى ليتوما ثانية، فقد يأتى بكامونو إليها»، وترك نيامبى الأرض. وجاء كامونو، ودعا أبناءه وقال لهم: «يجب أن نقيم برجاً عالياً، لنعرف مكان نيامبى». فجاءوا بعواميد من الخشب، وثبتوها فى الأرض، وأقاموا فوقها عوميد أخرى، وجاؤا بحبال من لحاء الشجر، وربطوها معًا وبهذه الطريقة أقاموا برجاً عالياً، ولكن ثقل البرج مزق حبال لحاء الشجر، فسقط البرج، وسقط من كانوا فوقه من أبناء كامونو، وماتوا، ولم يحاول كامونو ثانية معرفة مكان نيامبى، ولكن حينما كانت الشمس تشرق كل صباح، كان كامونو ينظر إليها ويقول: «المجد لنيامبى فى الأعالى» ثم يشبك يديه معاً، ويحنى جبهته نحو الأرض، وهكذا، بدأ أبناء كامونو يطلبون العون من نيامبى، حينما يذهبون إلى الصيد، أو أثناء المرض، أو حتى فى أحلامهم، ويقدمون له قرابينهم من الماء فى أوعية الخشب، وفى يوم القربان هذا، لا يقومون بأى عمل آخر، وفى كل يوم، حينما تغرب الشمس فى الأفق، يقيمون صلاتهم لنيامبى، ولناسيليلى أيضاً يقيم أبناء كامونو صلاتهم، كلما ظهر القمر من جديد، وحينما يموت الرجل من أبناء كامونو، فإنه يوضع فى قبره، ووجهه فى اتجاه الشرق، ففى ذلك الاتجاه، يمكنه أن يتعرف طريقه إلى نيامبى، وحينما تموت المرأة، فإنها توضع فى قبرها ووجهها فى اتجاه الغرب، ففى ذلك الاتجاه يمكنها أن تتعرف طريقها إلى ناسيليلى، وعند الموت، يجب أن يكون الإنسان مثقوب الأذنين، وعلى كل من ذراعيه، يبدو جيداً وسم شعائر نيامبى، عندئذٍ

فقد يتم قبوله من نيامبى، حينما يصل إلى ضفة النهر، ويرى الطريق الذى يقوده إليه؛ حيث يحيا حياة حسنة، ولكن إذا مات الإنسان، ولم يكن مثقوب الأذنين، ولم يكن هناك وسم شعائر نيامبى على كل من ذراعيه، فإنه يمنح للذباب ليأكله، فإذا لم يرض بهذا، فإنه يسير فى طريق قفر طويل، يضيق به كلما سار فيه، وفى نهايته صحراء مفزعة، يفنى فيها من الجوع والعطش(❖).

(❖) أسطورة من غينيا

كيف كان القمر أباً للعالم؟

خلق الإله إنساناً، وأعطاه اسم القمر «Moon»، وكان يعيش فى أعماق البحر، ولكنه أراد أن يترك الأعماق، ويعيش فوق سطح الأرض، فقال له الإله محذراً: «سوف تأسف على هذا، وستجد الحياة فوق سطح الأرض قاسية».

ورغم تحذير الإله، ترك القمر أعماق البحر، وصعد إلى سطح الأرض، ووجد القمر سطح الأرض قفراً خالياً، لا شجر، لا نبات ولا حيوان، فشعر بالحزن، وأخذ يبكى، فقال له الإله: «لقد حذرتك، ولم تستمع إلىَّ، ولكن لن أتركك وحيداً، ستكون لك زوجة، تعيش معك لعامين»، وأرسل الإله نجمة الصباح لتعيش مع القمر، وأتت نجمة الصباح بالنار من السماء، وحينما أتى الليل، ذهبت لتنام فى كوخ القمر، فأشعلت النار، ونامت على جانب منها، وعلى الجانب الآخر من النار، نام القمر، ولكن فى أثناء الليل، عبر القمر النار إليها، وناما معا، وفى الصباح، كانت زوجة القمر حاملاً، وولدت نجمة الصباح الأشجار والحشائش، وكل أنواع النباتات، ونمت الأشجار، وارتفعت حتى لامست السماء، فسقطت الأمطار، وملأت الخضرة الأرض كلها، وكان القمر ونجمة الصباح يأكلان جذور النباتات والبذور، وينعمان بحياتهما السعيدة، حتى انقضى العامان، فأمر الإله نجمة الصباح أن تعود إلى السماء، وظل القمر يبكى وحدته ثمانية أيام، فقال له الإله: «لن أتركك وحيداً، ستكون لك زوجة ثانية، تعيش معك لعامين، ولكنك بعد هذا ستموت»، وأتت نجمة الليل من السماء، وفى اليوم الأول، نام القمر معها، فولدت الماعز والخراف والأبقار، وفى اليوم الثانى ولدت الظباء والطيور، وفى اليوم الثالث، ولدت صبياناً وبنات من البشر، وفى اليوم الرابع، أراد القمر أن ينام مع زوجته، فقال له الإله: «كف عن هذا، فقد اقترب موعد موتك»، ولكن القمر لم يطع الإله، ونام مع نجمة الليل، فولدت الأسود، والنمور، والعقارب،

والثعابين، فقال الإله للقمر: «لقد حذرتك، ولم تستمع إلىَّ»، وعاش القمر مع زوجته نجمة الليل، وذات يوم، نظر إلى بناته من البشر، فجذبه جمالهن ونام معهن، فأنجبن له أطفالاً كثيرة، وأصبح القمر ملكاً على مملكة كبيرة من أبنائه، ولكن كان أن غارت نجمة الليل، من بناتها من البشر، فأرسلت للقمر ثعباناً يلدغه، ولدغ الثعبان القمر، فأصابه المرض، وحينئذٍ، كفت الأمطار عن السقوط، وجفت الأنهار والبحيرات، وماتت النباتات، ولم يجد أحد من أبناء القمر ما يأكله، فاجتمعوا معا، وذهبوا إلى القمر، وقالوا له: «لقد كفت الأمطار عن السقوط، لما فعلته من أخطاء». ثم هجموا عليه، فخنقوه، وألقوا به إلى البحر، وكان العامان قد انقضيا، فأمر الإله نجمة الليل، فعادت إلى السماء.

وجعل أبناء القمر واحداً منهم ملكاً عليهم، ولكن القمر لم يلبث أن صعد من البحر إلى السماء، وهناك أخذ يلاحق نجمة الصباح، زوجته الأولى، التى وجد السعادة معها(❖) .



(❖) اسطورة من زامبيا.

التمرد على الإله

فى البدء، لم يكن هناك شىء.

لا بشر، لا حيوانات، لا نبات، لا سماء ولا أرض. كان هناك الإله نظام «Nzame» والآلهة ميبير «Mebere»، ونكوا «Nkwa». وخلق الإله نظام السماء وحفظها لنفسه وللآلهة. وخلق الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض ونفخ فيها، فخلقت اليابسة كل ما عليها، وخلقت المياه كل ما فيها.

وهكذا خلق نظام كل شىء: السماء والشمس والقمر والنجوم، والأرض والحيوان والنبات، كل شىء، ونادى «ميبير» و«نكوا» وقال لهما: «لقد خلقت كل هذا، فهل ينقصه شىء؟» فقال «ميبير» و«نكوا»: «لقد خلقت خلقاً جديداً، ولكنا نرى على الأرض حيوانات ونباتات كثيرة، ولا نرى لها سيداً»، واختار «ميبير» و«نكوا» الفيل الحكيم، والنمر القوى ذا الدهاء، والقرد الماكر الرشيق، أسياداً للكائنات، ورأى نظام أن يخلق كائناً أفضل، فخلق الإنسان، وجعله شبيهاً بالآلهة الثلاث؛ فأخذ من نظام القوة، ومن ميبير السلطة، ومن نكوا الجمال، وقالت الآلهة: «لتكن الأرض لك، والسيادة على كل الكائنات. ومثلنا، تكون لك الحياة، وتتبعك الأشياء، وليكن اسمك من الآن، أيها الإنسان، فام Fam أى القوة»، وارتفعت الآلهة إلى مستقرها فى السماء، وعاش الإنسان الأول فام وحيداً على الأرض، وكان الفيل والنمر والقرد، هم السادة بين الحيوانات، ولكن فام الإنسان فاقهم جميعاً فى القوة والسلطة والجمال، فازدهى بقوته، وصار شريراً متكبراً، وتوقف عن عبادة نظام، ورأى أن الإله فى السماء، والإنسان على الأرض، الإله إله، والإنسان إنسان، كل منهما يعيش فى مكانه، كل منهما يعمل لنفسه، وغضب الإله، فأرسل الرعد نظلان "Nzalan" إلى الأرض، وأسرع الرعد قاصفاً، فسقطت نار السماء على الغابات، فاشتعلت، وكانت الغابات تملأ الأرض، فصار

كل شيء كشعلة عظيمة، كل شيء هلك، الأشجار والنباتات، الحيوانات والطيور، والأسماك، ولم يعرف أحد أين ذهب «فام»، ولكنه لم يمت، فقد قالت الآلهة عند خلقه: «لتكن لك الحياة، فلا تموت أبداً»، ونظر «نظام» إلى الأرض، فوجدها سوداء قاحلة، لا شيء فيها، فشعر الإله بالخجل، واجتمعت الآلهة، ورأت أن تكسو الأرض المغطاة بالفحم كساءً جديداً، فنمت على الأرض شجرة، وأخذت تنمو وتكبر، وتساقطت بذورها على الأرض، فنمت أشجار كثيرة جديدة، وتساقطت أوراق الشجر، فأخذت تكبر وتسير، ثم تصير حيوانات عديدة، أفيالاً، ونموراً، وظباءً، وسلاحف، وكل أنواع الحيوانات، وسقطت أوراق الشجر في الماء فأخذت تسبح، وصارت أسماكاً عديدة، سردينا»، وسرطان بحر، ومحار، وكل الأنواع، وعادت الأرض كما كانت ثانية، ولكن تحت هذا الكساء، يجد من يحفر الأرض دائماً، قطعاً من الفحم الحجري، ومن جديد، اجتمعت الآلهة لخلق سيد جديد للحيوانات على الأرض، فخلقوا إنساناً آخر مثل «فام». ولكن قال «نظام»: «لتكن لك الحياة والموت، وليكن اسمك سيكم "Sekume"، ولتكن لك من الأشجار امرأة، فلا تعش في الأرض وحيداً». ومن إحدى الأشجار، صارت لسيكم امرأة، فأعطى لها اسم «مبنجو» "Mbongwe"، وجعل «نظام» لكل منهما: جنول "Gnoul" الجسد، و«نسيسم» "Nsissim" الظل، الذي يحيا داخل الجسد، فيجعل منه جسداً حياً، وحينما يموت الإنسان، فإن الظل يترك الجسد، ويذهب بعيداً، ولكنه لا يموت أبداً، فهو يحيا دائماً في الأعين، ففي وسط العين، توجد دائماً نقطة صغيرة مضيئة، إنها «نسيسم»، وهكذا، عاش «سيكم» و«مبنجو» سعداء على الأرض، وأنجبا العديد من الأبناء، ولكن في يوم ما، ظهر «فام»، وكان سجيناً تحت الأرض، بأمر الإله نظام، وظل زمناً طويلاً يحفر ويحفر، حتى خرج من سجنه، فوجد الإنسان الثاني قد أخذ مكانه على الأرض. وغضب «فام» غضباً هائلاً، وأخذ يختبئ في الأدغال، فيقتل أبناء «سيكم»، أو تحت الماء، فيقلب لهم قواربهم، ولهذا نقول: صمتاً صمتاً، فقام يسمع، ويجلب سوء الحظ(*).

(*) أسطورة من روديسا.

المرأة التى حاولت أن تغير مصيرها

كان..

حقل شاسع، وشجرة إيروكو «Iroko» عملاقة، وعلى جانبى الحقل، ظهر أزواج من الرجال والنساء، وكان ليف القنب يتناثر فى الحقل، المرأة تكنسه، والرجل يضعه فى مخلاة، ورجع البشر إلى حيث أتوا، واختفوا، وأصبح الحقل نظيفاً خالياً، وأظلمت السماء، وهبطت إلى الحقل مائدة عظيمة، وكرسى عظيم، وحجر الخلق الكبير، وفوق المائدة كانت هناك قطعة هائلة من الأرض. وبرق البرق، وقصف الرعد، وهبطت ووينجى «Woyengi» الأم، وجلست على الكرسى، ووضعت قدميها على حجر الخلق، ومن قطعة الأرض، أخذت تخلق البشر، ثم تضمهم إليها واحداً واحداً، وتعطى لهم من أنفاسها، فتدب فيهم الحياة، ويختار بعضهم أن يكونوا ذكوراً، والبعض الآخر أن يكونوا إناثاً، وتسأل «ووينجى» كلاً منهم أن يختار حياته على الأرض، فيريد البعض المال، والبعض الذرية، والبعض الحياة القصيرة، وتتوالى الأقوال، ثم تسأل «ووينجى» كلاً منهم أن يختار لنفسه مرضاً من الأمراض، وطريقة موت يعود بها إليها، ثم تقول: «ليكن هذا»، وتأخذ مخلوقاتها من البشر إلى جدولين، الأول نظيف رائق، تلقى فيه من لم يرد شيئاً من ممتلكات الدنيا، والثانى موحل عكر تلقى فيه من أراد المال والسلطة والذرية، وهكذا، تقود «ووينجى» البشر كل إلى طريقه، ومن بين المخلوقات من البشر، كان هناك امرأتان، اختارت الأولى أن يكون لها ذرية ذات شهرة ومال، واختارت الثانية «أجبوينبا» «Ogboinbe»، أن تتمتع بقوة لا تعادلها قوة أخرى على الأرض؛ واختارت المرأتان أن يولدا فى مكان واحد، وولدت «أجبوينبا» والمرأة الأخرى فى بلدة واحدة، ونشأتا معا يلعبان ويأكلان، ويتبادلان أسرارهما، كأختين لأب واحد، ولكن «أجبوينبا» كانت طفلة غير عادية، ففى سن

مبكرة، استطاعت أن تعالج المرضى، وتأتى لهم بالشفاء، وتتنبأ، وترى المستقبل، وما هو بعيد، وتعرف لغة الحيوان والطير، والعشب والشجر، وتقوم بأشياء عجيبة ورائعة، وذاع اسمها، وأصبح على كل شفاة، وكبرت «أجبوينبا» وصديقتها، واتخذت كل منهما لها زوجاً، وأنجبت صديقة «أجبوينبا» طفلها الأول، ولم تنجب «أجبوينبا»، ولكن قواها استمرت فى التزايد، وأنجبت صديقتها طفلها الثانى، وظلت «أجبوينبا» بلا أبناء، ولكن شهرتها اتسعت، ووصلت إلى أماكن بعيدة وعديدة، وسعى إليها الناس من كل مكان، ولكن بالرغم من هذا، شعرت «أجبوينبا» بأن حياتها خاوية، وأرادت أن يكون لها أطفال، وتاقت بشدة إلى ذلك. وأعطت ووينجى إلى صديقة «أجيوينبا» أطفالاً كثيرة، وأحبتهم «أجبوينبا» كما لو كانوا أبناءها، واستخدمت قواها فى العناية بهم، ولكن هذا لم يجعلها راضية، فقد أرادت أن يكون لها أطفال هى أيضاً، لتعتنى بهم، وكانت قوى «أجبوينبا» تزداد، ولكن لم يكن فى قلبها سعادة. ولم تعد تحتمل ذلك، ورأت أن ترحل عائدة إلى «ووينجى»، لتعيد خلقها من جديد، وذهبت «أجبوينبا» إلى حجرة عقاقيرها، حيث تحتفظ بكل قواها، وسألت كل قوة منها، إذا كانت تريد أن تصحبها فى رحلتها إلى «ووينجى»، وأظهرت كل منها موافقتها على مصاحبة «أجبوينبا». فاخترت الأكثر قوة منهم، ووضعتهم فى جعبتها، وذهبت «أجبويينا» إلى صديقتها وقالت لها إنها راحلة لفترة قصيرة. وشعرت الصديقة بالحزن لفراق صديقتها وحامية أطفالها، ولكن «أجبوينبا» أخبرتها أنهم سيكونون فى حمايتها، حتى وهى بعيدة، ولن يؤذيهم شىء، وتركت «أجبوينبا» صديقتها، وحملت جعبة قواها وعقاقيرها، وسارت فى طريقها إلى «ووينجى» تصل ليلها بالنهار، بلا راحة أو طعام. وكان صوت البحر الذى ينتهى إلى طريقها يقترب منها. ووشيش موجه يصل إليها، وكأنها تراه، حتى وصلت إلى غابة تقطع الطريق إلى البحر، فسمعت صوتاً عالياً يأتى من خلفها، والتفتت «أجبوينبا»، كان «إيسمبى» «Isembi» ملك الغابة يقف أمامها، قال «إيسمبى»: «أنتِ إذا مَنْ سمعنا عنها كيراً، «أجبوينبا!» قالت «أجبوينبا»: «لا توجد إلا «أجبوينبا» واحدة فى هذا العالم، هى من أكون».

قال «إيسمبى»: «كملك لهذا المكان، أرجو أن تقبلى دعوتى»، وقبلت أجبوينبا دعوة إيسمبى، وذهبت معه إلى حيث يقيم. وهناك، أظهر «إيسمبى» وزوجته حفاوتهما بـ«أجبوينبا»، وقدما الطعام ونبيذ النخيل، وقال «إيسمبى»: «ولكن، إلى أين تقصد أجبوينبا؟» قالت أجبوينبا: «إلى ووينجى، لتعيد خلقى من جديد، ويكون لى طفلا»، فقال «إيسمبى»: «أجبوينيا»، كيف تذهبين إلى «ووينجى» وأنت من الأحياء! «أجبوينبا»، اذهبى من هنا إلى حيث كنت، إن ما تريدينه لن يكون». فقالت له «أجبوينبا»، «أعرف أننى من الأحياء، ولكن يجب أن أقابل «ووينجى»، وتركت «أجبوينبا» «إيسمبى» وزوجته غاضبة، وسارت فى طريقها إلى البحر. ولكنى ما إن ابتعدت قليلاً، حتى عادت ثانية إلى «إيسمبى» وقالت له: «إننى أتحداك «إيسمبى»، لتعرف من تكون أجبوينبا». فقال «إيسمبى»: «اذهبى فى طريقك «أجبوينبا»، إننى لن أقاتل امرأة». ولكن «أجبوينبا» أصرت على تحديها لـ«إيسمبى»، فثار غضبه، وصاح قائلاً: «أنا «إيسمبى» ملك الغابة، كيف تجرؤ امرأة على منازلتى؟»، وأسرع غاضباً إلى كوخ عقاقيره وقواه، وهناك أبدت قواه وعقاقيره تحذيرها له. ولكنه أخذ منها ما يحتاجه للنزال. وعاد إلى «أجبوينبا»، وقال لها: «فلتكونى أنت البادئة». ورفضت أجبوينبا وقالت له: «أنت الأكبر سناً، فلتبدأ أنت أولاً»، وبدأ «إيسمبى» فى ترديد تعاويذه، وهو قلق لاضطراره إلى القضاء على «أجبوينبا»، دون أن يمنحها فرصة أخرى، وفى الحال، بدأت قوى «أجبوينبا» وعقاقيرها تغادر جعبتها واحدة وراء الأخرى، وفقدت «أجبوينبا» كل قواها، فأسرعت فى ترديد تعاويذها، وهى تدور وتدور مقاومة قوى «إيسمبى»، فإذا بقواها وعقاقيرها تعود إلى جعبتها ثانية، واحدة وراء الأخرى، حتى عادت جميعها. وأنهت «أجبوينبا» تعاويذها، فعادت هى الأخرى «أجبوينبا» القوية من جديد، وسألت «أجبوينبا» «إيسمبى» أن يجرب قواه معها مرة ثانية، ولكنه لم يكن يملك أية قوة أكبر، فقال لها: «بل أنت من يعاود النزال»، فأخذت «أجبوينبا» تردد تعاويذها وهى تدور وتدور، فإذا بقوى «إيسمبى» وعقاقيره تأتى إليها، وتدخل جعبتها واحدة وراء الأخرى، حتى فقد «إيسمبى» قواه جميعاً، وسقط

ميتاً، وحملت «أجبوينبا» جعبة قواها وعقاقيرها، لتواصل رحلتها إلى «ووينجى»، ولكن زوجة «إيسمبى» جاءت إليها منادية، ترجوها أن تعيد زوجها إلى الحياة ثانية. وشعرت «أجبوينبا» بما تشعر به زوجة «إيسمبى»، وتأثرت به، فرددت تعاويذها، حتى ردت الحياة إلى «إيسمبى» ثانية، وعندئذٍ سألتها زوجة «إيسمبى» أن تعيد إليه قواه من جديد، وفى هذه المرة، رفضت أجبوينبا طلبها، وتركتهما، وسارت فى طريقها إلى «ووينجى»، حتى وصلت إلى شاطئ البحر؛ حيث تقع مدينة إجبى «Egbe». ودخلت أجبوينبا المدينة، فسمعت صوتاً ينادى من خلفها، والتفتت «أجبوينبا»، وكان إجبى ملك الحضر والساحل يقف أمامها. قال «إجبى»: «هل أنتِ مَنْ سمعنا عنها كثيراً، «أجبوينبا؟»، قالت «أجبوينبا»: «لا توجد إلا «أجبوينبا» واحدة فى هذا العالم، هى من أكون». قال «اجبى»: «إن شهرة «أجبوينبا» قد سبقتها إلينا، أنا «إجبى» ملك الحضر والساحل أرحب بكِ، وأدعوكِ إلى ضيافتى»، وقبلت «أجبوينبا» دعوة «إجبى»، فأكرم ضيافتها، وقدم الطعام ونبيذ النخيل. ثم سألها عن سبب رحلتها، فقالت «أجبوينبا»: «أريد أن أذهب إلى «ووينجى»، لتعيد خلقى من جديد، ويكون لىَّ طفلاً». فقال «إجبى»، وقد راعه ما سمع: «اذهبى من هنا إلى حيث كنت، اذهبى «أجبوينبا»، إنى ناصح لكِ، فلا يوجد كائن حى يمكنه أن يرى «وينجى»». فقالت «أجبوينبا»: «ولكنى سوف أقابل «ووينجى» وحملت جعبة قواها وعقاقيرها غاضبة، وتركت «إجبى»، لتكمل رحلتها إلى «ووينجى». ولكن ما إن ابتعدت قليلاً، حتى عادت ثانية، وقالت له: «أننى أتحداك «إجبى»، لتعرف من تكون «أجبوينبا»، وثار إجبى حتى خنقه الغضب، ولكنه استعاد صوته، وقال لها: «اذهبى فى طريقك أيتها المرأة». ولم تتحرك «أجبوينبا»، وأصرت على تحديها لـ«إجبى»، ولم يستطع «إجبى». الذى لم يرفض أبداً تحدياً من قبل، أن يرفض تحدى امرأة، أو أن يغتفر إصرارها، فقال لـ«إجبوينبا»: «فليكن، ولنرى من منا الأقوى، أنتِ أيتها المرأة، أم «إجبى» ملك الحضر والساحل»، وذهب إلى كوخ عقاقيره وقواه، وسلح نفسه بأقوى أسلحته، وخرج إلى «أجبوينبا» وقال لها: «هيا، ولتكونى أنتِ البادئة»، ولكن «أجبوينبا»

رفضت، وقالت له: «بل فلتكن أنت»، ولم يرد «إجبى» أن يدخل فى جدال معها، فبدأ فى ترديد تعاويذه. وفى الحال، أخذت كل قوى «أجبوينبا»، وكل القوى التى غنمتها من «إيسمبى»، تغادر جعبتها، وتتلاشى فى كل الاتجاهات. وما إن شاهدت «أجبوينبا» ذلك، حتى بدأت فى ترديد تعاويذها وهى تدور وتدور مقاومة قوى «إجبى»، حتى أخذت كل قواها، وكل القوى التى غنمتها من «إيسمبى»، تعود إلى جعبتها من جديد. وحينما وجدت «أجبوينبا» كل قواها كاملة فى جعبتها، أنهت تعاويذها، وسألت «إجبى» أن يجرب قواه معها مرة ثانية، ولكنه لم يكن يملك أية قوة أكبر، فقال لها: «بل أنتِ من يعاود النزال»، ورددت «أجبوينبا» تعاويذها، فأخذت كل قوى «إجبى» تأتى إليها، وتدخل جعبتها. وفقد «إجبى» قواه جميعاً، وأنهت «أجبوينبا» تعاويذها، فسقط ميتا، وأخذت «أجبوينبا» جعبتها، وسارت نحو البحر، ولكن ما إن سارت خطوات قليلة، حتى سمعت زوجة «إجبى» تناديها، وهى تبكى وتنتحب، وترجوها أن تعيد إليها حياة زوجها. وتأثرت «أجبوينبا» ببكاء زوجة إجبى، وأشفقت عليها، فرددت تعاويذها، وأعادت الحياة إلى «إجبى» من جديد، فسألتها زوجة إجبى أن تعيد إليه قواه، ولكن «أجبوينبا» رفضت طلبها، وسارت نحو البحر، لتكمل رحلتها، وتقدمت خطوات أجبوينبا واثقة مسرعة، إلى أن وجدت أمامها بحراً هائجاً هادراً، بحراً جباراً قوياً، بحراً لم يعرف عبوره أبداً كائن حى، ورأت «أجبوينبا» الأمواج العاتية تتعالى، فدب الفزع فى قلبها القوى، ولكنها كانت تعرف أنه ليس هناك طريق آخر. ووقفت «أجبوينبا» تنظر إلى البحر، فقال البحر لها: «مَنْ أنت يا مَنْ تقفين فى حضرة البحر القوى، الذى لم يعبره كائن أبداً؟». فقالت «أجبوينبا»، وقد استجمعت شجاعتها: «أنا «أجبوينبا»، التى لا نظير لها فى العالم، أريد أن أعبر، لأذهب فى طريقى إلى «ووينجى»». فقال البحر: «أنا البحر القوى، الذى لم يعبره كائن أبداً، آآخذك بين أمواجى، وأجذبك إلى أعماقى، إذا جرؤتى أن تعبرى»، وشعرت «أجبوينبا» بالفزع مما سمعت، ولكن لم يكن هناك شىء يمكن أن يوقفها، فاندفعت متحفزة إلى البحر، وما أن لامست قدميها الماء، حتى أقبلت

الأمواج هادرة إليها، ورفعت «أجبوينبا» جعبة قواها فوق رأسها، والخوف يطبق عليها، والأمواج ترتفع من حولها، فتغطى وسطها وصدرها، ورأت «أجبوينبا» نفسها والأمواج تبتلعها، فأطلقت صرخة فزعة، وصاحت قائلة: «إيه أيها البحر، الذى لم يعبره كائن أبداً». ثم أخذت فى ترديد تعاويذها. وفى الحال، بدأ الموج يهبط مسرعاً إلى صدرها، فوسطها، فركبتيها، فقدميها، حتى انبسط القاع عارياً، كاشفاً عن آلهة وأرواح البحر، فأخذت أجبوينبا طريقها، عابرة إلى الجانب الآخر، ووصلت «أجبوينبا» إلى الجانب الآخر من البحر، ووقفت تنظر إلى القاع الجاف أمامها، ثم قالت: «فلتكن كما كنت من جديد»، وسارت «أجبوينبا»، مواصلة رحلتها، حتى وصلت إلى مملكة الملك السلحفاة، ورأى الملك السلحفاة «أجبوينبا» وهى سائرة، فاقترب منها، ولما تأكد أنها «أجبوينبا» الشهيرة، التى سمع عنها كثيراً، دعاها إلى حيث يقيم، وقبلت «أجبوينبا» دعوة الملك السلحفاة، وذهبت معه، وهناك قابلت أوبوين «Opoin» زوجة الملك، ووالديه أليكا «Alika»، وأريتا «Arita». فرحبوا بها، وأكرموا ضيافتها، وقدموا الطعام ونبيذ النخيل، وبعدها غلب الفضول الملك السلحفاة، فسأل «أجبوينبا» عما أتى بها إلى هذا الجانب من البحر، حيث لا يعيش بشراً على الإطلاق، فقالت له «أجبوينبا» عن سبب مجيئها. فاندهش الملك، ونصحها أن تعود إلى حيث كانت، وقال لها: إنه لا يمكن لكائن حى أن يرى «ووينجى». ولكنها أصرت على مواصلة رحلتها، فقال لها محذراً: «أجبوينبا»، لم يذهب فيما وراء مملكتى أحد قط. فهناك يعيش الإله آدا «Ada» عظيم القوى، والإله ياسيى «Yesi» صاحب حجرى الخلق الصغيرين»، ولكن «أجبوينبا» قالت له إنها ستواصل رحلتها، وأنه لا شىء يمكن أن يوقفها. وسارت فى طريقها، تواصل رحلتها. وبعد أن سارت قليلاً، عادت ثانية إلى الملك السلحفاة، وطلبت منه أن يجرب قواه معها، ليعرف من تكون «أجبوينبا».. ولم يأخذ الملك السلحفاة كلمات «أجبوينبا» مأخذ الجد، وقال لها: «اذهبى «أجبوينبا»، وواصلى رحلتك التى تشغل قلبك». فأصرت «أجبوينبا» على تحديها له. فقال له الملك السلحفاة مفاخراً: «ألم

تسمعى عن الملك السلحفاة! إن العالم كله يعرف اسمى وشهرة قوتى. إذا كنت تعنى حقاً ما تقولينه، فإننى مستعد للقتال»، وذهب الملك السلحفاة إلى كوخ عقاقيره وقواه، وسلح نفسه بقواه وعقاقيره القوية. وعاد إلى «أجبوينبا». فقالت له أن يبدأ القتال. ولكنه رفض قائلاً إنه ذكر بالإضافة إلى كونه سلحفاة، ولكن «أجبوينبا» أصرت على أن يكون هو البادئ، وعندئذ أخذ الملك السلحفاة يردد تعاويذه، فسقطت جعبة «أجبوينبا» من يدها على الأرض، وتفرقت قواها فى أركان العالم. وفى الحال، بدأت «أجبوينب»! تردد تعاويذها، فعادت الجعبة إلى يدها، ثم عادت كل القوى ثانية، واحدة وراء الأخرى إلى داخل الجعبة. وتوقفت «أجبوينبا»، وسألت الملك السلحفاة أن يجرب قواه معها مرة أخرى، ولكنه لم يكن يملك قوى أخرى يقاتل بها «أجبوينبا»، فقال لها: «بل جربى أنتِ أقوى ما عندك». فبدأت «أجبوينبا» تردد تعاويذها، وقبل أن تصل إلى النصف، سقط الملك السلحفاة ميتا، وجاءت كل قواه، ودخلت جعبة قوى «أجبوينبا»، وأخذت «أجبوينبا» جعبة قواها، وتأهبت لمواصلة رحلتها. ولكن صوت أوبوين زوجة الملك السلحفاة أوقفها. كانت زوجة الملك تبكى وتنتحب، وهى ترجو «أجبوينبا» أن تعيد إليها حياة زوجها. وأشفقت «أجبوينبا» عليها، وأعادت إلى الملك السلحفاة حياته، ثم واصلت رحلتها، وسارت تصل ليلها بالنهار، حتى وصلت إلى مملكة الإله آدا «Ada»، وهناك رآها آدا، وقال لها: أنتِ إذا «أجبوينبا» الشهيرة، التى سمعت عنها كثيراً». فقالت «أجبوينبا»: «لا توجد إلا أجبوينبا واحدة فى هذا العالم، هى من أكون». ورحب بها آداء، وقال لها إنه لن يقبل أن تجتاز مملكته إنسانة شهيرة مثلها، دون ترحيب وضيافة. وقبلت «أجبوينبا» ضيافة آدا، وذهبت معه إلى حيث يقيم، فأكرم ضيافتها، وقدم لها اليام، والموز، وكل ما يليق بمائدة ملك إله. وبعد الطعام، قال آدا لـ«إجبوينبا»: «ما الذى أتى بكِ «أجبوينبا»، إلى هذا المكان الذى لا تمسه قدم إنسان من قبل؟ ما الذى أتى بكِ إلى حيث تقيم الآلهة»، وقالت له «أجبوينبا» عن سبب رحلتها. فقال آدا: «إرجعى «أجبوينبا»، ارجعى إلى حيث كنت. إن ووينجى لم يشاهدها أحد قط»، فقالت له «أجبوينبا»: إنها لن ترجع

وسوف تواصل رحلتها إلى «ووينجى». وحملت جعبة قواها، وتركت آدا، ولكنها لم تلبث أن عادت إليه، وقالت له: «إننى أتحداك آدا، لتعرف من تكون «أجبوينبا»، وأخذت الدهشة آدا، الذى لم يتوقع أن يتحدى إنسان ما إلها، فقال لـ«إجبوينبا»: «هل تعنى حقاً ما تقولينه»؟ فأعادت «أجبوينبا» تحديها له من جديد.

وعندئذ، ذهب «آدا» إلى كوخ عقاقيره وقواه، ولكنه وجد كل ما فى آنية العقاقير والقوى، قد تحول إلى دماء، فقال غاضباً: «لا، لن أبالى بهذا أبداً. وواحدة من البشر تتحدانى»، وخرج «آدا» إلى «أجبوينبا»، وقال لها أن تبدأ فى تجربة قواها معه، ولكنها رفضت، وقالت له: «بل تجرب أنت أولاً». فتحرك «آدا» غاضباً، ووجه قواه صوب «أجبوينبا»، وفى الحال، سقطت «أجبوينبا» فاقدة الوعى، وبدا لـ«آدا» إنها قد ماتت، ولكن بعد قليل، عاد إلى «أجبوينبا» وعيها، فرددت تعاويذها، وإذا بكل قوى «آدا» تأتى وتدخل جعبتها، وفى النهاية سقط «آدا» ميتاً على الأرض. وهكذا، أحرزت «أجبوينبا» نصراً جديداً، وحملت جعبة قواها، وواصلت رحلتها، وسارت «أجبوينبا» دون توقف، وحيدة فى طريق رحب عريض، حتى وصلت إلى مملكة الإله ياسيى «Yasi» صاحب حجرى الخلق الصغيرين، وكان «ياسيى» يرى «أجبوينبا»، وهى لاتزال بعيدة خارج حدود مملكته، حتى جاءت إليه، فقال لها: «أنت إذا «أجبوينبا» التى سمعت عنها كثيراً»، قالت «أجبوينبا»: «لا توجد إلا «أجبوينبا» مع «ياسيى» إلى حيث يقيم، وهناك رحب بها، وأكرم ضيافتها، وقدم الطعام النادر، ونبيذ النخيل، وبعد الطعام، سأل« ياسيى» «أجبوينب»ا عن سبب رحلتها، فقالت له: «إننى امرأة، كما ترى، وقد أتخذت لى زوجاً، منذ أعوام كثيرة، ولكنى لم أحمل يوماً، ولم يكن لى طفلاً، ولهذا أريد أن أذهب إلى «ووينجى»، لتعيد خلقى من جديد»، فقال «ياسيى»: «أجبوينبا»، ارجعى إلى حيث كنت، فلم ير «ووينجى» كائن حى أبداً»، ولم تستمع «أجبوينبا» إلى نصيحة «ياسيى»، وقالت له إنها ستواصل رحلتها إلى «ووينجى»، وحملت جعبة قواها، وسارت فى طريقها، ولكنها لم تلبث أن عادت ثانية، وقالت له: «إننى أتحداك «ياسيى»، لتعرف من تكون «أجبوينبا»، ولم يصدق «ياسيى» ما سمعه، وقال لـ«إجبوينبا» أن تعيد عليه ما قالت، وأعادت «أجبوينب»ا على

«ياسيى» تحديها له، فقال غاضباً: «أنا «ياسيى»، أعظم الآلهة، وأكثرها قوة، كيف تجرؤ امرأة من البشر أن تتحدانى، اذهبى، اذهبى فى طريقك، فلن تكونى أبداً نداً لى، ولكن «أجبوينبا» أصرت على تحديها، فذهب «ياسيى» إلى كوخ عقاقيره وقواه، وهناك وجد أنيه العقاقير والقوى، وقد تحول كل ما بداخلها إلى ماء، فثار غضب «ياسيى» لتحذير قواه له، وقال: «هذا لن يكون أبداً، إنها مجرد امرأة من البشر، وسيكون لها ما أرادت من نزال»، وأخذ حجرى الخلق الصغيرين، وخرج إلى «أجبوينبا»، وقال لها أن تبدأ النزال، ولكنها رفضت، وسألته أن يكون هو البادئ، فوقف «ياسيى» على حجرى الخلق، ووجه قوته صوب «أجبوينبا»، وفى الحال، شعرت «أجبوينبا» بألم شديد فى رأسها، ثم فجأة، انفصل رأسها عن الجسد، وطارت عالياً فى السماء. وظل جسد «أجبوينبا» بدون رأس واقفاً، يحمل جعبة القوى، وفجأة، عاد الرأس ثانية من السماء. والتحمت بالجسد، فعادت «أجبوينبا» إلى الحياة من جديد. وتقدمت «أجبوينبا» نحو «ياسيى»، وسألته أن يجرب معها قواه مرة ثانية، ولكنه لم يكن يملك قوة أخرى، فقال لها أن تجرب هى قواها معه، فأخذت «أجبوينبا» تردد تعاويذها، وهى تدور وتدور حول نفسها فى دائرة، موجهة قواها صوب «ياسيى»، وفجأة، انفصلت رأس «ياسيى» عن جسده، وطارت عالياً فى السماء. وعندئذ، أسرعت «أجبوينبا»، ودفعت جسد «ياسيى» من فوق حجرى الخلق، فسقط على الأرض، وعادت رأس «ياسيى» من السماء، فلم تجد الجسد واقفاً لتلتحم به، فسقطت محطمة نفسه على الأرض، وهكذا، هزمت «أجبوينبا» «ياسيى»، وأحرزت نصراً جديداً. وأرادت «أجبوينبا» أن تأخذ معها حجرى الخلق الصغيرين، ولكنها لم تستطع أن تحركهما، أو ترفعهما عن الأرض. ولم تعرف «أجبوينبا» ماذا تفعل، ثم أخذت فى ترديد بعض تعاويذها، وفى الحال، استطاعت أن تحرك حجرى الخلق الصغيرين، وأن تحملهما فوق كتفيها، وسارت «أجبوينبا» منحنية تحت ثقل حجرى الخلق، وجعبة قواها، إلى مملكة الديك، وكان الملك الديك يقف فوق سطح بيته، ورأى «أجبوينبا» قادمة، فطار هابطاً إليها، وقال لها: «أنتِ إذا «أجبوينبا» الشهيرة بين البشر والآلهة». ورحب الملك

الديك بـ«أجبوينبا»، ودعاها إلى الطعام ونبيذ النخيل، وكل ما يليق بملك، وبعد الطعام، سأل الملك الديك «أجبوينبا» عن سبب رحلتها، فقالت له: «لقد اتخذت لى زوجا منذ أعوام كثيرة مضت، ولكن لم أحمل أبداً، ولم يكن لى طفل، ولهذا أريد أن أذهب إلى «ووينجى»، لتعيد خلقى من جديد». فقال الملك الديك ناصحاً: «لن تستمر رحلتك إلى أبعد من هنا، فمملكتى هى آخر الممالك، وبعدها لا يوجد إلا الفضاء. عودى إلى حيث كنتِ، فلم يشاهد «ووينجى» كائن حى أبداً». فقالت له «أجبوينبا» إنها ستواصل رحلتها، وحملت جعبة قواها، وحجرى الخلق، وتركت الملك الديك، ولكنها لم تلبث أن عادت إليه ثانية، تسأله أن تجرب قواه معها، ليعرف من تكون «أجبوينبا»، وكان الملك الديك لا يروق له شيئاً أكثر من عرض القوى هذا، فقال مفاخراً: «أنا الملك الديك، المعروف بقوتى فى العالم كله، أنا ملك آخر ممالك الأشياء التى تفنى، هيا ولتشاهدى قوتى، فلا شىء يروق لى أكثر من هذا»، ومزهواً طار الملك الديك إلى سطح كوخ قواه وعقاقيره، وأخذ يصيح منادياً ما لديه من قوى، ثم طار عائداً إلى «أجبوينبا»، ووقف أمامها، وسألها أن تبدأ النزال، ولكنها رفضت وسألته أن يكون هو البادئ. ولم يرغب الملك الديك أن يطيل هذا الأمر، فبدأ النزال بكل قواه، وفى الحال، تجردت «أجبوينبا» من كل قواها، وبدأ الملك الديك فى التفاخر من جديد، فقال: «أنا الملك الديك، من يستطيع أن يواجه قوتى». ولكن، وبينما كان الملك الديك يصيح مزهواً، كانت «أجبوينبا» تردد تعاويذها، فعادت إليها كل قواها، وقالت «أجبوينبا» للملك الديك أن يجرب معها مرة ثانية بقوة أكبر، فقال لها إن ما جريه معها، كان كل ما يملك من قوى، وأن عليها الآن أن تجرب قواها معه، ورددت «أجبوينبا» تعاويذها، وفجأة، تفجر اللهب فى مملكة الديك، فاحترقت عن آخرها، مخلفة وراءها الرماد، وهكذا، وبقوة أكثر فى جعبتها، واصلت «أجبوينبا» رحلتها، فيما وراء مملكة الديك، آخر ممالك الأشياء التى تفنى. وكان.. حقل شاسع، وشجرة إيروكو عملاقة، ووقفت «أجبوينبا» مختفية بين فروع الشجرة، وظهر أزواج من الرجال والنساء، وكان ليف القنب يتناثر فى الحقل، المرأة تكنسه، والرجل يضعه فى مخلاة، ورجع البشر إلى حيث أتوا،

واختفوا، وأصبح الحقل نظيفاً خالياً، وأظلمت السماء، وهبطت إلى الحقل مائدة عظيمة، وكرسى عظيم، وحجر الخلق الكبير، وفوق المائدة كانت قطعة هائلة من الأرض. وبرق البرق، وقصف الرعد، وهبطت «ووينجى» الأم، وجلست على الكرسى، ووضعت قدماها على حجر الخلق، ومن قطعة الأرض، أخذت تخلق البشر، وتلقى بهم فى الجدولين اللذين يجريان إلى حيث يعيشون. وحينما انتهت «ووينجى» مما كانت تقوم به من خلق، أمرت المائدة والكرسى وحجر الخلق، فصعدوا جميعاً إلى السماء، ثم تأهبت ووينجى للصعود، وحينئذٍ، اندفعت «أجبوينبا» خارجة من مخبئها بين الفروع، ووقفت أمام «ووينجى»، وقالت لها: «أنا «أجبوينبا»، أتحداك «ووينجى»». قالت ووينجى: «أجبوينبا»، لقد كنت أعرف أنك مختبئة بين فروع شجرة الإيروكو، ورأيتك وأنت تغادرين بلدتك، لتقومى برحلتك إلىَّ، ورأيتك وأنتِ تقهرين الأشياء الحية والآلهة، بالقوى التى منحتك إياها، القوى التى كانت رغبة قلبك، والآن، فإن ما ترغبينه هو الأطفال، ولأجل هذا أتيت تتحدين «ووينجى»، مصدر قوتك، يالكِ من قوية القلب «أجبوينبا»!. لقد أمرت الآن كل القوى التى حصلت عليها، أن تعود إلى أصحابها». وفور أن قالت «ووينجى» هذا، عادت كل قوى «إيسمبى» و«إجبى»، والبحر، والسحلفاة، والإله «آدا»، والإله «ياسيى»، والديك إليهم. وغلب الخوف «أجبوينبا»، ولم تستطع مواجهة «ووينجى»، ففررت هاربة فزعة، وظلت تجرى، حتى قابلت امرأة حامل، فاختبأت فى عينيها. وقالت «ووينجى»: «ليكن هذا، وليكن ألا تقتل الحامل من النساء، وألا تنتهك حرمتها». ثم صعدت إلى مستقرها فى السماء. وكان هذا لأجل «أجبوينبا»، التى ظلت مختبئة، لا فى أعين الحوامل من النساء فقط، ولكن أيضاً فى أعين الرجال والأطفال. وحتى الآن، فإن من تراه ينظر إليك، حينما تنظر فى أعين شخص ما، هو «أجبوينبا»(*).



(*) أسطورة من نيجيريا.

الكلمة

فى البدء كانت قوة الكلمة(*)، القوة التى تخلق من الشىء شيئاً آخر. وكانت السماء شاسعة بيضاء، وصافية جداً، كانت فارغة تماماً، لم يكن هناك نجوم ولا قمر، فقد شجرة تقف فى الهواء، وكانت هناك الريح. وفوق الشجرة، كان هناك النمل، وفى يوم ما، ضاقت الريح بوقوف الشجرة فى طريقها، وعصفت بكل قوتها، فحملت معها فرعاً من الشجرة، وكان هذا الفرع النمل الأبيض. وحمل الريح الفرع وقتا، ثم تركه يسقط فى الفراغ. وهكذا، ظل فرع الشجرة وحيداً، وأخذ النمل يأكل ما عليه من أوراق، حتى أكلها جميعاً، إلا ورقة واحدة، كان يضع عليها فضلاته، وتكومت الفضلات بعضها فوق بعض، حتى أصبحت كوماً كبيراً من الفضلات، ولما لم يجد النمل شيئاً يأكله، أخذ فى أكل فضلاته، ثم إخراجها، ثم أكلها من جديد. وتضاعفت الفضلات، حتى أصبحت جبلاً كبيراً، وأخذ الجبل يكبر ويكبر حتى لامس الشجرة. وأسرع النمل، فتسلق جبل الفضلات، عائداً إلى الشجرة. وفوق الأغصان، وجد النمل الأبيض من جديد كثيراً من الأوراق ليأكلها، ولكنه كان قد تعود على غذائه من الفضلات، فعاد يأكل منها ثانية. ومرت أزمات وأزمان، وهلك الكثير من النمل الأبيض، واستمر الكثير على قيد الحياة. وأخذ جبل الفضلات يتضاعف مرات ومرات، حتى خُلقت الأرض من فضلات النمل الأبيض.

ومرت أزمان أخرى، والريح تعصف بالبرد القارس، وأجزاء كبيرة من الفضلات تتصلب، وتتحول إلى أحجار، وببطء تكونت الجبال الوديان على سطح الأرض. وفى يوم ما، كان أن أرادت الكلمة، فهبت على الأرض ريح باردة قاسية، فظهر الجليد الأبيض، ثم هبت الرياح الساخنة، فتحول الثلج إلى ماء، وارتفع الماء وغمر النمل، ثم غمر الأرض كلها. وكانت الأرض تستند إلى الشجرة الأم،

(*) أسطورة من نيجيريا.

فاقترب أحد الجبال من جذورها، فاخترقت الجذور الأرض، فانبثق العشب والشجر، وأصبح على الأرض والماء والعشب والشجر، ومن الفراغ، أى الهواء فى يوم ما بكائنات أخرى، الطيور والحيوانات والبشر، فاستقروا على الأرض، وجعل كل منهم له صوتاً، فكان لكل منهم صيحته، وكان الطعام على الأرض قليلاً، فأرادت الحيوانات أن تأكل الشجرة الأم، فوقف البشر يمنعون الحيوانات عنها، فنشبت بينهم حرب دامية، وهب الريح عاصفاً، وهدر الماء، وسقط الكثير من البشر والحيوانات قتلى، وتغلب البشر على الحيوانات، فأسروا البعض، وهرب البعض الآخر إلى الأدغال، ومن هناك أخذوا يهاجمون البشر، ويفتكون بهم، وجاءت كل الشرور إلى الأرض، مع تقاتل البشر والحيوانات، وأكل كل منهم الآخر. وكانت حيوانات الغاب تفترس الكثير من البشر، وتناقص عددهم، فشنوا على الحيوانات حرباً هائلة. وارتجت الأرض، وتطايرات قطعاً منها فى الهواء، وأخذت تدور وتدور فتوقدت، وكانت الشمس والقمر والنجوم. وكانت الشمس أكثرهم توقداً؛ فقد انفصلت عن الأرض والنار تشتعل فوقها. واستمرت الحرب بين البشر والحيوانات، ولم تنته حتى خلقت أشياءً جديدة، فكانت الآلهة، والمطر، والرعد، والبرق. ففى وقت الحرب، اعتاد البشر أن يطلبوا مساعدة الريح والأشجار، وأشياء أخرى، فكان للبشر آلهة كثيرة، أكثر مما لديهم الآن. وانتهت الحرب، فكان خروف له ذيل طويل، وقرون طويلة حادة. وكان الخروف سعيداً لانتهاء الحرب، التى طال زمانها، وأصبحت جنوناً مفزعاً، فأخذ يقفز ويلعب، ويندفع فى الهواء، ويمسك بالنار المتطايرة منه، فسقطت الأمطار الغزيرة، وجاء الرعد والبرق. وقيل: إن الخروف قد قتل الكلمة، وأصبحت فى النهاية إله العالم، المسيطر على كل شىء الأرض، الشمس والقمر والنجوم، والأمطار، والرعد والبرق، ومن حين إلى حين، كان يهبط إلى الأرض، ينازل بعض الأشجار الضخمة، التى لم تحترق أثناء الحرب، وكانت هذه الأشجار، أنداداً أقوياء للخروف، وكان دائماً ما تهزمه واحدة منها. وذات يوم هبط الخروف من السماء، لينازل شجرة الملا نجزى "Mlanjzi"، فأصابها بالبرق، ثم وجه إليها ضربة

بقرونه الحادة، فاقتلعها، ولكن قبل أن تسقط، أسرعت شجرة الملانجزى، ووجهت ضربة إلى ذيله فقطعته. ومنذ ذلك الحين، لم يحاول الخروف أبداً ، قتل شجرة الملانجزى، وبدلاً منها، فإنه يحرق ويقتلع الأشجار الأخرى، وأكواخ البشر الذين توقفوا عن عبادته. وحدث أيضاً، أن خلق واحد من البشر عقاراً يجذب الأشياء البعيدة، ويرغمها على الاندفاع إليه، وكان هذا الإنسان يعبد أحد الآلهة الشجر، فبحث عن شجرتين راسختين من أشجار الملانجزى، ووضع على كل منها بعضاً من العقار. فأتى الخروف بالأمطار، وجال فى السماء بالبرق والرعد، ثم اندفع هابطاً إلى الشجرتين، فاصطدم بهما بقوة، فزمجر غاضباً، وبصق ناراً، ووجه إلى إحدى الشجرتين ضربة، فاخترقت رأسه الشجرة، وانغرزت بها، فأطلت رأس الخروف من جانب الشجرة، وجسده من الجانب الآخر.

ونزل من السماء رذاذ هادئ، ثم واصل الخروف صراعه مع الشجرة، لمدة يومين، حتى حرر نفسه منها، ومنذ ذلك الحين، لا يستطيع البرق أبداً فى أوبينان "Ubenan"، وأوكينجا "UKinga"، وأوبانجوا "Upangwa"، حيث حدث هذا، أن يقتلع أو يحرق شجرة الملانجزى، لقد أتى البشر إلى الأرض، ولم يكن هناك آلهة لهم، ولكنهم أوجدوا الآلهة أثناء حروبهم مع الحيوانات، ففرضت عليهم العقاب، فذات يوم، جاء البشر إلى إله من الشجر يسألونه مساعدتهم على إنهاء الحروب التى تفنيهم، فقال لهم الإله: «لقد اعتدتم أن تسألوا الأشياء المساعدة، فحق عليكم العقاب. لقد أشعلتم الحروب، وعبدتم الخروف حتى جن، فاندفع صاخباً فى الهواء، وقتل الكلمة، التى انبثق منها كل ما يزين الكون من أشياء، إننى الأخ الأصغر للكلمة أقول لكم: عقاباً لكم على ما فعلتم أيها البشر، سوف تصيرون صغاراً، فلا تبلغ قامة أحدكم نصف قامتكم الآن، وفى النهاية تأكل النار عالمكم كله(*).

(*) أسطورة من تنزانيا.

أصل العجز
خلق اليابسة

فى البدء كان ماء، كل شىء فى الأرض كان ماء.

وجــاء أولودمــارى "Olodumare" الإله الأكـبــر، وأرسـل الإله «أوباتالا» "Obatala" ليخلق اليابسة، ونزلت من السماء سلسلة، هبط عليها الإله «أوباتالا»، ومعه محارة مليئة بالتراب، ومعدن الحديد، وديكا. ووصل الإله «أوباتالا» إلى الماء، فوضع الحديد فوقه، ثم بسط التراب فوق الحديد، وفوق التراب وضع الديك. وفى الحال أخذ الديك يخمش التراب بمخالبه، فامتدت اليابسة فى أرجاء الأرض. وبعد أن خلق «أوباتالا» اليابسة، ظل يعيش فوق الأرض، ولم يصعد ثانية إلى السماء.



خلق البشر

ومن الأرض، خلق «أوباتالا» البشر.

كان يخلق الذكور، ويخلق الإناث، ويأتى أولاد مارى، فيعطى لهم من أنفاسه الحياة. وذات يوم، شرب «أوباتالا» نبيذ النخيل، ثم أخذ فى خلق البشر، فجاء الأعمى والأحدب، والأعرج والأمهق، وكل مشوه الخلق. ومنذ ذلك اليوم، أصبح «أوباتالا» إله مشوهى الخلقة المقدس، وحرم على عابديه شرب نبيذ النخيل، ولكن، ظل «أوباتالا» الإله الذى يعطى الجنين شكله، فى رحم أمه.



موت «أوباتالا»

من البشر، اتخذ «أوباتالا» عبداً له، وخدم العبد «أوباتالا» متفانياً. وذات يوم، أراد العبد أن يمنحه «أوباتالا» حقلاً يزرعه. وأعطى «أوباتالا» العبد حقلاً، وفرح العبد بحقله، وبجانبه أقام لنفسه كوخاً فى سفح تلم. وشاهد «أوباتالا» الكوخ فأحبه، فكان يأتى كثيراً إليه، ينال قسطاً من الراحة. ولكن كان العبد شريراً، فأراد التخلص من «أوباتالا». وفى يوم، رأى العبد «أوباتالا» قادماً من بعيد فى ردائه الأبيض، فتسلق التل وانتظر، وما إن اقترب «أوباتالا»، حتى دفع العبد صخرة هائلة، وهوت الصخرة مزمجرة فوق «أوباتالا»، فتحطم جسده قطعاً متناثرة، وعرفت الآلهة والبشر أن «أوباتالا» قد مات، فجاء أورنميلا "Orunemila" إله الحكمة يبحث عن أجزاء جسد «أوباتالا» ويجمعها، ولكنه لم يجد من الجسد سوى نصفه أو أكثر قليلاً، فأخذ هذه الأجزاء، وصنع منها جسداً آخر صغيراً لـ«أوباتالا»، ووضعه داخل القرعة اليابسة المقدسة، وأسماه «أوباتالا» «أوريشا» "Orisha". وهكذا، ومنذ ذلك الحين، أصبح على الأرض الكثير من صغار الجسم أمثال أوريشا.



«أوباتالا» يفقد عينيه

ذات يوم، ذهب «أوباتالا» إلى النهر، فأخذ عينيه وما حولهما من تجويف ووضعهما على الضفة، ونزل إلى الماء ليستحم، فجاء «إيشو» "Eshu" الإله المعاكس وأخذهما. وخرج «أوباتالا» من النهر، فلم يجد عينيه، وبحث «أوباتالا» عن عينيه كثيراً، حتى يئس من العثور عليهما. وحينئذٍ، جاءت أوشن "Oshun" إلهة الفتنة، ووعدت «أوباتالا» بالمساعدة، وذهبت أوشن إلى أوشو، وأغرته بجمالها وفتنتها، فأعطى لها عينى «أوباتالا». وعادت «أوشن» إلى «أوباتالا» وقالت له: ««أوباتالا»، أنت تعرف سر كهانة الميرنديلوجين "Merindilogun"، الطريقة ذات الست عشرة صدفة، لقنه لى، أعطيك عينيك». ولم يكن «أوباتالا» يحب أن يلقن سره أحداً، ولكنه فى النهاية أذعن. كان لا يستطيع أن يستمر طويلاً فى خلق البشر، دون أن يرى ما يصنع.



«أوباتالا» و«شانجو»

أراد «أوباتالا» يوماً أن يذهب لزيارة صديقه «شانجو» "Shango"، فظهرت العلامات له تحذره. وقال الكاهن العراف البابالو "Babalawo": «لا تذهب «أوباتالا»، فسوف تجلب الرحلة العناء، وقد يكون الموت أيضاً».

ولكن «أوباتالا» أصر على الرحيل، فقدم الكاهن القرابين لصرف الموت عن طريقه، ثم قال له ناصحاً: «ولكنك سوف تعانى «أوباتالا»، فلا تحتج ولا تثأر». وبدأ «أوباتالا» رحلته إلى «شانجو»، فما إن سار قليلاً، حتى رأى «إيشو» الإله المعاكس جالساً على جانب الطريق، وفى يده وعاء مملوء بالزيت. وسأل «إيشو» «أوباتالا» أن يساعده فى رفع الوعاء إلى رأسه، فما إن استقر الوعاء فوق رأسى «إيشو»، حتى سكب على «أوباتالا» الزيت، ولم يحتج «أوباتالا»، وذهب إلى النهر ليغتسل، ثم واصل طريقه، فوجد «إيشو» ثانية، وكرر «إيشو» حيلة ثانياً وثالثاً، فلم يحتج «أوباتالا» أبداً، وواصل طريقه حتى اقترب من مملكة «شانجو»، وهناك رأى «أوباتالا» حصان صديقه يجرى وحيداً، فلحق به وأمسكه، وظهر خدم «شانجو»، فقبضوا على «أوباتالا»، وألقوا به إلى السجن، ومرت سبعة أعوام، وكانت المحاصيل تفسد، والنساء تجهض، وتكاثرت النكبات، فجاء «شانجو» إلى الكاهن العرف «البابالو» فقال له: «فى سجنك برىء، طال عليك سجنه». وبحث «شانجو» فى سجنه، فوجد هناك صديقه «أوباتالا». وهكذا، خرج «أوباتالا» من السجن، وقدمت إليه الثياب البيض، والطعام، والهدايا. وكانت الكثير من النكبات قد وجدت على الأرض.



لماذا أصبحت السماء بعيدة؟

في البدء..

كانت السماء قريبة جداً من البشر، ولم يكن الإنسان يحتاج إلى زرع الأرض، فقد كان يمد يده، فيأخذ من السماء ويأكل. ولكن، دائماً كان الإنسان يأخذ أكثر من حاجته، ثم يلقى ما يبقى منه فوق نفاياه.

وكان أن غضبت السماء، وأنذرت بالارتفاع عالياً، بعيداً عن البشر، إذا أخذ أحدهم أكثر من حاجته، وذعر البشر من تهديد السماء، وحرص كل منهم أن يأخذ فقط ما يكفى حاجته، وذات يوم، أخذت امرأة نهمة قطعة كبيرة جداً من السماء، ولم تستطع أن تأكل كل ما أخذته، فنادت زوجها، فأكل وأكل، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يأكل ما تبقى. فناديا على أهل القرية جميعاً، فأخذوا يأكلون ويأكلون، ولكنهم لم يستطيعوا أن يأكلوا كل ما أخذته المرأة من السماء، فألقوا بما تبقى فوق نفاياتهم، وعندئذٍ، ثار غضب السماء، فارتفعت عالياً عالياً، فوق متناول أى إنسان. ومنذ ذلك اليوم، والسماء بعيدة، والإنسان يعمل، ليجد ما يأكله.



الصباح والمساء

كان الصباح والمساء أخوين..

أنجب الإله ماهو "Mahu" الصباح، فوهبه ثروة عظيمة، ورعية لا حصر لها، وأنجب ولده الثانى المساء، فلم يهبه سوى القرع اليابس، وخرز النانا "Nana"، وخرز الأزامون "Azamun". وفى يوم ما، مرض الصباح، وقال الطبيب: «دواؤه خرزة نانا، وخرزة أزامون». وراحت الرعية تبحث عن الدواء، وعند المساء فقط، وجدت الرعية الدواء، فقال لهم المساء: «كم تعطوننى ثمناً لهاتين الدرتين؟» فأعطوه مائة صدفة ثمناً لكل واحدة من الخرزتين. وبرأ الصباح من مرضه، وجلس المساء وحيداً يفكر: «يجب أن يمرض الصباح كثيراً، فأحصل على المزيد من الأصداف». وتوصل المساء إلى وسيلة، بوضع أوراق القرع اليابس فى طريق الصباح. وهكذا، كلما أراد المساء، سقط الصباح مريضاً. وشيئاً فشيئاً، انتقلت الثروة العظيمة إلى المساء، فجاءت الرعية إليه، وجعلوه ملكاً عليهم(*).

(*) أسطورة من نيجيريا.

أصل الأسماك

فى البدء..

حينما كان القمر يبدو فى الليل محاطاً بأبنائه من النجوم، كانت الشمس تبدو فى النهار محاطة بأبنائها أيضاً، فتتوهج السماء، وترسل حرارة كالنار إلى الأرض طوال النهار، فلا يستطيع البشر مغادرة أكواخهم، واستحال البحث عن الطعام، وكره البشر حياتهم، ففكر القمر فى هذا، وذهب لمقابلة الشمس، وقال لها: «إن أبناءنا يسببون لنا المتاعب، ويزعجون البشر.. وأرى أن يضع كل منا أبناءه فى جعبة، ونلقى بهم فى الماء». وملأ القمر جعبة بالحصى الأبيض، وذهب إلى الشمس وقال لها: «هاهم أبنائى، فهيا بنا»، فجمعت الشمس أبناءها فى جعبة، وذهبت مع القمر إلى النهر. وألقى كل منهما بجعبته فى الماء. ولكن، حينما أتى الليل. رأت الشمس القمر محاطاً بأبنائه فى السماء فثار غضبها، وأسرعت إلى القمر وقالت له: «لقد خدعتنى، ولكنى سوف أعيد أبنائى إلىّ، وأنتشلهم غداً من الماء». وانقضى الليل، وجاء النهار، وذهبت الشمس إلى النهر، فوجدت أبناءها لايزالون يشعون بالضوء، ولكن لم يعد فى استطاعتهم رؤية أمهم. وانتشلت الشمس أحد أبنائها، فما إن خرج من الماء، حتى فارق الحياة، وسقط ميتاً بين يدى أمه. وانتشلت الشمس ابناً ثانياً، وثالثاً، ففارقوا الحياة بين أيديها أيضاً. وخافت الشمس أن تقتل أبناءها جميعاً، فتركتهم إلى مصيرهم فى الماء. ومنذ ذلك اليوم، والشمس تكره القمر، وتلاحقه فى السماء، وفى بعض الأوقات.. تمسك به(*).

(*) أسطورة من داهومى.

الضفدع البرى

حينما جاء الموت إلى العالم أول مرة، اختار البشر الكلب، وأرسلوه إلى الإله «شوكو» "Chuku"، يسألونه أن يعيد الموتى إلى حياتهم من جديد. وتلكأ الكلب، ولم يذهب مباشرة إلى «شوكو»، وكان الضفدع البرى قد سمع الرسالة خلسة، ورغبة منه فى عقاب البشر، أسرع سابقاً الكلب إلى «شوكو» وقال له: «لقد أرسلنى البشر إليك «شوكو»، يسألونك ألا يعودوا بعد الموت إلى حياتهم أبداً». فقال «شوكو»: «ليكن هذا». وبعد الضفدع جاء الكلب إلى «شوكو»، وأخبره برسالة البشر. ولكن كان أن سبقت كلمة الإله. وهكذا، وعلى الرغم من أن البشر قد يولدون ثانية من جديد، إلا أنهم لا يعودون أبداً بنفس الجسد، ولا بنفس الهوية(*).



(*) أسطورة من نيجيريا.

الحرباء والسحلية

حينما جاء الموت إلى العالم أول مرة، لم يعرف البشر ماذا يفعلون، فأرسلوا الحرباء إلى الإله بسؤالهم، فقال الإله للحرباء: «فليلقوا الشوفان اليابس فوق جسد الميت، فتعود إليه الحياة من جديد». ولكن الحرباء تباطأت فى العودة إلى البشر، وكان الموت يعوق تقدمها، فأرسل البشر السحلية إلى الإله بسؤالهم، وجاءت السحلية إلى الإله بعد أن غادرت الحرباء مباشرة، فغضب الإله من إلحاح البشر وقال: «فليحفروا حفرة فى الأرض، ويدفنوا فيها جسد الميت». وعادت السحلية مسرعة، فتعدت الحرباء فى طريقها، وأبلغت الرد إلى البشر. وحينما وصلت الحرباء، كان جسد الميت قد واراه التراب. وهكذا، ولقلة صبر الإنسان، فإنه حينما يموت، لا يعود إلى الحياة ثانية(❖).



(❖) أسطورة من جمهورية أفريقيا الوسطى.

السلاحف، والبشر والأحجار

. خلق الإله السلاحف والبشر والأحجار، وجعل فيهم الذكر والأنثى. ثم أعطى الحياة للسلاحف والبشر، ولم يعطها للأحجار. وكانت الحياة تتجدد بلا ذرية ولا موت. وذات يوم، ذهبت سلحفاة إلى الإله، تريد أن يكون لها أطفال، ورفض الإله، ولكن السلحفاة ذهبت إليه ثانية، فقال لها: «أنتِ تريدين الأطفال، فهل تعرفين أن الموت يجب أن يأتى معهم؟» فقالت السلحفاة، «دعنى أرى أطفالاً لى، ثم أموت». فكان لها ما أرادت. وحينما رأى الإنسان أن السحلفاة قد أنجبت أطفالاً، أراد هو أيضاً أطفالاً له، وحذر الإله الإنسان، مثلما حذر السلحفاة، ولكن الإنسان قال له: «دعنى أرى أطفالاً لى، ثم أموت». وهكذا، أتى الموت والأطفال إلى العالم، فقط الأحجار، لم ترد أن يكونِ لها أطفال، ولهذا فإنها لا تموت أبداً(*).



(*) أسطورة من نيجيريا.

عصيان الإنسان

خلق الإله «آباسى» "Abassi" ذكراً وأنثى من البشر، ثم خشى أن يستقلا بحياتهما ويصبحا ندين للآلهة، فحرم عليهما الحياة على الأرض، وجاءت آتاى "Atai" زوجة «آباسى»، ورأت أن البشر لن يكونوا أبداً أنداداً للآلهة، فسمح للرجل والمرأة أن يعيشا فوق الأرض، ولكن لم يسمح لهما بالبحث عن الطعام؛ كان جرسا يقرع لهما، فيذهبان ليأكلا مع «آباسى» فى السماء. أيضاً، لم يسمح لهما بالزواج وإنجاب الذرية، حتى لا ينسيا الإله، وأطاع الرجل أوامر الإله، ولكن المرأة أخذت فى حرث الأرض، وحصد الطعام، ووجد الرجل أن طعام المرأة أحلى مذاقاً من طعام السماء، فلم يبال بالإله، وحرث الأرض مع المرأة، واتخذ منها زوجة له. وحملت المرأة، فأخذها الرجل بعيداً، حتى لا يراها «آباسى»، وسأل «آباسى» عن المرأة، فقال الرجل: «المرأة مريضة، «آباسى»». وولدت المرأة ولداً، ثم حملت ثانية وولدت بنتا. وفى السماء. كان «آباسى» يعرف، فقال لزوجته: «انظرى «آتاى»، لقد نسينى البشر».

فقال آتاى: «ولكنهم لن يكونوا أبداً أنداداً للآلهة». وأرسلت «آتاى» الموت إلى الأرض، فقتل الرجل والمرأة، وأوجد النزاع بين أبنائهما»(*).



(*) أسطورة من نيجيريا.

نبات الحياة

خلق شيدا ماتوندا "Shida Matunda" كل شيء، خلق الأرض والماء، والنبات والحيوان، ثم خلق امرأتين، واتخذهما زوجتين له. ولكنه كان يفضل إحدى زوجتيه عن الأخرى، وكان أن فارقت زوجة شيداً المفضلة الحياة، فدفنها فى كوخها، وظل بجانب قبرها، ينثر عليه الماء كل يوم. وبعد أيام قليلة، نما على القبر نبات صغير، وفرح «شيدا ماتوندا»، وعرف أن زوجته المفضلة ستقوم من قبرها، وتعود إلى الحياة من جديد، فلم يسمح لزوجته الثانية أن تقترب من القبر. ولكنه خرج ذات يوم من الكوخ، فتسللت الزوجة الثانية إليه، وحينما رأت النبات على القبر، أعمتها الغيرة، فانهالت عليه بفأس وقطعته. وعندئذٍ ، سال دم المرأة القتيلة خارجاً من القبر، وملأ الكوخ. وعاد «شيدا ماتوندا»، ورأى الدم يملأ الكوخ، ففزع وقال لزوجته: «لقد قتلت امرأة زوجك، وبما فعلت يموت البشر والحيوان والنبات»، وهكذا، ومن نسل هذه المرأة، جاء كل البشر(*).



(*) أسطورة من تنزانيا.

الفاكهة المحرمة

أراد الإله أن يخلق البشر، فدعا القمر ليساعده، ومن الطين خلق الإله الإنسان الأول، وبالجلد كسا جسده، وسكب فيه الدم، ثم سماه «باتسى» "Baatsi". وفى أذن «باتسى» همس الإله: «ذرية كبيرة تكون لك، من كل الأشجار تأكلون، إلا شجرة التاهو "Tahu". هذا أمرى يطاع»، وعلى الأرض، أصبح لـ«باتسى» الكثير من الأبناء، ومن الأشجار كانوا يأكلون، ويطيعون أمر الإله. ولما تقدم العمر بـ«باسى»، عاد إلى السماء. وتكاثر أبناء «باتسى»، وكان إذا تقدم بأحدهم العمر، عاد مثل «باتسى» إلى السماء، وفى يوم، أرادت امرأة حامل أن تأكل من شجرة التاهو، وكانت تعرف أمر الإله، ولكنها لم تستطع لرغبتها دفعا، فقالت لزوجها أن يأتيها بشىء من فاكهة الشجرة، ولكنه رفض. وكان أن أصرت المرأة على طلبها، فاستسلم الرجل لرغبة المرأة، وتسلل إلى الغابة ليلاً، وقطف من فاكهة التاهو، وقشر الرجل الفاكهة، وفى الأحراش، خبأ القشر، ولكن كان القمر هناك فى السماء، فأخبر الإله، وثار غضب الإله، فأرسل الموت عقاباً للبشر(*).



(*) أسطورة من الكونغو.

الجرة والسلة

ذات يوم، أرادت الشمس وزوجها القمر، أن يعرفا مَنْ أحكم مَنْ فى الأرض. فهبطا إليها وفى يد الشمس جرة، وفى يد القمر سلة. ونـاديا على البشر والحيوانات. وقالت الشمس: «لقد هبطنا إلى الأرض لنعرف مَنْ أحكم من يعيش فوقها، انظرا إلى هذين الشيئين، وليتقدم أكثركم حكمة، ويختار أحدهما، ويلقى به إلى الأرض». ونظر البشر والحيوانات جميعاً إلى الجرة والسلة، ثم تقدمت من البشر امرأة تسمى «إيسامبا» "I Samba"، ومن الحيوانات تقدم الثعبان. وكان أن اختارت «إيسامبا» الجرة، واختار الثعبان السلة. وأرادت المرأة أن يلقى الثعبان ما اختاره أولا، وكذلك أراد الثعبان، فأخذ يتجادلان، حتى تدخل كيولا "Kuila" زوج «إيسامبا»، وأمرها أن تلقى ما بيدها، وألقت «إيسامبا» الجرة، فما إن لامست الأرض، حتى تهشم جسدها، وفارقت الحياة، وألقى الثعبان السلة، فارتطمت بالأرض، ولكنها ظلت على قيد الحياة، ولم تصب بسوء، وعندئذٍ، قالت الشمس: «لقد أحسن الثعبان الاختيار، وكان أحكم من البشر، وكما اختار البشر الجرة، وألقوا بها على الأرض فماتت، يفعل البشر فى حياتهم ما يريدون، ولكن حياتهم إلى الأرض تصير، وعليها يموتون، وكما أظهر الثعبان الحكمة، فله تكون الحياة المتجددة، ينسلخ من جلده البالى، والسم يلدغ به»(❖).



(❖) أسطورة من تنزانيا.

الخفافيش لا تنتمى لأحد

إن الخفافيش من أكثر المخلوقات اشتغالاً فى الغابة، ذلك لأن لها خططاً ولا يستطيع أحد أن يقطع من أين جاءت الخفافيش، أو فى الواقع لماذا جاءت، حتى إنها هى نفسها ليست على بينة من أمرها، فهى تستطيع أن تطير وأن تزحف، وأن كثيراً منها ليعتقد أن فى وسعها أن تطير خيراً من الطيور، وأن تلك الخفافيش ذات الأجنحة القوية الكبيرة لتعتز بأنفسها، وهناك غيرها مما يبلغ فى القوة مبلغ بعض الحيوانات التى قد تخشاها.

والخفافيش تعرف أن لها هدفاً: إن معظم المخلوقات فى الغابة تستطيع أن تقتفى آثار أسلافها إلى عصور سحيقة، وأن هذا السلف يبدو مختلفاً قليلاً عمن يخلفونهم إذا قدر للسلف أن يعود إلى الأرض. فالطيور والحيوانات تلتزم بعادات قديمة مستقرة، وهى إما أن تنتمى إلى الأرض أو الهواء. ولكن للخفافيش الحرية فى أن تنتمى إلى الاثنين ذلك أنها تشبه الفئران أو الجرذان من حيث أجنحتها. ولكنها فى قرارة نفسها تود دوماً أن تكون سادة الأرض والهواء، من أجل هذا فإنها تعنى بشؤونها الخاصة ولا تعير اهتماماً لما يدور من حولها.

ويقع من حولها أحداث عجيبة. وحين يحدث جدب فى وقت ما يترتب عليه أن يصبح كل فرد حاد الطبع يبذل الجهد كما يحدث فى الغالب- فى كل نازلة- أن يعتبر أحد الناس مسؤولاً أمام الجميع عن كل ما يحدث. فإن عز الطعام إذا الحيوانات توجه اللوم إلى الطيور لأنها تأكل كثيراً، وتتهم الطيور غيرها من الحيوانات بالخسة والدناءة وتتهمها بكنز الطعام ويتزايد انفعالها وحدة مشاعرها شيئاً فشيئاً فتتشب بينها المعارك.

كان أول شىء عرفته الخفافيش عن هذا النزاع عندما التقى زعيمها أثناء

(*) أسطورة من نيجيريا.

إحدى رحلاته الليلية التى اعتادها للصيد بيوم كبير ويصيح:

- أهلاً.. ماذا أنت فاعل هنا؟

- إننى أراقب.. ألم تسمع أن الحيوانات التى اعتادت النوم طيلة الليل تطوف الآن بالغابة لتسرق طعامنا. إن واجبى أن أحرس وأن أنبه ساعة الخطر.

ويردد كلامه:

- تسرق طعامك!

- حسنٌ طعام كل منا. إنك لتعلم كيف أن الأشياء قليلة نادرة. لقد حاولنا أن ننفذ نظاماً لتوزيع مقررات للطعام. إننا فى الأغلب جميعاً قد حفظنا العهد، ولكن الحيوانات تتسلل فى الغابة ليلاً لتأكل أكثر مما ينبغى لها أن تأكل. فلو أننا اقتصصناهم فسوف يقع ما لا تُحمد عقباه.

- وماذا أنتم فاعلون؟

وينفش البوم ريشه حتى يبدو للناظر إليه أنه يشبه حيواناً فطرياً منتفخاً ويحملق فى صورة المتوعد المهدد:

- سنقاتل.

أما الخفاش فلم يكن ليحب ذلك. إنه حيوان يحب السلام، ولا يرغب فى أن يتورط فى متاعب غيره، ذلك أنه ورفاقه من الخفافيش تنفق ساعات قليلة من الليل التماساً للطعام- وغالباً ما تفعل- ولا يسعها أن تفعل غيره لضعف أبصارها، ولأنها تشعر أن هذا التورط الجديد شىء لا يعنيها: من أجل هذا يحيى البوم ويمرق محلقاً.

وفى طريق عودته إلى داره يدهش إذ يرى أسداً يربض خارج عرينه متربصاً. لقد اعتاد أن يرى الأسود تجر الفريسة إليه فى ضوء القمر ولكن الأمر يختلف الآن ويصرخ الخفاش:

- هالو.. ألم يأن لك أن تأوى إلى فراشك؟

ويزمجر الأسد:

– حتى مطلع الشمس. وبعدها يتناول الفيل.. أنت ترى أن علينا أن نحرس طعامنا من الطيور التى لا ضمير عندها. فمنذ أن عز الطعام أصبحنا لا نعرف الأمانة والشرف على الإطلاق. لذلك فإننى أحرس وأهدر أن رأيتها تحوم حول المكان.. فإن أصرت فسيكون هناك موقف عصيب دقيق. إننا معشر الوحوش قوم مسالمون ولكن للصبر حدوداً.

ويأوى الخفاش إلى بيته وقد انتابته حالة من التفكير، فإذا استمر الأمر على هذا المنوال كان ذلك إيذاناً بحرب.

وتنقضى أيام قليلة وتعلن الحرب.. الحرب بين الوحوش والطيور.. كانت الوحوش تطلب أن تظل الطيور على الأشجار وألا تنزل أبداً إلى الأرض، بينما ترى الطيور أنه من حقها الكامل أن تستغل المنطقتين.

وتقرر الخفافيش أن ذلك الخلاف لا يعنيها وتعلن حيادها.. تغدو على عملها كما تعودت فى تأدب تام وصداقة كاملة للجانبين.

وكان طبيعياً. أن هذا الموقف قد جعل من الخفافيش شيئاً لا يحبه الجانبان. وتقرر الوحوش أن الخفافيش جواسيس لأنها تتحدث مع الطيور وتنقل المعلومات لأصدقائها من ذوات الريش. ويساور الطيور الشك بدورها فى أنها تمد الوحوش بأسرارها. وهكذا أصبح كل شىء لدى الخفافيش يزداد دقة وعسراً، فكان لزاماً عليها أن تتراجع رويداً رويداً إلى كهوفها لتعصم نفسها من المتاعب.

وفى الوقت نفسه تستمر الحرب. وتعانى الطيور بادئ الأمر أسوأ الخسائر ولكنها على العكس كان فى وسعها أن تحلق آماداً بعيدة التماساً لطعامها، وفى سرعة أكثر مما تستطيع الوحوش وتهلك بعض الوحوش سغباً، ويعم الوباء بينها وتموت أعدادٌ كبيرة منها. من أجل هذا ترى الوحوش أن من الخير لها أن تجمع من حولها حلفاءها ما وسعها ذلك وتقوم باتصالات دبلوماسية مع الخفافيش

فترسل إليها فأراً كبيراً ليبحث الأمور مع زعيمها ويشير عليها:

- نرى أن من صالحك أن تنضم إلى جانبنا. وفوق ذلك فإنك أقرب إلى الحيوان منك إلى الطير.. إنك ترتبط معنا بأواصر قديمة وصلات راسخة فإن قضى علينا فسوف تبقى فى رحمة الطير تماماً، إننا نقف لنذود عن النظام الذى خدم الغابة عهداً طويلاً: إن كل فرد فى مكانه وكل فرد يحصل على نصيب عادل مقسوم له. إن الطير سوف تقضى على كل هذا إن هى ظفرت بالسلطان.

ويطيل زعيم الخفافيش التفكير. إنها أول مرة تعترف الوحوش بهذه القرابة الوثيقة، ولابد أن الأمور قد ساءت إلى حد كبير، ذلك أنه حتى هذا الوقت، لم تظهر الوحوش للخفافيش إلا اعتباراً يسيراً. لقد وقعت فى الواقع أحداث عديدة مؤسفة هوجمت أثناءها الخفافيش وقتلت.

لقد كان العذر الذى أبدى وقتذاك- بالطبع- أن الخفافيش قد اعتبرت من قبيل الخطأ من نوع الطير.

لهذا فإن زعيم الخفافيش يجيب بألفاظ لا اتهام فيها.

- إن الأمر جد خطير بالنسبة لنا. إننا أنصار سلام من ناحية المبدأ، إننا لا نؤمن بالحروب، ومع ذلك سوف نقدم إليكم رداً فى الوقت المناسب حين نتدبر الأمر تدبراً تاماً.

ويتساءل الفأر فى شىء من الريبة:

- ومتى يكون ذلك على وجه السرعة؟

- أخشى ألا يكون ردنا فى وقت قريب.. إنك لترى أن عدداً كبيراً من بنى جلدتى قد ارتحلوا إلى الجنوب ليجنوا محصول الفاكهة الذى ينبغى أن ننال نصيبنا العادل منه، كما أن لدى سكان المستعمرة الجديدة التى استقر بها المقام فى تلك الكهوف الجميلة التى اكتشفناها فى «كالآبار» الكثير من المهام فى

الوقت الحاضر ينبغى الاضطلاع بها.

ويضرب الفأر ذنبه فى انفعال، ولكنه لا يجد شيئاً يستطيع أن يفعله سوى أن يرد رداً مهذباً وينطلق فى هدوء.

لقد حذروه على الأخص من أن يفقد أعصابه.

وبينما كان زعيم الخفافيش يتدلى مسترخياً من مرقده الحبيب فى سقف الكهف إذا بخفاش صغير يأتى إليه لينبئه أن رسلاً معينين من قبل عالم الطير قد وفدوا لرؤيته ويستبقيهم الزعيم دقائق ثم ينزل للقائهم عند مدخل الكهف.

كان منظر الرسل مؤثراً من أول وهلة. فهناك طائر البشروش الرائع الجميل وهناك البجع المهيب الطلعة والببغاء الفصيح ذو الألوان البراقة، لكن زعيم الخفافيش كان قد لحظ أن أجسامهم نحيلة ضامرة أشد الضمور واستيقن أنهم يودون لو أعطوا ما لديهم من ريش مقابل وجبة شهية من طعام.

ويبدأ الببغاء مهمته بكلماته المهذبة المتبادلة.

- سنكون معك أيها الأخ صرحاء. إن الحرب تدور رحاها على أشدها، ونعتقد أن الوقت قد حان لنحذرك مما سيحيق بك من أخطار لو أنك ظللت على الحياد.. هذه حرب للقديم على الجديد.. إننا ندافع عن الحرية- حرية الأرض لكل فرد. فإن انتصرت الوحوش فسوف يحتجزوننا فوق قمم الأشجار ولن يمضى وقت طويل حتى يحتجزوكم كذلك. فإن كنتم تقدرون حريتكم فعليكم أن تنضموا إلى جانبنا. وفوق ذلك فأنتم أقرباؤنا.. أنتم أقرب شبهاً بالطائر من الحيوان.

ويحاول زعيم الخفافيش أن يبدو غارقاً فى التفكير.. كان يعلم تمام العلم أن الطيور تسلك سبيلاً معوجاً، ولكن الحيوانات كانت تسلك سبيلاً معوجاً أيضاً، وأن الوباء يفنيهم جميعاً، لقد تحدث إليها حديثاً مستفيضاً، وفكن فى أسلوب بلغ فى غموضه حداً جعل الطيور فى نهايته لا تدرى فى الواقع ما الذى كان الزعيم يفكر فيه ولا يعرف هو مداه. ومع ذلك فهو يتخلص منهم أخيراً

ويعود إلى داره ويدعو قومه للاجتماع به.

كان مدار البحث الحقيقى هو: هل الخفافيش تنتمى إلى عالم الطير أم إلى عالم الحيوان، فبعضها يعتنق الرأى الأول والبعض الآخر يعتنق الثانى، بينما ثمة فريق ثالث يرى أنها طائفة أرفع منزلة تسمو فوق الطير والحيوان.

وينقضى الوقت ويحتدم الجدل بينما تستمر الحرب وتهلك الطير والحيوانات معاً.

ويكفهر الجو يوماً وتسقط قطرات المطر التى تستحيل إلى سيول جارفة، ويشتد سقوط المطر مدراراً ولا تتوقف الحرب فيأوى كل امرئ إلى مكان يتقى فيه ويصل آلاف من اللاجئين من الجانبين إلى كهوف الخفافيش.

وأخيراً تخف وطأة المطر قليلاً ولكن أنهاراً منها تنساب فى أرجاء الغابة وتأخذ الحشائش فى النمو ويكثر الطعام، ويحس كل إنسان أن العطش والجوع قد بلغا حداً جعله يأكل ما يستطيع أن تصل يده إليه.

وينسى الناس الحرب، وفى نهاية اليوم تعقد الهدنة. ويحدث كل هذا تقريباً على مشهد من الخفافيش التى ظلت تجادل فيها إذا كانت تنتمى إلى الطير أو الحيوان، ذلك السؤال الذى لم يجد بينها جواباً شافياً.

إن المشكلة قائمة حتى يومنا هذا، ويحاول كل فرد بما فى ذلك العلماء فى أنحاء العالم أن يجد لها حلاً ولكن أحداً لم يستطع أن يبت فى الأمر بصفة نهائية.

من أجل هذا فإن الخفافيش لا تنتمى إلى كل من الطير أو الحيوان، وأن الفئتين لا ترغبان فى الإقرار بصلة القربى مع بعضهما. ومع ذلك فالخفافيش فئة تكفى نفسها ولا تعبأ بما يقع بين الطائفتين.



رجل القمر وزوجه

منذ أزمان بعيدة سحيقة فى التاريخ وقع شجار بين رجل القمر وزوجته «عطايا» أدى إلى عواقب عجيبة أشد العجب، كانا ملكين على هذا الفضاء بعد أن تغيب الشمس. كان الرجل- كما تعرفون- يبدو وقتئذ كما يبدو الآن باسماً فى بعض الأحيان، وعابساً فى البعض الآخر، وكانت زوجته من أعظم النجوم إشراقاً وسناءً وكان غيرها من النجوم خداماً لها، فكانت إذا ما ظهرت التفوا من حولها، وكانوا يعتقدون سراً وفى قرارة أنفسهم أنها جميلة كالقمر، وأنها أكثر منه نفعاً وكذلك كانوا هم.

لقد كان لهم بعض العذر فيما يعتقدون، ذلك أن البحارة كانوا يقودون سفنهم عن طريق مواقع النجوم. وكان كثير من الحكماء يعتقدون أن فى وسعهم أن يتكهنوا بالمستقبل عن طريق دراستها.. وكان ذلك لا يتضمن الأحداث ذات الأهمية البالغة فحسب، ولكن يشمل مستقبل البشر تبعاً للنجوم التى كانت تضىء أثناء ولادتهم.. وعلى النقيض من ذلك، فإن القمر يستطيع أن يسبح فى أجواء السموات ويرسل ضياءه فحسب.

وبعد وقت يبدأ رجل القمر فى سماع همسات عما يدور فى هذا الصدد ثم تصيبه الغيرة.. لقد كان بازغاً من قبل يرسل ضياءه من أزمان قبل أن يفكر الناس فى بناء السفن أو التكهن بالمستقبل، ولم يعد يحب تلك الأفكار الفجة السقيمة التى تهدد سيادته وصولته. لذلك فهو يغضب غضباً شديداً ويقرر ألا يرسل ضياء على الإطلاق، وألا يسمح للنجوم أن تضىء أيضاً، ولكى يمنعها من أن تفعل ذلك يلتمس العون من بعض الظواهر: من المطر، والرعد، والبرق ويقول لهم:

- إن النجوم قد داخلها الغرور. إنهم يعتقدون أن بيدهم مقاليد السموات وعلينا أن نلقنهم درساً خيراً مما هم فيه.

وبعد حديث كثير من هذا الضرب يغريهم بأن يفعلوا أسوأ ما يستطيعون، فينهمر المطر ويقعقع الرعد ويومض البرق وتظلم الأرض وتفيض الأنهار. فتغمر المياه الأرض فتكتسح الأشجار وتغرق الأراضى المنخفضة بالماء، وتهلك الحيوانات والطيور ويفر سكان الأرض إلى الكهوف أو إلى قمم الجبال الشاهقة، حيث يعيشون أشنع حياة وأتعسها.

وتنقضى الأيام على هذا المنوال، فيموت الناس سغباً ولغباً ويتجمدون برداً، حتى إن الشمس لم تستطع أن تؤثر على هذا الطوفان، وبدا وكأنما العالم جميعه مسوق إلى الدمار. أما رجل القمر رغم كل هذا- فلم يكن ليعبأ بما وقع- فيزور راضياً تمام الرضا لأن زوجه وأتباعها من النجوم لم يستطيعوا أن يرسلوا ضياءهم.

وتتميز عطايا غيظاً وحقاً وتتجهم وتقسم أن يظل الطوفان إلى الأبد ما وسعها السبيل إلى ذلك. لقد منعها زوجها من أن تبزغ. ولكنه لم يستطع هو أن يرسل ضوءه وسناه، وفى الواقع إن بقاءهما فى دعة وكسل لم يحسن من حالهما ومزاجهما بينما ظلت الظواهر العارمة التى لم يسبق أن سيطرت على العالم من قبل تمارس تماماً صولتها وقوتها.

وعلى الأرض من تحتهما- كان الإنسان هو الضحية التعسة لهذا النزاع السماوى العلوى- يعانى أسوأ حالات العسر والضيق: يصلى ويضرع ويقدم الضحايا ويلوم إنسان إنساناً على ما قدم فى حق الآلهة من ذنوب ويتناحر الناس نتيجة لذلك، وتنشب بينهم الحروب وتتزايد متاعبهم لأنهم قد أضحوا فرائس للوحوش الكاسرة ويوقدون نيراناً ضخمة مشتعلة فى الكهوف لتخويفها، فإذا جن الليل يرى الناس من خلال الحلقة المضروبة حول النيران عيون السباع الضارية والنمور والذئاب الجائعة تتربص بهم لتهاجمهم، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أن السباع والنمور والذئاب تؤثر التهام الإنسان. أنها لا تحب ذلك ولكن لأن الحيوانات التى كانت فى الغالب تطاردها قد تناقصت شيئاً فشيئاً وأصبحت قليلة نادرة. وأخيراً ينزعج صغار النجوم أشد الانزعاج لهذا التوقف الشامل

وتدنو من «عطايا» وتضرع إليها أن تكف عن الشجار وتقترح أن اتفاقاً ما ينبغى أن يبرم بين القمر والنجوم: فإن كان القمر فى أوج ظهوره بدراً كاملاً تستطيع النجوم أن تبقى فى الظهارة، وإن عاد القمر إلى الأفول، كان للنجوم أن تخفى نفسها بالسموات كلها.. كما أشارت إلى أنه إن استمرت الظواهر العاصفة العاتية تمسك زمام القوة، فلن يكون ثم نور على الأرض، بل لن يكون فى الواقع هناك أرض باقية.

ولكن «عطايا» التى كانت حتى هذا الوقت قد ضاقت ذرعاً بالنزاع تتظاهر بادئ الأمر بشىء من عدم الاكتراث بما يحدث مستقبلاً، إلا أن صغار النجوم تمكنت من إقناعها بأن تأذن لها بالتوجه إلى رجل القمر فتقدم له عروض السلام- كان لقاؤها معه خيراً مما كانت تتوقع ذلك أنه لم يكن سعيداً بموقفه ولم يكن حاكماً على السموات وكان قد فقد زوجته. وما تكاد صغار النجوم تقدم إليه مقترحاتها حتى يتظاهر بالطبع بشىء قليل من عدم الاكتراث ويخبرهم:

- إننى مسرور تمام السرور أن جئتم بهذه الروح: لا يستطيع أحد أن يمارى فى أننى الحاكم الفعلى، ولكننى لا أحب أن تستمر هذه المعركة المجنونة. وأننى من جانبى على استعداد أن أبقى فى عزلتى منزوياً، ولكننى أشعر أن علىَّ مسئوليات تجاه الأرض، فإن استمرت تلك الحالة الحاضرة المتصلة بأمور الحياة فإن كل شىء على الأرض سوف يصيبه الدمار.

وتتحمس صغار النجوم لهذا الرأى وتؤيده.. وتحييه تحية صادقة على ما بدا منه من روح بعيدة عن الأنانية وتدخل معه فى الشروط الممكنة لحياة الاستقرار، ويوافق القمر عليها بعد شىء كثير من النقاش والجدل، ويتفق الجميع على أن تنفذ الخطة الجديدة فى الحال، ولكن رجل القمر قد وجد نفسه أمام مشكلة أخرى، إن الظواهر الأخرى التى منحت السلطان لم تكن راغبة فى أن تزر ما أخذت وأخيراً يعقد اتفاقاً ذا شعب ثلاث. أن يبزغ القمر وقتاً، فتبقى النجوم معتمة بالقياس إليه، فإذا أفل عادت النجوم تتلألأ فى أوج بهائها، ولكن ينبغى أن تكون ثمة فترة ثالثة يخيم الظلام الدامس المصحوب

بالأمطار والعواصف.

وينهى رجل القمر وزوجه نزاعهما ويظلان على أحسن أواصر الود والسلام منذ ذلك الوقت، ويعتقد بعض الناس أنه ليس ثم شىء أجمل من القمر فى ليلة التمام حين يرسل خيوطه من السماء على العالم، بينما يحب غيرهم بهاء النجوم. إن الحكماء يؤلفون الكتب عن النجوم والبحارة يبحرون على هديها، وأن المنجمين يقرأون المستقبل فى نجوم السموات، ولكن إنساناً ما لا يشعر بالسعادة إذا ما اجتاحت الأرض الأمطار والعواصف.

إن المرء ليرحب بالأمطار الخفيفة، ولكنه لا يرحب بالفيضانات والرعد والبرق. إن الإنسان ليتقبلها لأنها تأتى رتيبة كما يتوالى الليل والنهار.

إن الإنسان ليتقى المطر فى الفصل المطير بوسائله الخاصة ويعيش كأحسن ما يستطيع حتى تزول العواصف ويعود الطقس الجميل من جديد.



الفتاة المغرورة

يعرف التمساح فى جميع أنحاء إفريقية بالحكمة، ولكن ذلك لا يعنيه على أن يكون مخلوقاً محبوباً، فإن أحداً لا يثق به كثيراً. فإن اقترف أحد إثماً أو خطأ كان جزاؤه الذى يهدد به فى أغلب الأحيان أن يلقى به إلى «التماسيح» وقد كان ذلك تهديداً حقيقياً فى الأيام النحسات الخوالى.

زعموا أن فتاة كانت تدعى بلغة أهل إفريقيا «جويل» (أو الجوهرة) ذلك أنها كانت جميلة فاتنة. كانت أكبر أخواتها الثلاث. وكان جمالها منذ نشأتها الأولى شيئاً ملحوظاً مثلها فى ذلك- كما نعلم- مثل الأطفال الصغار طهارة وبراءة. وكانت جويل من فرط فتنتها موضع الرضا من الجميع. كانت أمها وأبوها يقدسانها، وكذلك كان يفعل كافة الأهل والأقارب. فكانت تحظى فى الأسرة بمكانة ممتازة، وكانت أثيرة لديهم حتى بعد أن أنجب والدها بنتين من بعدها، وحين ترعرعت الأختان كانتا لها تابعتين.

لقد كان مما يثير الأسى فى بعض الأحيان أن تكون جويل جميلة لأنها أصبحت- كما حدث غالباً- تافهة تحب نفسها. لم تكن لترغب فى العمل بالحقل مع أختها، بل كانت ترى- عوضاً عن ذلك- أن تبقى فى الدار تحيك الملابسك، أو ترقص أو تذهب إلى البركة فتنظر فى خيالها المنعكس على صفحة الماء، إن الشىء الوحيد الذى كانت تستمتع به هو الذهاب إلى السوق هنالك كانت بدافع من رغبتها تشترى حاجاتها أو تساوم على الشراء أو تراقب المناظر التى تمر أمامها أو أن تستفز إعجاب الناس بها. وكان كثير من أفراد أسرتها يقصدون السوق جماعات من اثنين أو ثلاثة فى وقت واحد، وكانت جويل دائماً واحدة من الجماعة.

ويأتى عام ينزل بالبلدة بلاء المرض ولا ينجو من وطأته سوى نفر قليل،

ويعتقد الناس أن هذا المرض جزاء وفاق لهم عن إثم كانوا قد اقترفوه فيفرضون على أنفسهم قيوداً صارمة تبدو لبعض الناس شيئاً عجيباً- وكما قلت- كانوا يقدسون التماسيح التى يعتقدون أنها على قدر من الحكمة والبأس، وكانوا يعتادون تقديم القرابين لعجوز منها معروف بينهم يقيم فى بركة كان يبدو زعيم الزواحف فيها جميعاً.

ويحدث أن تسقط أختا «جويل» فى يوم السوق التالى فريسة المرض الذى كان يحتاج البلاد، ويطلب من جويل أن تحمل قرباناً إلى البركة وتحتج قائلة:

- ولكنه يوم السوق يا أماه.. إننى أريد أن أذهب لشراء مشط لشعرى.

- إننى آسفة يا ابنتى.. إن أحداً ينبغى أن يذهب إلى البركة.. سوف يكون أمراً مريعاً إن لم نقدم القربان.. إن شيئاً مزعجاً مخيفاً قد يقع.. يمكنك الذهاب إلى السوق فى وقت آخر.

وبعد جدال عنيف تضطر «جويل» وقد أغضبها تمسك أمها الذى لم تعهده فيها من قبل إلى أن تحمل سلة القرابين التى تقدمها للتمساح. وما كادت تمشى خطوات قليلة على الطريق حتى تلقى صديقتها التى تناديها:

- مرحباً بك.. فى وسعنا أن نذهب إلى السوق معاً.. لقد سمعت أن بالسوق أمشاطاً جميلة جديدة هذه الأيام.. سأحصل على أحسنها إن استطعت.

كانت «جويل» فى الواقع تغار من هذه الفتاة لأنها كانت أيضاً ذات حسن وجمال، ولم تكن لتحتمل أن تراها تخطو فى مشيتها متباهية بمشط رقيق جديد، بينما هى لا تقتنى مثله.. ويبتعدان عن القرية مسافة قليلة ولا يكتشف أحد- لحسن حظها- أنها لم تذهب إلى البركة بما تحمل من القرابين للتمساح. لذلك فلم تنطق بكلمة واحدة ولكنها تسير إلى السوق فتقول لها صاحبتها.

- ما تحملين معك إلى السوق هذه المرة؟

وترد عليها «جويل»:

- آه.. لا شيء يذكر. إن عمتى قد أخذت معظم الأشياء اليوم.

ثم راحت تتحدث عن أمور أخرى.. إنها تعلم- بالطبع- أن السلة تحتوى على جميع الطرف التى استطاعت الأم جمعها، وإنه من اليسير عليها أن تقايض بها مشطاً بالغ الرقة والجمال.

وتصل الفتاتان إلى السوق، وتقول «جويل» لصاحبتها إنها سوف تخلو إلى عملها، ولا تكاد صاحبتها تختفى عن الأنظار حتى تأخذ «جويل» فى تصيد بائعة الأمشاط فى صورة محمومة فإذا ما التقت بها شرعت تفحص فى حماس ما معها من سلع ومتاع، ولكن مشطاً رائعاً جميلاً صادف هواها فى الحال وتسأل البائعة بعد أن امتلأت عيناها منه إعجاباً.

- هل أجل لديك آخر شبيهاً به؟

وتجيب المرأة العجوز:

- لا .. إنه الوحيد معى.

وتقول «جويل» محاولة أن يكون حديثها عرضاً غير مقصود:

- إننى أتساءل إذا ما كنت قد بعت آخر مثله.. أود أن يكون لدى اثنان من هذا النوع.

وكانت جويل فى الواقع تتحرق شوقاً إلى أن تعرف إذا كان ثم مشطان متشابهين وأن صاحبتها قد استطاعت أن تحصل على واحد منهما وتقول العجوز ساخرة:

- ليس عندى مشطان متشابهان.. أتريدينه أم لا؟

وترد «جويل» بشىء من التحوط:

- أريده.. ماذا ستأخذين مقابل هذا المشط؟ إن لدى أشياء جميلة فى سلتى.

- أرينيها.

وحين تفتح جويل سلتها يبدأ الاثنتان فى المقايضة وكل منهما يحاول أن ينقص من سلعته. ويلتف حولهما جمع حاشد من المتفرجين المتطلعين، ولكن جويل لم تكن لتعبأ بهم، بل كانت تعتد بشجاعتها ورجاجة عقلها فكانت تستسمك بموقفها، ولكنها تقنط حين تصل صاحبتها فتظن «جويل» أنها سوف ترغب فى اقتناء هذا المشط، وتسأل الصديقة المرأة العجوز فى شىء من الخبث قائلة:

- لماذا لا تعطينها ما تطلب؟ إذا كنت تعتقدين أن ما فى السلة لا يساوى ثمن المشط فإننى على استعداد أن أقدم هذه الجرة الجميلة بديلاً عنها.

لقد كان هذا العرض فى الواقع على غير ما كان متبعاً من أصول وتقاليد ذلك أن الصديقتين تحاولان أن تدخلا معاً فى مزايدة. وتلتفت «جويل» نحو صاحبتها فتشتمها بينما ينضم الجمع إلى جانبها وتضطر الفتاة أن تتسلل هاربة من المكان بعد أن علمت ما تحتويه سلة «جويل» من طرف غريبة وتقول ساخرة منها:

- بالتأكيد سوف تستطيعين الظفر بما تريدين عن طريق هذه الطرف. إنها أخلق أن تكون قرباناً من أن تكون شيئاً يقايض به.

وحين تسمع «جويل» هذا القول يضطرب قلبها ولكن الوقت كان متأخراً فلم يعد ممكناً أن تنسحب الآن فهى لذلك تنهى عملية الشراء وتأخذ المشط وتعود إلى دارها وتسلك فى عودتها طريقاً آخر تبدو معه أنها تعود من البركة وليس من السوق، وتعلق الأم قائلة:

- لقد أمضيت وقتاً طويلاً كنت فيه قلقة عليك.

وتجيب «جويل»:

- لقد جلست على شاطئ البركة. فنسيت أن الوقت يمضى:

وتقول الأم:

- حسنٌ. عليك أن تتعهدى النار.. إن جارتنا مريضة الآن وسوف أسعى لزيارتها إن المرض فى الواقع رهيب وكل ما أتمناه أن تترفق الأرواح بنا فتردنا

إلى العافية من جديد.

ولكن المرض يستشرى ويصبح أكثر فتكاً. وإذا بكافة الناس يدعون إلى اجتماع فى يوم من الأيام يحضره أهل القرية ويقول عجوز مرتعش:

- لابد وأن تكون ثمة لعنة قد حلت علينا.. إن أحداً منا قد أساء إلى الأرواح ونرجو أن يعترف المذنب بخطئه فيحل عليه العقاب وحده وينزاح عن القرية المرض وننجو من الهلاك.

ويكثر حديث الناس بهذه الصورة ويتهم بعضهم بعضاً ويستجوب المتهمون ويفحصون، ولكن شيئاً لا يقوم دليلاً على هذا الاتهام وتتزعج «جويل» حين ترى صاحبتها تهمس فى أذن عجوز من القوم. وبينما كانت «جويل» تفكر فيما إذا كانت تهرب من المكان أم تبقى فيه إذا بصوت الرجل العجوز يرتفع فى صرخة مدوية:

- إن المذنب قد عرف أنها الفتاة «جويل». لقد استبقت لديها قربان التمساح وراحت تقايض به فى السوق مشطاً.

وتنبعث فى الحال جلبة رهيبة وتجبر جويل على الوقوف وسط حلقة مضروبة ويصرخ رئيس الجمع:

- وهل القصة صحيحة؟

وتصيح الفتاة الحاسدة:

- بالطبع صحيحة.. أستطيع أن أقرر ذلك وعليكم أن تتثبتوا من صدق ما أقول إن رأيتم أن تزوروا بائعة المشط.

- ليست صحيحة.. لست أملك مشطاً.

وتصيح المدعية:

- إذن فقد أخفيته. تعالوا نفتش منزلها.

ورغم ما بدر من «جويل» من احتجاجات وما صدر من أمها من نواح وعويل

فإن الجمع قد تحرك مسرعاً إلى دارها وتصيح الصديقة الزائفة فى مرح:

- إننى أعرف أين تخفى كنوزها.. تحت الجدار.. وقريباً من جرة الماء.

وتندفع نحو المكان وتعثر على المشط فى الحال وتمسكه فى يدها وترفعه إلى أعلى حتى يراه كافة الناس ويغضب القوم لهذا غضباً شديداً فيصيحون:

- ألقوا بها إلى التماسيح إن هذا أوفى عقاب لها على ما اقترفت.

وتسحب جويل نحو البركة وتوثق وتترك إلى رحمة التماسيح وتقول لها من كانت صديقة لها يوماً ما ساخرة:

- لعل جمالك يفيدك كثيراً الآن.

إن جويل تعرف البركة جيداً فطالما أمضت على شاطئها ساعات طوالاً مزهوة بخيالها المنعكس على صحتها. وطالما شاهدت التمساح فى مياهها. لقد كانت دائمة على حذر منه، فكانت تجرى حين يقترب منها ولكنه كان حيواناً كسولاً طعامه القرابين فلم يكن ليعبأ بها. كانت تؤكد لنفسها:

- إنه لم يعبأ بى.. إنه سمين بالغ السمنة شديد الكسل.

ومع ذلك حين شاهدت التمساح يخرج من الماء أحست بشىء كثير من الخوف. وينظر التمساح إليها بعينين محدقتين غريبتين، ويبدو لها وكأنما يسخر منها مستهزئاً ويقول فى صوت عميق خشن:

- حسن.. لقد أوقعت نفسك فى ورطة لطيفة.

وتستغرب «جويل» منه ذلك فتقول:

- أنت تستطيع الكلام.

- بالطبع أستطيع الكلام.. إننى لا أفعل ذلك فى غالب الأحيان لأن أشياء قليلة يستحق الكلام عنها.

وتهتف «جويل» قائلة:

- آه.. إننى مسرورة جداً.. إننى أشعر بالأسف على ما فرطت فى قربانك.. وفى الحق إننى لكذلك.. سأفعل أى شىء من شأنه أن يعوضه إن أنت استعملت سلطانك فى أن تنقشع غمة المرض عنا.

ويقول التمساح:

- لا علاقة للمرض بى. إننى لم أكن سبباً له. ولست بقادر على أن أفعل شيئاً لكى ينقشع عنكم.

- إذن فليس هناك فرق إن أنا قدمت إليك قرباناً.. آه.. أنه أمر مريع.

إن صاحبتى قد أخذت مشطى الجميل وها أنذا.. وأظن أنك سوف تلتهمنى، كم أنا تعسة!

ثم تنفجر باكية.

- كفى عن هذا الصخب المخيف.. إننى لن ألتهمك لقد بلغت من الكبر عتياً، وإن أسنانى لم تعد حادة كما كانت من قبل ولكنك سوف تعاقبين.

وترتعش «جويل»:

- وكيف؟

- سوف تمكثين هنا.

- تقصد أن أعيش هنا بجوار هذه البركة؟

- أجل.

- ولكننى لا أفهم.. لا أمانع أن أبقى هنا ردحاً من الزمن.

- لن يكون ذلك لبعض الوقت سيكون إلى الأبد. تستطيعين أن تعنى بالهبات التى تقدم إلى.

وتتساءل «جويل»:

- ولكن لماذا؟.. سوف لا أجد إلا شيئاً قليلاً أفعله. وسوف لا أجد شيئاً آكله.

- فى وسعك أن تأكلى بعضاً مما يقدم إلى من القرابين.

وتتنهد جويل وتصمت. لقد كانت فوق ذلك ذات حظ كبير، إنها لن تلتهم، وإنها لا تمانع أن تعيش إلى جوار البركة ردحاً من الزمن. إنها لا تستطيع أن تصدق أنها سوف تبقى فى هذا المكان وقتاً طويلاً. ذلك أن التمساح إن لم يرق قلبه لها ويعطف عليها ويطلق سراحها فمن المحقق أن تستطيع الفرار وتتساءل:

- هل أستطيع أن أشيد لنفسى مكاناً آخر أوى إليه؟

ويقول التمساح:

- تستطيعين.

ويستمر التمساح فى الحديث فى نبرات صادرة من حلقومه حتى أن جويل لم تستطع أن تفهم كلمة مما يقول وتنظر حولها فى فزع وخوف فترى عديداً من التماسيح متباينة الأعمار تجلس فى شكل حلقة ضربت من خلفها. ويبلغ الفزع منها مبلغاً عظيماً فتصرخ، ويقول التمساح:

- كل شىء على ما يرام.. لن يصيبك منهم أذى.. على الأقل إن لم تحاولى الفرار.

وتحس جويل أن قلبها ينخلع.. لقد أصبح عسيراً عليها أن تهرب أكثر مما كانت تتصور وترتعد قائلة:

- هل لى أن أجمع الآن أغصان الأشجار لأقيم المأوى؟

ويقول التمساح:

- اذهبى.

وتتخلص «جويل» من أصفادها وتتخذ طريقها إلى الشاطئ بعد أن أصبحت طليقة تجمع فروع الشجر ويلحق بها عدد من التماسيح الصغيرة فلا تحس أملاً فى الفرار. حتى إذا جن الليل كانت قد أقامت لها مكاناً تأوى إليه لتنام. وتصحو فى صباح اليوم التالى لتغتسل على حافة البركة وتتخذ من صفحتها مرآة تصلح

بها من زينتها. كانت جويل مسرورة حين رأت أن الأحداث التى انقضت خلال ساعات اليوم المنصرم لم تؤثر فى ملامحها وتمنت أن يكون معها مشطها الجميل. لقد كان يزعجها أن تراه فى يدين خائنتين.

وتمر الأيام وتصيب «جويل» طعامها من القرابين والهبات وتشاهد الناس يجيئون وينصرفون رغم أنهم كانوا يخشون التحدث معها وتنفق معظم وقتها يسحرها خيالها المنعكس على صفحة ماء البركة ومع ذلك فقد أصبحت برمة ضيقة بهذه الحياة بعد وقت. وتسأل التمساح العجوز:

- لماذا تستبقينى هنا؟.. أرجو أن تأذن لى بالانصراف سأقوم بأى عمل لو أنك منحتنى حريتى.

ويتساءل التمساح:

- وماذا تريدين أكثر من هذا؟ إنك تطعمين وتستشعرين الدعة والراحة فليس عليك أن تفعلى شيئاً وأنت تنفقين ساعات تحملقين فى صورتك على صفحة البركة.

ويستدير التمساح فيقفز فى الماء ولم تعد تراه ردحاً طويلاً من الوقت. وينقضى الوقت وتبقى «جويل» سجينة لا يتحدث إليها أحد ولكنها كانت تنصت إلى الناس وهم يمرون بها يتحدث بعضهم إلى البعض وكانت تسمع أنباء الزيجات التى تمت مع من تعرفهم من الفتيات اللائى يصغرنها. فلو أنها كانت حرة طليقة لكان من المحتمل أن تصيب من الزواج مثل ما أصابوا الآن.

وتبدأ «جويل» تفكر فى المستقبل فى صورة جدية: هب أن التماسيح قد احتفظت بها رهينة حتى تصير امرأة عجوزاً شمطاء فليس أمامها إذن شىء سوى أن تنظر إلى نفسها على صفحة ماء البركة فترى ملامحها وقسماتها تتغير تدريجياً وكلما مرت بها السنون رأت شبابها يذبل وجمالها يخبو.

لم تستطع أن تفكر فى شىء أكثر رعباً وفزعاً من هذا المصير. وراحت تستيقين أن هذا المصير هو ما رسمت التماسيح خطته. إن «جويل» لم تعد لديها

أى فكرة كم من الزمن قد انقضى عليها فى هذا السجن. إن كل يوم يمر بها شبيه بالآخر كأنه سنوات تكر. وتستشعر «جويل» اليأس والقنوط وتقرر أن تقفز فى اليم فتغرق نفسها وتخشى أن ظلت تطيل التفكير فى الأمر أن تفقد شجاعتها فتنتصب واقفة على قدميها وتغمض عينيها وتجرى نحو البركة وتلقى بنفسها فى أعماق الماء وما تكاد تمضى لحظات قليلة حتى تشعر بأن شيئاً قد أمسك بها وجرها مرة أخرى ويصيح التمساح وهو يضعها على الشاطئ:

– تش.. تش.. ما معنى هذا؟

وتصرخ «جويل»:

– إننى فتاة تعسة وأفضل الموت على أن أبقى أكثر من هذا.

ويتساءل التمساح:

– ولكن ما يؤلمك من الحياة؟ تذكرى كيف تعودت أن تتركى عملك دون إنجاز. وأن تأتى إلى هنا تحملقين فى خيالك على الماء لساعات.

وتبكى «جويل»:

– لا أريد ذلك. لقد برمت من النظر إلى خيالى إلى جانب هذا. فإننى إذا بقيت هنا فإن صورتى سوف تتغير فأصبح عجوزاً دميمة وأنا لا أطيق أن أرى نفسى عجوزاً دميمة.

ويسأل التمساح:

وما تريدين أن تفعلى؟

– أود أن أعود إلى دارى لأعيش كما تعيش أى فتاة من الناس.

ويذكرها التمساح:

– ولكنك لم تعيشى من قبل كما تعيش أى فتاة من الناس. لقد عشت حياة فتاة فاسدة. لقد كنت تعاملين أختيك كما تعاملين العبيد الأرقاء.

كنت لا تساعدين أمك. كنت لا تؤدين عملاً نافعاً.

وتصيح «جويل»:

- لقد كنت فتاة غافلة مجنونة. لست أدرى لماذا كنت على هذه الدرجة من الغفلة والجنون. كل ما أريده الآن أن أحيا كما تحيا أى فتاة أخرى. سأعمل قريرة النفس. لقد مرضت لأننى لا أعمل شيئاً طوال يومى.

ويغلق التمساح عينيه ويفكر بعض الوقت ويقول أخيراً:

- جميل.. سأتركك ولكن بشروط.. عليك أن تعملى كما تقولين إنك راغبة فى العمل وعليك أن تقربى إلى كل يوم قرباناً. فإن أمسكت بك يوماً تتسكعين حول البركة مختالة بجمالك فسوف ألتهمك بكل تأكيد، حتى ولو لم أملك سوى أسنان ضعيفة أو ما يحتمل أن أعانيه من متاعب سوء الهضم.. والآن انصرفى.

وتقف جويل على قدميها شاكرة وكانت كلمات الشكر تصدر من فمها لاهثة وتجرى على الدرب الموصل إلى القرية.

وتفرح الأم المسكينة باللقاء والعودة، إن إشفاقها من العقاب الذى يحل بالقرية وحده هو الذى حال بينها وبين التوجه لرؤية ابنتها. إن أحداً سواها على الأخص لم يكن ليشاركها الفرحة. فلم يكن ليعنيهم الأمر كثيراً من قريب أو بعيد، لقد كان عمر القصة أشهراً ثم انقشعت وطأة المرض فشغل الناس بما يهمهم من شؤون الحياة الأخرى.

ولكن جويل تغيرت عما كانت: تعمل عملاً متصلاً شاقاً كل يوم: تأخذ طريقها إلى البركة تحمل القرابين كل يوم وتظل على هذا المنوال حتى تصبح امرأة عجوزاً طاعنة ولا يذكر أحد عن قصتها شيئاً.. اللهم إلا نفر قليل من عجائز الناس أمثالها، وبالطبع إلا ذلك التمساح العجوز الذى لم يتغير شكله والذى يحتمل أن يكون حاله كما كان حتى يومنا هذا.



القردة النهمة

إن الحياة فى الغابة ليست هينة أبداً.. وعلى الحيوانات والطيور أن تعكف على العمل حتى تستطيع أن توفر الطعام لها ولبنى جنسها، وهى فى الغالب تجد ما يكفيها من الطعام ولكن بعضاً منها قد لا يجد أحياناً بسبب الجدب أو الفيضانات طعاماً كافياً تقتات به.

لقد وقع مرة جدب بالغ القسوة عانى منه أهل الغابة صعوبات شديدة فكانوا يطوفون بأرجائها أميالاً قبل أن يجدوا من الطعام ما يمسك رمقهم ويحفظ عليهم حياتهم. وكان أكثرهم دأباً على تصيد الطعام أنثى القرد.. كانت شديدة الولع بالطعام، وكانت تزهو على غيرها بأنها ربة بيت وأم من الطراز الأول، كانت تدعى «مالا» وكان لها طفل كان موضع فخرها واعتزازها. كان فراؤه جميلاً وضاءً وكانت «مالا» تعتقد أن ذلك راجع إلى ثمار الجوز التى كانت تخلطه بطعام طفلها.. لقد كانت تجد كثيراً فى التماس هذه الثمار وكانت تنطلق فى باكورة كل صباح تبحث عنها وتترك زوجها فى الدار ليرعى طفلهما.

وذات يوم تقطع فى سفرها أميالاً وتكاد تستيئس من الحصول على ثمار الجوز وإذا بها تعثر على شجرة وعلى أغصانها ثمرات معدودات منه، فتتلهف على جمعها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، فتسقط ثمرة واحدة منها على الأرض فتكره- وهى ربة بيت حريصة على كل شىء- أن تضيع منها ثمرة الجوز وتهبط من الشجرة مسرعة ما وسعها ذلك حتى تصل إلى الأرض ساعة سقوط الثمرة ولشد ما كان يحزنها أن ترى الثمرة قد انحدرت إلى حفرة فى الغابة، ولكن «مالا» تصمم على ألا تضيع منها ثمرة الجوز فتندفع من خلفها ولكنها كانت تشعر أن الثمرة تبعد عنها شيئاً فشيئاً وتسير فى أثرها فى غير وجل أو تردد والجوزة لا تزال تبعد عنها، وتدرك «مالا» أن هذه الحفرة ليست شيئاً مألوفاً

ولكنها تكشف أنها سرداب طويل ينتهى إلى أعماق غائرة فى الأرض.

إن بعض الناس قد يفقدون أعصابهم فيعودون أدراجهم ولكن ذلك لا يصدق على أنثى القرد «مالا» فحيثما كان ثم احتمال للحصول على الطعام، فإن «مالا» لا يقعدها الظلام أو حتى الخطر. لذلك فهى تستمر فى طريقها، وإذا السرداب ينتهى فجأة إلى مكان فسيح تكسوه المروج الخضراء والأشجار المثمرة والأزهار على مسافة منه يتدفق نهر جميل تترقرق مياهه فى ضوء الشمس.. لقد كان بعض هذه الأشجار والثمرات مما قد رأت «مالا» من قبل، ولكن كثيراً منها لم يكن معروفاً لديها تماماً. كان يبدو على كثير من الحيوانات فى هذا المكان الفسيح نعمة الطعام الوفير وكانت تثب فى مرح.. كل هذه الأمور كانت بالنسبة «لمالا» شيئاً لا تتوقعه، شيئاً يختلف عن العالم الذى تركته من خلفها، لذلك فقد وقفت فى ذهول مطلق.. إن هذه الوقفة قد أفقدتها ثمرة الجوز التى ظلت تتدحرج من الحفرة إلى الأرض.. وإذا بقرد صغير يلهو يلتقط ثمرة الجوز ثم يأخذ فى التهامها.

وتقفز «مالا» من الحفرة وهى تصرخ فى يأس ثم تبدأ الكلام فى غضب. ويفزع القرد الطفل من منظرها المفاجئ ومن الضجيج الذى تحدثه فتسقط ثمرة الجوز منه ولكنه كان قد قضم قطعة كبيرة منها. وراحت «مالا» تبكى وبينما هى تبكى إذا بالحيوانات تلتف من حولها وتسألها فى تشوق عما أصابها، وإذا «مالا» تقص عليهم نبأ المجاعة فى عالمها العلوى وكيف كانت تسعى لاقتناص جوزة لطفلها وكيف كانت الجوزة تتدحرج فى الحفرة وكيف أنها تبعتها فى بسالة وكيف أن القرد الصغير قد أتلفها.

وتستمع الحيوانات إلى قصتها فتأخذها الشفقة عليها وتدعو «مالا» إلى طعام يقدم إليها ثم تسألها عن أبناء العالم العلوى وتخبر «مالا» الحيوانات بما تعرف ثم تسأل إذا ما كان الجدب قد أثر على حياتها.. فتعلم أنها لا تعرف جدباً ولا فضيانات فى هذه الأصقاع الرائعة وإنما هى شمس ساطعة وأمطار هادئة وطعام دائم موفور.

وتجلس «مالا» يغمرها شعور من الدهشة والحسد، فإن أحداً ما لا يحب الطعام الزكى مثل ما تحبه هى. وأن بلداً لا يشكو نقصاً فى الطعام لخليق أن يكون مثله كالجنة.. إنها لم تعد تفكر فى مستقبل أسعد حالاً من أن تعيش فى مكان تأكل فيه من الطعام ما تشاء وفى أى ساعة من نهار أو ليل. لقد أدهشها أن الذين يستضيفونها لا يظهرون آيات الحمد إلا لماماً.. لذلك فهى تريد أن تظهر أمامهم كما يظهرون، فتتحدث معهم عن جمال المناظر بدلاً من أن تهتم بأمر الطعام.. كانت واثقة أنها قد تحدثت معهم عن الطعام بما فيه الكفاية حتى استيقنت أنهم سوف لا يردونها إلى عالمها العلوى صفر اليدين.

لذلك فهى تتألم أشد الألم حين حل وقت رحيلها دون أن يذكر لها شىء عن الطعام.. كانت الهدية الوحيدة التى تلقتها منهم طبلاً كبيراً رائعاً. لقد بذلت «مالا» غاية الجهد أن تبدو شاكرة لهم أجزل الشكر على هديتهم الجميلة النافعة ثم تنطلق راجعة إلى مستقرها يتملكها شعور بالأسى والحزن.

وما تكاد تصل إلى دارها حتى تجد زوجها وطفلها ينتظران عودتها فى قلق شديد، لقد تملكهم القنوط حين وجدا أنها لا تحمل طعاماً، فقد كانا جائعين أشد الجوع، حتى إنه لم يكن يعنيهما الاستماع إلى أنباء تلك المغامرة العجيبة عن هذا العالم الأرضى العجيب، ويسأل الزوج:

- هل أنت واثقة أنك لم تنامى وحلمت بهذا كله.

وتقول «مالا» غاضبة:

- لم أفعل.. هاك البرهان.. انظر إلى هذا الطبل الرائع الذى أعطيته.

- كم أود لو أنهم أعطوك بعضاً من الجوز عوضاً عنه.

وفى لهجة شاكية يقول هذا، ثم يضرب الطبل بقدمه فيسمع فى الحال بداخله قعقعة وتتساءل «مالا» فى تعجب، ثم تهجم على الطبل فتضغط عليه بما أوتيت من قوة. وبينما هى تفعل ذلك إذ بألوان مختلفة من الطعام تتهاوى من داخل الطبل.

- إن بداخله شيئاً ما.

ويتجاذب الثلاثة أطراف الحديث فى نشوة واضطراب ويقفزون على الطعام يلتهمونه مسرعين ما وسعهم السبيل إلى ذلك.

ويستثير ضجيج الطبل كافة الحيوانات التى تقطن الأرض المجاورة لهم فيرمقونهم من خلال الأشجار فى تطلع ويهرعون إليهم حين يرون كل هذه الأطعمة فتتساءل سلحفاة حصيفة عجوز:

- هل نزل هذا الطعام من السماء؟

وترد مالا:

- إن بعض أصدقائى قد أعطونى إياه.

وتحملق جميع الحيوانات فى رهبة، وتدرك «مالا» أنها قد أصبحت على جانب كبير من الأهمية. وبقدر ما كانت نهمة فى الطعام كانت نهمة فى اجتذاب حب الناس إياها فتقول لهم:

- هناك طعام وفير لكل واحد منكم.. استعدوا لوليمة.

وفى الحال يسود المكان صخب عظيم من الحيوانات التى تهرع لإعداد الترتيبات اللازمة لهذه الوليمة وتسأل السلحفاة «مالا»:

- أتظنين أنه من الحكمة أن يسمح لكل فرد أن يأكل ما يشتهى؟.. أليس من الأفضل أن نعطى كل فرد قليلاً من الطعام فى كل وقت؟.. بهذا يمكن أن يبقى الطعام مدة أطول.

ولكن «مالا» تنظر إلى السلحفاة فى ازدراء فلم يحدث لها يوماً ما أن تصدرت مكاناً تستطيع منه أن تلعب فيه من الناحية الاجتماعية دوراً ملحوظاً. لذلك فهى تشعر بزهو كبير لا تطيق معه الاستماع إلى صوت العقل. فتقول فى شىء من الكبرياء:

- هناك طعام وفير فى المكان الذى جئنا به منه.

وتهز السلحفاة رأسها فى ريب مما تقول ثم تعود منطوية حول غطائها الصدفى.

وتصبح «مالا» طيلة اليومين المتتاليين أحب من فى الغابة منزلة.

كان كل فرد ناعماً هانئاً.. وكان كل فرد شاكراً «لمالا» حسن صنيعها متقرباً إليها.. ولكن الطعام بعد ذلك يأخذ فى النقصان حتى يفرغ نهائياً، وترى «مالا» أنها لم تعد أهم من فى الغابة، وأسوأ من هذا كله أن تعود هى وأسرتها إلى المسغبة مرة أخرى، وإلى ذلك الأسلوب النفسى من التجوال فى الغابة تصيداً للطعام فى وقت لم تظهر أية بادرة بانتهاء الجدب.

ويسأل الزوج «مالا»:

لماذا لا تعودين إلى أصدقائك الأشداء طلباً لمزيد من الطعام؟

- سوف أعود فى الحال.

وتتظاهر «مالا» بانشغالها بإصلاح زينتها.. وعلى الرغم من أن «مالا» كانت لا ترى الاعتراف بالأمر فإنها كانت تشعر فى قرارة نفسها بشىء من عدم الطمأنينة لعودتها إلى العالم الأرضى مرة أخرى.. إن الناس فى ذلك العالم يبدون حكماء عقلاء ليس بينهم من يتباهى كما تفعل «مالا» وأصدقاؤها أو من يتحدث فى غير ضرورة أو من يتقاتل مع غيره. ليس بينهم من يظهر الرغبة فى أن يحدث تأثيراً زائفاً على غيره. لقد كانت الطريقة التى سلكوها حين منحوها الطعام تظهر مقدار ما حصلوا عليه من رقة فى المشاعر.. قد يكون من اليسير على المرء أن يتحلى بمثل هذه السجايا الطيبة لو كان يعيش فى عالم لا يعانى جوعاً. إن فكرة مضطربة كانت ولاتزال تراودها.. ولكن لماذا لا تتصرف كما اقترحت عليها السلحفاة؟.. لماذا ذهب الطعام بدداً؟.. إذا علم القوم فى العالم الأرضى ما وقع فهل سيكونون هذه المرة كما كانوا كرماء معها؟

لقد كان يعوز «مالا» الشجاعة أن تكشف كل هذا.. وكلما انقضت الأيام ازدادت تدبراً وتفكيراً.. وأخيراً تصل إلى خطة.

لقد اعتزمت العودة إلى العالم الأرضى مرة أخرى. ولكنها رأت أن تجعل زيارتها عرضاً غير مدبر فتنطلق فى صباح يوم مبكر حتى إذا وصلت إلى تلك الشجرة القائمة على مدخل الحفرة تلتمس فى شوق جوزة فتجدها مصادفة وتحملها فى تريث ثم تضعها على الأرض وتعمد إلى دفعها إلى الحفرة وهى تمشى فى أثرها.. وتأخذ «مالا» فى النزول شيئاً فشيئاً داخل الممر الطويل المظلم فى أثر الجوزة التى كانت تتدحرج فيه حتى تلمح أمامها نوراً وضاء. وتسكن نفسها حين ترى العالم الأرضى كما بدا لها من قبل. كانت الشمس ساطعة والأشجار والأزهار متألقة وثمار الجوز وألوان الفاكهة وفيرة. وكان القرد الصغير نفسه يلهو حول فتحة النفق كما كان يفعل من قبل.. ولشد ما كانت فرحتها حين ترى القرد ينقض على الجوزة مرة أخرى بعد خروجها ويبدأ فى التهامها.. هنالك تنبعث من «مالا» صرخة مدوية وهى تجرى فيلتف حولها على أثرها خلق كثير فتصيح:

«الويل لى.. الويل لى.. مرة أخرى تؤخذ منى الجوزة التى ادخرتها لطفلى؟».

ويصيح واحد من الجمع:

– وكيف جاءت إلى هنا؟

– تماماً كما جاءت أول مرة. إن المجاعة مازالت على الأرض من فوقنا لقد سعيت لصيد الجوز ثم سعيت فلم أجد شيئاً، حتى أتيت الشجرة القائمة فوق النفق، فالتمست واحدة سقطت منى إثر شعور بحماس ألح على ثم تدحرجت منى إلى هنا.

وتسأل بوم عجوز حكيم:

– أليس لديكم فى الواقع شىء تأكلونه هذه الآونة.

– لا شىء.. عن نفسى.. إننى لا أعبأ.. إن ما يثير قلقى هو طفلى المسكين.

ويسود الصمت لحظة من الزمن.. ويشرع كل واحد يحملق فى وجه «مالا»

لقد أحست أنهم جميعاً يقرأون ما يجرى فى ذهنه!! ثم بدأت تسأل نفسها عما إذا كانوا قد وقفوا على الطريقة التى بددت بها الطعام الذى أعطوها إياه فتسرع قائلة:

- أرى لزاماً على أن أعرب عن شكرى لكم على هديتكم السابقة حينما كنت معكم هنا.. لقد كانت رائعة.. ولكن كان على أن أقتسمها مع كل فرد.. ولقد انقضى وقت طويل منذ انتهت.

ويستمع الجمع إلى حديثها دون تعليق وتدعوها البوم إلى الجلوس بجوارها.. ويقدمون لها الطعام وتشعر «مالا» أن كل شىء يسير سيراً حسناً وأنها لم تعد تحس خوفاً بعد كل هذا.. لقد تحقق لها أنهم سوف لا يردونها صفر اليدين.. وبدأت تتساءل إذا كان فى وسعها أن تفعل شيئاً أكثر مما فعلت، وعما إذا كان يحق لها ولأسرتها أن يموتوا جوعاً فى عالمها العلوى بينما يعيش هنا كل إنسان فى ترف فتقول للبوم:

- إننى لم أر فى حياتى قط مكاناً أجمل من هذا- إن أشجاركم وأزهاركم رائعة إلى حد كبير.. إن لى إحساساً بالجمال أكثر من زملائى الذين يعيشون من فوقنا.. إن ذوقى فى الواقع مرهف مصقول وكذلك زوجى.. أما طفلى فهو مخلوق لطيف حساس ماهر.. إننا لنرغب مخلصين أن نزور العالم من فوقنا إن أنتم هيأتم لنا ركناً هنا.. سوف نكون سعداء فى هذه البقاع الجميلة وبين قوم كرام أمثالكم.

وتنظر البوم إليها فى سكينة وتهز رأسها:

- هذا مستحيل.. إن أحداً لن يأتى ليعيش هنا إلا إذا وقع اختيارنا عليه.

وتبدو الكآبة على وجه «مالا» وقد أثارها حديث البوم ولكنها تحاول أن تحتفظ بأدب جم:

- هل فى الإمكان أن نختار؟ وكيف السبيل إلى ذلك؟ هل يتم الاختيار كما يحدث فى النادى؟ هل يكون بالانتخاب؟

وترد البوم:

نعم.. إنه كذلك.

- إننى أود أن تخبرنى كيف يمكن البدء فيه؟

وتقول البوم فى اقتضاب ثم تختفى فى هدوء:

- لا.. ممنوع.. آسف. يجب أن أترككم الآن. إن لدى أموراً ينبغى أن أقوم بها.

وتضطرب «مالا» اضطراباً شديداً وتركز نظرها على أقوام آخرين محاولة فى دهاء وحذر أن تخل منهم معلومات عن السبيل التى يمكن لها ولأسرتها الظفر بإذن للعيش فى هذا العالم الأرضى الجميل.. وفى كل حالة كانت تفشل لقد كان السر- كما يبدو واضحاً- محوطاً بحراسة دقيقة.. إن الإشارة من جانبها إلى الكرب الذى يحيق بقومها فى العالم العلوى والذى يمس شغاف القلب.. وكذلك إلى ما ينتابها وأسرتها على الأخص من غم لم يكن ليجعلها تظفر بمفتاح السر.

وتقول لها:

- إن الجدب لابد أن ينتهى فى الحال.. وسوف تحصلون جميعاً على الطعام.

وتسخط «مالا» حين تسمع هذا القول وتعقد العزم على العودة.. إنهم ولا شك سوف يقدمون لها على الأقل هدية العودة.

وتودع «مالا» أصدقاءها.. ومرة أخرى بينما هى تعد العدة للرحيل يقدمون لها طبلاً كبيراً كان البوم يرفرف من حوله، وتعرب لهم «مالا» عن شكرها العميق وتحمل الطبل على كتفيها وتنطلق إلى النفق وتتخذ طريقها راجعة إلى دارها الرئيسى، وفى نفسها مزيج من شعور الغضب والحسد وتقرر أن هؤلاء القوم حقراء أراذل وأنها وعشيرتها فوق هذا أطيب منهم منبتاً وحسباً.. وحسبها على الأقل أنها قد ظفرت منهم بحمل آخر من الطعام. إن الحيلة التى أقدمت عليها

قد أنبتت ثمرتها.

وما تكاد «مالا» تصل إلى دارها حتى تجد جمعاً كبيراً ينتظرون. لقد كانوا يظنون أنها ذهبت لزيارة أصدقائها الأقوياء المجهولين وكانوا فى هياج كبير يترقبون وليمة أخرى، وحين يرونها يلتفون حولها مهللين يربتون على ظهرها ولم تكن «مالا» بادئ الأمر راضية.. لقد كانت تؤثر هذه المرة أن تختزن الطعام كله لها ولأسرتها فليس من الحكمة أن تلتهم الطعام فى إسراف مرة أخرى.. ولكنها حين ترى الأعين الملتهفة من حولها وتنصت إلى تحياتهم وتمنياتهم لم تستطع «مالا» أن تقاوم تلك الفرصة التى سنحت لها لتظهر أمامهم شخصية على جانب كبير من الأهمية والخطورة لبضعة أيام فحسب فتصيح وهى تلقى بالطبل أرضاً:

- إليكم طعام موفور لكل فرد منكم.

وتهمس السلحفاة:

- بالتأكيد سوف لا تقيمين وليمة أخرى.

وترد «مالا» فى عدم اكتراث:

لم لا.. إن الجدب سوف ينتهى على كل حال.

ويحييها الحشد تحية قوية بينما يتقاطرون حول الطبل.

ويصيح زوج «مالا»:

- دعونى أضربه.

ثم شرع يعالج الطبل.

إن مجهوداته لم تكلل بالنجاح فلم يعد يسمع صوت الجوز، أو الفاكهة. لقد بدأ يخرج عوضاً عنها صوت مجلجل عجيب، وإذا بحشود من الهوام الغريبة الدقيقة تجرى من داخل الطبل لم يشهدها الناس من قبل، وظلت تحلق فوق الجمع الذى أخذ فى الحال فى الاختفاء فى كل اتجاه حتى إنه لم يبق فى المكان الفسيح سوى «مالا» وأسرتها التى جلست تولول وتنادى بالانتقام من أولئك القوم

الذين يقطنون العالم الأرضى وتشعر «مالا» بألم الجوع واليأس، بل وتحس بأسوأ منهما أثراً فى النفس وهو الشعور بالهوان، ذلك أن سكان العالم الأرضى قد علموا بوضوح بتلك الحيلة التى كانت «مالا» تضطلع بها فحاولوا أن يلقنوها درساً.

وبينما كانت «مالا» وأسرتها يبكون إذ بالمطر ينهمر فيختلط بدموع الباكين وإذا الجدب ينقشع.

وتفرح «مالا».

المطر.. المطر.. إننا لم نعد نخاف شيئاً.. سوف يصبح الطعام وفيراً ميسوراً بعد قليل.

وفى الحق كان.. ثم طعام ولكن كانت هناك أشياء أخرى كذلك.. كل فرد بدأ يصرعه المرض. ويحس بأوجاع لم تكن معروفة من قبل.. إن المرض قد انساب من الطبل ثم انتشر على الأرض، ومنذ ذلك الوقت والناس والدواب فى العالم قد أصبحت عرضة لأسقام مختلفة لم تكن معهودة من قبل حين جاءت القردة بها من العالم الأرضى.



السلحفاة وأمها

تعرف القردة بالمهارة، ولكنها حين تكون جشعة أيضاً تسبب مزيداً من المتاعب.

كانت القرة شيتا جشعة وكانت حين لا تجد شيئاً تفعله تقعد لتتآمر وترسم خططاً لأشياء كثيرة، وعلى الأخص تلك التى تتمكن عن طريقها من الحصول على مزيد من الطعام.

وذات يوم طافت بعقل شيتا فكرة بارعة.. كانت الغابة مليئة بطعام وفير يكفى عادة كل من فيها.. ولكنه قد لا يكفى قبل نزول المطر.. ولكن شيتا كانت ترغب أن يكون لها مزيد منه.. فيدور بينها وبين نفسها حديث:

- لو أن فريقاً من سكان الغابة أغرى بالرحيل عنها أو أنهم أرغموا عليه إذن لبقى كل الطعام للآخرين.

كانت المشكلة من الذى يرحل؟ لقد فكرت شيتا فى أن تقود حملة على بعض أنواع الحيوانات مثل الزيرا والخنازير وأن تستثير بعض الحيوانات لطردها، فإن حدث ذلك كان من ورائه أن يصبح لنوع معين من الحيوان بعد وقت قدرٌ كبيرٌ من النفوذ والسلطان ولن يكون ذلك على التحقيق للقردة. إن القردة سريعة الحركة كثيرة الدهاء ولكنها ليست من القوة بحيث تقدر على تحمل الصعاب العظيمة.

وتقرر شيتا أن ميزان القوى لا ينبغى أن يختل فليس مجدياً التخلص من أفراد فصيلة من الحيوان. وتفكر فيما إذا كان من الممكن استغلال الغرائز الوضيعة فى الجماعة.. هل تستطيع التقدم بالرأى القائل ببقاء الأسر من الحيوانات التى عاشت أطول من غيرها فى بقعة معينة من الغابة؟ الاستقرار لأقدم الأسر وأفضلها؟ ولكن حين تفكر فى هذا الرأى يستبين لها أنه أكثر تعقيداً من غيره، ذلك أن الخفافيش هى على وجه التحقيق أقدم الجماعات

إقامة فى الأماكن المجاورة ولكنها لا تعيش فى ألفة مع غيرها وإنما تعيش لنفسها فحسب. وهناك السلحفاة.. إن جماعتها تعمر كثيراً، بل قد تكون أطولها عمراً لكنها ماكرة وكذلك بقية أقربائها.. والعيش مع عشائر السلحفاة يجعل المكان قفراً لمن يخالطهم من الغير.

إن «شيتا» مازالت تحس أن فى الفكرة شيئاً يمكن أن يتحقق لو أنها فكرت فيه. لقد أحست بالجوع بعد طول تدبير وتفكير فانطلقت تلتمس عنقوداً من الموز ثم راحت تأكل وتقدر. فليس مجدياً التخلص من أحد الأجناس وليس مجدياً التخلص من كافة الحيوانات فيما عدا أطول الأجناس عمراً منها.

إذن فماذا عن اللون؟ هب أنه قد أخرجت ذات الألوان الداكنة أما ذات الألوان الرقيقة فأبقيت وروقب بقاؤها.. إنه لا جدوى من ذلك لأن فى القردة أشكالاً تتراوح بين الأبيض والأسود.. إن شيتا مع الأسف قد أعرضت عن هذا الرأى. وماذا يفرق بين الناس؟ آه.. قد وجدتها أخيراً.. العمر والشيخوخة إنه الصراع الأبدى بين الهرم والشباب إنها سوف تبدأ حملة لنفى الشيوخ. إنها هى نفسها تقف على الجانب المشرق من الأنوثة الشابة وكغيرها من سائر القردة لا ينبئ أبداً مظهرها عن المستقبل. إن المشروع يبدو بارعاً وكلما جدت فى تنفيذه كان ذلك أفضل وأبقى.

وتنتهى شيتا من التهام آخر ثمرة موز وتنطلق لتنشر دعاية رقيقة.

وفى خلال أسبوع تثور مشكلة جديدة يستعر أوارها فى الغابة وكانت وحدها مدار الحديث، تلك هى استبداد الشيوخ بالشباب. إن الشباب لا ينالون قسطهم الأدنى وأن الشيوخ قد فعلوا ما يشتهون فى الماضى ولكنهم ظلوا يقبضون على ناصية الأمور فى الحاضر وإلى أين يسير المستقبل إذا تركت الأمور على هذا المنوال؟

وتسأل شيتا خنزيراً برياً سميناً من سكان الغابة.

- انظر إلى موضوع الطعام وإلى أجوده.. من الذى يحصل عليه؟

ويقول الخنزير مطرقاً:

- حسن.. إننى لا أحصل إلا على الغث منه.

- لكنك لا تحصل على ما كان يحصل عليه جدك.

ويتساءل الخنزير:

- وأنى لى به؟ إنه فوق هذا قد أنفق وقتاً أطول مما أنفق فى التجوال فهو لذلك يعرف أفضل الأماكن فيذهب إليها.

وتقول شيتا فى لهفة:

- أليس هذا ما أقوله لك.. إن لم يكن قد استولى على أطيب الأشياء أولاً فإنك سوف تجدها فى الحال.. إنه فضل الشيوخ على الشباب.. إنه لكذلك.

- ولكن..

ويلزم الخنزير الصمت.

إن النقاش على هذه الوتيرة فيه ثغرة، ولكنه- من الحق فى نفس الوقت- أن الجد إذا لم يذهب إلى المكان أولاً، فإن الخنزير الشاب قد يجد بالصدفة المكان الذى يلتمس فيه أجود الطعام فيقول لشيتا:

- قد يكون الحق فيما تقولين.

- بالطبع أنا على حق فيما أقول.

ثم تذهب إلى مكان آخر فتنشر رأيها. لم يكن يسيراً عليها أن تنشر رأيها لأن الآراء لا تلقى لدى كثير منهم قبولاً. ولكن بالمثابرة بدأت تحرز كل يوم نصراً. لقد كان طبيعياً إلا يرضى قوم بنصيبهم وأنه ليرضيهم أن يلقوا بمتاعبهم على غيرهم. فإذا أمكن توجيه اللوم إلى الشيوخ فليس من المؤسف أن يلوم المرء نفسه.

إن المؤامرة بأكملها قد حبكت أطرافها حبكاً دقيقاً فى اللحظة التى لقيت

شيتا فيها السلحفاة التى تعلن:

- إن الذى لا أفهمه هو كيف يمكنك التمييز بين من هو العجوز الهرم ومن ليس كذلك.. فمثلاً إن عمرى عشرون مرة بالقياس إلى عمرك ولكنى بين أجناس السلحفاة شابة. وعلى العكس من ذلك الطائر المغرد إن عمره شهور قليلة وسوف يصبح جداً فى أقل من عام.

وتجيب شيتا فى شىء من العجلة:

- إننى أتحدث بالطبع عن الأجيال المعمرة.. الآباء والأجداد.. إننا نريد أن نبرأ من استبدادهم.

وتتساءل السلحفاة:

- تقصدين أن نرسل بأمك إلى المنفى؟

وتنظر شيتا فى تحد:

- ليس هذا أمراً خاصاً.. إنه لصالح الجماعة.. إن أمى سوف تذهب مع البقية الباقية.

وتقول السلحفاة فى اقتضاب:

- إن أمى سوف لا تذهب.

وتقول شيتا غاضبة:

- إنك عدو المجتمع فى صورة مذهلة.. سوف أبلغ ذلك للمجلس الذى أنتمى إليه.

وتسأل السلحفاة فى دهشة:

- عجباً.. وهل يوجد لديكم مجلس؟

وتقول شيتا فى غيظ خانق:

- طبيعى إن لجميع الحركات مجالس.

ليس لدى شيتا فى الواقع مجلس ما.. ولكنها قررت لأول وهلة أن الجميع ينبغى أن يلتف بعضهم ببعض فى الحال.

إن التقاء الجميع فى مجلس ليس أمراً هيناً لأول مرة. إن أعظم ما يشغل المرء هو أن يوعد بمزيد من الطعام ولكن أحداً لا يرغب فى مزيد من العمل.

ومع الليل تمكنت «شيتا» من أن تسجل فى مجلسها أربعة أعضاء: الخنزير الصغير، النسر الجارح، التمساح، وثعبان الكوبرا.

وفى صباح اليوم التالى تنجح فى استثارة حميتهم إلى حد أنهم بدأوا يغيرون عقائد أهليهم باعتناق ذلك الرأى القائل بأن على الأب الذى أنجب ابناً بالغاً سن الرشد أن ينزوى فى المنفى.

ويحمل الشيوخ والآباء الأمر أولاً على محمل الهزل.. ولكن ما يكاد ينقضى أسبوع آخر حتى يتخذ طابعاً جدياً.. وينسحب الشباب تدريجياً.. ويكونون من أنفسهم جماعات متدابرة عقدت العزم على أن تطرد الآباء والمعمرين وما يكاد القمر الجديد يبزغ بدراً كاملاً حتى كانت الخطة قد تحققت. لقد طرد العجائز جميعاً فى شىء من التعسف والذهول وترك الشبان يتقلدون مهام الأمور ويتملكون كل شىء.

وتظل شيتا فى شغل دائم إلى حد أنها أصبحت لا تصغى إلى دقائق الأمور. لقد كانت حريصة على أن تعرف كيف عالجت السلحفاة التحول، وكيف كان وقع فراقها لأمها على نفسها.. وتعلق شيتا عندما تلتقى بالسلحفاة على شاطئ النهر فتقول:

- هكذا أنت سيدة الدار أخيراً.

وتقول السلحفاة فى أناة:

- ليس هناك سيد.

وتستفهم شيتا وهى لا تريد أن تحرم نفسها من إبداء رأيها:

- كيف تلقت أمك التحول؟

وتظل السلحفاة صامدة لا تريم ثم تقول:

- إن فى أسرتنا فلسفة.

تقول هذا بما يشبه أن يكون هزة من أكتافها التى تنوء بغطائها الصدفى الثقيل ثم تتدحرج نحو الماء.

ويغتبط الشباب بادئ الأمر كما يثيرهم هذا الموقف الجديد.. فقد أصبح لديهم مزيد من الطعام فوق ما يحتاجون ولم يعد فى مقدورهم أن يأكلوه، ويمرض فى الواقع بعض من صغارهم ويموت قليل منهم نتيجة لإفراطهم فى الطعام ويحم القضاء فى الخنزير الصغير، وكان على شيتا أن تلتمس عضواً جديداً فى مجلسها.. لقد كان ذلك هيناً هذه المرة لأن الناس أصبحوا الآن مشوقين إلى أن ينتظموا فى هذه الجماعة، ويصبح الطعام وفيراً إلى الحد الذى لم يجد فيه أحد عملاً يؤديه، وتمد الولائم أولاً، ولكن ما لبث أن ذهب رونقها بعد قليل، لقد كانت المجالس فكرة جديدة أول الأمر ولم يمض وقت حتى كثر عددها كثرة مذهلة.

وذات يوم بينما كانت السلحفاة ترقد على شاطئ النهر فى هدوئها المعتاد إذا بالتمساح يخرج فى عنف من الماء فتسأله السلحفاة:

- بريك.. إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى اجتماع المجلس الخاص بى.

وأى مجلس؟

- م. ث. ت.

ما هذا؟

- المجلس الثقافى للتماسيح.

يقول ذلك فى شىء من الخيلاء ثم يدلف إلى الغابة وعليه مسحة من عظمة وجلال.

- ويتساءل صوت قادم من أسفل شجرة:

- هل أنت وحدك؟

وتجيب السلحفاة:

- إننى وحدى يا أماه.. تعالى واجلسى فى الشمس.

وتأتى أم السلحفاة فى شىء من الحذر وتجلس على الشاطئ وتتنهد:

- حسن.. حسن.. ما كنت أظن أننى أرى ذلك اليوم الذى أعيش فيه لاجئة. إنك لتعلمين يا ابنتى.. أننى أسأل نفسى أحياناً إذا كان من الخير لى أن أخرج لألحق بالعجائز الآخرين.

وتتساءل السلحفاة:

- وهل تؤثرين ذلك؟

- من العسير أن أقول.. كل شىء فى هذه الأيام عجيب.. لكننى أرى أن أجعل الأمور عليك هينة. وفوق ذلك فإنه لا فائدة ترجى منى هنا.

وتقول السلحفاة:

- قد يكون منك فائدة.. اصبرى وامكثى بعض الوقت إن هذا العمل الأخرق لا يمكن أن يدوم.. سوف ترين.

ولكن الحال يستمر.. لقد استبان أنه قد استمر طويلاً وتضطر إحدى العجائز إلى أن تعيش مختبئة إلى جذع شجرة، ويأتى فصل الأمطار وينقضى ويصبح الطعام وفيراً.. وتصبح حياة الحيوانات التى أتخمت بالطعام عيداً مستديماً.

وتبدى واحدة من العجائز أساها وهى تتحدث إلى ابنها:

- إن مضيعة الطعام شىء مريع. ما الذى يصيبه إن لم يحصن فى المخازن؟

إنه شىء جميل إننا لا نعانى جدباً هنا.. لم يلم بنا إلا واحد فحسب منذ

كنت شابة. لقد كان هذا وقتاً عصيباً. وأذكر أننا كنا نأكل من الطعام ما لم نكن قد تناولنا من قبل. ولولا أن بعضاً من كبار السن كانوا قد مروا بمثل هذا الجدب من قبل وكانوا يعرفون الأشياء العجيبة التى تصلح للأكل لما عاش منا أحد. لقد تسمم منا عدد كبير من المتهورين أو هلك.

وتهمس الابنة:

- ارجعى.. إننى أسمع أحداً قادماً.

وما تكاد العجوز تصل إلى جذع النخلة حتى تظهر شيتا.. كانت عيناها تدوران فى تطلع، إن قصصاً غريبة نقلت إليها خبراً، لقد نقل إليها أن السلحفاة بدأت تفقد عقلها لأنها شوهدت تكلم نفسها، إنه يجب عليها أن تكلم نفسها ذلك أن الزائرين عندما كانوا يمرون بها كانوا يجدونها وحدها، ورغم ذلك لم تكن شيتا راضية، إنها كانت تعلم أن السلحفاة عاقلة وماكرة، إن شيتا لم تكن مقتنعة بأن السلحفاة قد أذعنت فى الواقع للنظام الجديد.. وتقترب منها متظاهرة بالدهشة:

- هل أنت وحدك؟

- إننى كما تريننى وحدى.

- تكلمين نفسك!!

- يجب أن أكلم أحداً.

وتدور عينا شيتا الحمراوان فى ريبة.

- لا ينبغى أن تمكثى طويلاً وحدك.. يجب أن تنضمى إلى أحد مجالسنا.

- لماذا؟

- حسن.. لشىء واحد.. إن الناس بدأوا يتكلمون- لا تخالطى أحداً بعد. إن لذلك تأثيراً سيئاً.

وتسأل السلحفاة وقد أسدلت عينيها:

- كيف كان كذلك؟

- إنه يبدو لهم كما لو أنك لا ترضين عن الأمور كما هى الآن.

- وهل هناك فرق؟

وتسأل شيتا فى ريبة:

- ماذا تقصدين؟

- سواء رضيت أو لم أرض. إن الأمور تسير على ما يرام، أليس كذلك؟

- مدهش للغاية.. لهذا السبب نريد كل فرد أن يساندنا إنه لشىء يثير الأسى كثيراً إذا لم يحس كل فرد بالسعادة والرضا.

وتغمض السلحفاة عينيها كأنما تستعد لغفوة، ثم تقول فى كَلٍ:

- إنه كذلك.. أنه كذلك.

وتنطلق شيتا مسرعة وتخبط ذيلها فى عصبية.. إنه على الأقل تظاهر منها بالإسراع حتى إذا توارت عن الأنظار تنفلت لتختبئ وراء شجرة، لقد استيقنت أن وراء السلحفاة شيئًا؟ إن السلحفاة ماكرة وأن أمها ليست على بلاهة- لقد كانت الأم تبدو هادئة كما كانت تبدو السلحفاة وكأنها تنام ولكنها تحس بعد قليل بحركات خفيفة. لقد انتهت شيتا من المراقبة وعادت إلى دارها.

وتمر الأيام وتعيش الحيوانات حياة طليقة ويقل الطعام عما كان من قبل ولكن لما كان وقت الأمطار يوشك أن يحل فلم يضطرب أحد، لقد ازدهرت كافة الجمعيات. فكما كانت هناك جمعية التماسيح المثقفين كان يوجد جمعية الخنازير المتفلسفين الذين كانوا يلتقون مساء السبت من كل أسبوع فى حفل خاص وجمعية الفن للنمل المتخصصين فى تخطيط المدن. وجماعة الصراصير ذات الكورال الجماعى وغيرها من الجمعيات الأخرى مثل نادى الحيوانات ذات الرجلين الذى كانت تشرف عليه شيتا.

إلا أن سحابة راحت تظلل حياة الحيوانات الطليقة أو بمعنى آخر إن عدم وجود سحاب كان سبباً فى الغم. ذلك أن المطر لم يهطل والطعام يقل شيئاً فشيئاً.

وتشكو أنثى الزيرا الشابة إلى أنثى الغزال.

- إن الأمور قد وصلت حداً بالغاً من السوء.. لم يحدث مثله طوال حياتى. لقد كان المطر يهطل دوماً وبنظام رتيب.

- إن أحداً منا لا يذكر شيئاً مثل هذا.. لقد كنت أقول هذا الكلام للسيدة شيتا، أرجو أن نفعل شيئاً للموقف، إنها تبدو على جانب كبير من المهارة.

وتقول أنثى الزيرا:

- أقترح أن نعين وفداً لمقابلتها.

أما أنثى الزيرا التى قالت هذا الرأى فتنطلق لتنقله إلى أصدقائها الذين اتفقوا على أن تكوين الوفد رأى سديد ويلتقى جمع كبير منهم ثم يسعى إلى دار شيتا.

لم تكن شيتا فى الدار.. لقد كانت تقوم بإحدى رحلات التجسس على السلحفاة، لقد كانت تقوم بها منذ أيام، لقد تأكدت أن السلحفاة تخفى أحداً عندها ومن يكون هذا سوى أمها، لقد صممت شيتا أن تمسك بتلابيب العجوز وتجعل من الحادث أزمة من الطراز الأول، يترتب عليها أمران كلاهما لا بأس منه، ومن ناحية أخرى تثور فضيحة تمنع المخلوقات من التفكير كثيراً فيما حل بهم من جدب.

وما تكاد شيتا تدنو من منزل السلحفاة حتى تجد ما كان جزاء وفاقاً على ما اقترفت يداها آخر الأمر، لقد كانت وطأة الحر والظمأ سبباً حدا بالسلحفاة العجوز على أن تفترش الطين على شاطئ النهر وأن تجلس مع ابنتها تتجاذبان أطراف الحديث فى هدوء وتمتلئ شيتا غيظاً وحنقاً بما ترى، فتسرع راجعة إلى رفاقها وتشكل منهم جماعة ثم تدفع بهم إلى شاطئ النهر.

لقد كانوا يتحركون فى شىء كثير من الخفة والهدوء حتى إن السلحفاة

العجوز لم تشعر بوجودهم إلا حين وجدت أنهم قد أحاطوا بها.

وتحملق السلحفاة فى وجه القردة العابسين قائلة:

- ماذا أنتم فاعلون بأمى.

وترد شيتا:

- إنها مجرمة.. ويجب أن تقدم للمحاكمة.. لقد خرقت القانون.

ورغم ما ساقت من تعليلات وحجج، فإن السلحفاة العجوز قد قلبت على ظهرها ثم حملت سجينة إلى بيت شيتا.

لم يكن من اليسير اختيار أحد القضاة المحلفين من بين القوم الذين سادهم الاضطراب فى الغابة، فهم محتاجون إلى الطعام لا إلى العدالة، لقد قامت شيتا برفع الدعوى وقامت السلحفاة بالدفاع عن أمها، وظلت شيتا طوال الأيام تقدم الاتهام، وكان النسر الذى قام بدور القاضى مستعداً أن يوافقها على كل شىء تقوله.

وتبدأ قائلة:

- سيدى.. إن هذه العجوز قد ارتكبت أشنع جريمة ضد الدولة، لقد تآمرت وابنتها على نقض القانون. لقد قمنا- بدافع من مشاعرنا- بتخليص أنفسنا من القيود التى فرضها علينا العجائز من قومنا طمعاً فى الظفر بحرياتنا ورغبة فى خلق مجتمع من الشباب لا ينقض ظهوره أعباء ثقيلة من العجائز والعاطلين من القوم، لقد رأيتم جميعاً النتيجة الرائعة.

ويسرى فى ساحة المحكمة تذمر ثم يصيح من يقول:

- لم نصب بجديب من قبل.. كيف نعلم أن ما نحن فيه ما هو إلا عقاب لأننا قد طردنا العجائز من بيننا.

ويصيح القاضى:

- الصمت فى ساحة المحكمة.

وتصرخ شيتا:

- إنه صوت الخرافة.. كم تكون متاعبنا أسوأ أثناء الجدب لو أن بيننا آلافاً من العجائز يطعمون.. إننا لو لم نتخلص منهم لكنا من الهالكين الآن.

وتستمر على هذا النحو حتى تمكنت من أن تقيم على السلحفاة العجوز دعوى كبيرة.. وأخيراً يسمح لابنتها أن تتكلم مدافعة عنها رغم أنه لا يوجد من يعتقد أن جهودها فى الدفاع عنها سوف تجدى.

- إننى لا أبغى الدفاع عن موقف أمى من البقاء متخلفة عن غيرها.. إن الحقيقة تقوم بذلك.. إن مبلغ علمى أن ثم اثنين لم يعانيا متاعب عظيمة من جراء نقص الطعام فى الأسبوع الأخير.. أنا.. وأمى.

فتثور ضجة كبيرة بعد هذه العبارة الجريئة.

وتصيح السلحفاة:

- الهدوء.. إن السبب فى حصولنا على الطعام هو أن أمى كانت تعرف من أين نأتى به.. لقد عاشت أزماناً مجدبة من قبل، وظلت على قيد الحياة لأن العجائز فى مثل هذه الأيام كانوا يعرفون من أين يجلبون الأطعمة الغريبة المجهولة التى تمكنهم من العيش حتى تتحسن الظروف- فلم يكن فى وسعنا نحن الشباب أن نعرف شيئاً عنها.

ويثور الاضطراب ويختل النظام بين الحيوانات وتتوه كلمات السلحفاة بينها..

- أعيدوا العجائز إلينا لينقذونا.. إن جدتى سوف لا ترضى أن أموت جوعاً.. إن فى وسع أمى مساعدتنا.

- إن أبى ماهر ويعلم كل شىء عن هذا.. إن جدى أقدم من عاش فى هذه الغابة فهو يعلم من أين نأتى بالطعام.

ويتجمهرون جميعاً ويسرعون فى جنون متجهين نحو المكان الذى وضع فيه عجائزهم من شهور مضت ولا يبقى منهم أحد سوى النسر وشيتا ولم يعد أحد

مستعداً أن يصغى إليهما.. ويصيح النسر:

- تأجلت المحكمة.

ثم يسعى مهرولاً بين قمم الأشجار إنه لابد وأن يكون قد مات أحد فى زحمة التدافع إلى التماس العجائز.

وتسعى السلحفاة وأمها إلى دارهما.. ويجلسان فى هدوء على شاطئ النهر لقد استمتعتا بوقت جميل لعدة، أيام ذلك أنه قد اقتضى الآخرين وقت طويل قبل أن يجدوا أقاربهم الذين نفوا وحتى إذا ما التقوا بهم كان هناك كثير من الاستفسارات التى لابد من الحصول عليها، ورغم ما حدث فقد عفا معظم العجائز عن أبنائهم وعادوا معهم يساعدونهم على الكشف عن الطعام حتى يهطل المطر من جديد فيما عدا شيتا وأمها وأقربائهما القدامى وغيرهم وقد كانوا جمعاً غفيراً.

إن القردة تتفرد عن سائر الحيوانات بأنها سيئة الطباع محبة للانتقام واعية الذاكرة، ولهذه الأسباب تتشب المعارك المريرة دائماً بين جماعة القردة حتى يومنا هذا.



اشدو يا «صرصار» اشدو

لقد كان مما ألف القوم فى غربى إفريقية أن يقام حفل إذا مات رب أسرة يحاول كل امرئ أن يسهم فيه بشىء يقدمه، فهناك الموسيقى، والأغانى التى يقدمها الناس والقصص التى يسوقونها عن عراقة المتوفى ويفد أقاربه من كل حدب وصوب لشهود الجنازة.

حدث أن ماتت حماة فلاح يدعى «شان» فرأى أن من واجبه أن يسهم بصورة ملحوظة فى حفل الحِداد، لقد كان المتبع فى مثل هذه الأحوال أن يستأجر بعض المحترفين من النائحين يغنون ويولولون ما وسعهم ذلك، وكلما كانوا أقوى غناء وأفجع نواحاً كانوا أفضل من غيرهم فى هذا المضمار.

لقد كان «شان» حريصاً بعض الحرص على ماله ولم يكن ليرضى بالإنفاق منه، لذلك فقد عقد العزم على أن يقوم بنفسه بمراسم الحداد ولكن من سوء حظه كان لا يحسن اللهو أو الغناء وعلى الرغم من ذلك فقد حصل لنفسه على آلة وترية وانطلق بها.

ويسمع فى دهشة وهو يجوب الغابة ما يشبه الأنغام الصادرة من أوتار مشدودة ثم يقول لنفسه:

- ها.. إنه واحد فى طريقه إلى الجنازة.. هناك...!

وينادى وفى الحال يخيم على المكان الصمت.

«عجيب» ويطرق مفكراً وفى صمت تام.

ويجىء الصوت بعد لحظة مرة أخرى أقوى مما كان.

وفى هذه المرة لا ينادى شان ولكنه بدلاً من ذلك يتحرك سريعاً نحو مصدر الصوت.

وفى الحال يكتشف مصدر الصوت، كان هناك صرصاران كبيران على كتلة من خشب يحدثان طنيناً مزعجاً ويزحف «شان» فى اتجاههما شيئاً فشيئاً وهما لا ينتبهان إليه لأنهما كانا فى شغل عنه ولا يشعران بوجوده إلا حين يطبق عليهما بغرارة تحيط بهما من كل جانب؟

ويقول لهما «شان»:

- استمعا إلى.. إننى لن أضركما.. على العكس سوف أسدى إليكما جميلا سوف آخذكما معى إلى قرية نائية فإذا ما أتيناها فارتقبا منى كلمة ثم ابدآ الغناء وواصلاه حتى آمركما بالتوقف عنه. سوف أجزيكما عن عملكما خير الجزاء.

وكان طبيعياً أن يضطرب الصرصاران ويغضبان للطريقة التى انقض بها عليهما. ولكن يبدو أنهما قد وافقا على اقتراحه عندما رأيا أنهما قد أصبحا سجينين.

ويقول أصغرهما:

- كان ينبغى أن تقول لنا ذلك أولاً.

ثم يقول أكبرهما:

- وتذكر أن تفى بوعدك فتكافئنا.

ويقول لهما مؤكداً:

سوف أكافئكما الزما الصمت حتى آمركما بالغناء.

ويصل «شان» إلى القرية ويجتمع الناس من حوله ويسألونه إذا كان قد استحضر النائحين، ويجيبهم بأن هذه ليست مناسبة عادية وأنه سوف لا يسلك الطريق اليسير المعهود عندهم، إنه يسوف يقيم مراسيم الجنازة بنفسه وأنه سوف يقدم هو الموسيقى.

ويجلس «شان» ويستعد أن يلعب بآلته الوترية التى كان قد اشتراها من قبل ثم يهمس للصرصارين:

- ابدآ الغناء الآن.

ويأخذ الصرصاران فى الغناء فى توقيع رائع ويستمر الغناء ويدهش كل امرئ لهذا الأداء الذى لا يعتريه وهن، ذلك أنه كلما كان النائح أطول بقاء بلغ منزلة أرفع فى الاحترام والتوقير. ويهمس «شان» عندما يحس أن الصرصارين قد أصابهما بعض الوهن:

- قفا. ثم يضع آلته جانباً.

ويتزاحم الناس من حوله يهنئونه ويدعونه لوليمة احتفالاً به. وفى هذه الأثناء يقفز الصرصاران داخل الغرارة ويضغط عليهما بيده ثم يهز «شان» رأسه قائلاً:

- إننى أستطيع أن آكل إذا ما تركت وحيداً.. إننى أحس أنها مناسبة مفجعة لا تسمح بالاختلاط بالناس حتى مع أكثر رفاقى قرباً إلى. إننى سوف آكل إذا ما خصصتم لى نصيباً من الطعام وأوصدتم دونى الباب.

ويستجيب الناس لذلك على تخوف منه ويخرج «شان» الصرصارين عندما ينفرد بنفسه مطمئناً. ثم يقول لهما:

- انظرا.. كيف أننى حفظت عهدى.. فى وسعكما أن تشاركانى الوليمة.. ويرقص الصرصاران فرحاً ثم يقفزان فوق المنضدة فيقول «شان» مسرعاً.

- لحظة واحدة.. قبل أن تأكلا ينبغى أن تغسلا أيديكما.

ويعتذر الصرصاران عما ارتكبا من خروج على آداب السلوك وينزلان من فوق المنضدة ويقول «شان»:

- ها هو الوعاء الذى به الماء.

ويتجه الصرصاران إلى الوعاء ويغسلان أيديهما ويسيران عائدين مشياً على ساقيهما الأماميتين والخلفيتين وبينما هما يفعلان ذلك أخذا يسيران على الأرض ثم يتسلقان المنضدة فكانا يعودان إلى حالهما من القذارة.

وعندما يرى «شان» ذلك يصيح فى صوت مدو ويأمرهما أن يعودا إلى

الاغتسال مرة أخرى بينما يعكف على الطعام ليأكله.

ويواصل الصرصاران المسكينان ذلك وفى كل مرة يعودان إلى المنضدة وهما أبعد حظاً عن أسباب النظافة مهما بلغت عنايتهما بالسير ويغدوان ذهاباً وجيئة ويصيبهما الجوع شيئاً فشيئاً وإذا بطارق على الباب وصوت يسأل «شان» عما إذا كان سيغنى مرة أخرى.. وهنا يمسك «شان» بالصرصارين ويقذف بهما فى الغرارة ثم يقول فى لهجة آمرة:

- صبراً .. سوف أرتب الأمور المرة القادمة على صورة أفضل.

وقبل أن يرتحل يضع ما تبقى لديه من الطعام الذى لم يأكله فى غرارة أخرى كان يحملها ويخرج ليبدأ أداء جديداً ويأخذ الصرصاران فى الغناء طول الليل دون أن يأكلا.

ومع الصبح ينتهى كل شيء والصرصاران يصيبهما إعياء شديد، ويلتف الناس حول «شان» ويقولون له إنه موسيقى بارع ويرجون منه أن يبقى بينهم يوماً آخر ليعزف مرة ثانية. ولكن «شان» يأبى ذلك متعللاً بأنه فى الواقع حزين لا يستطيع العزف أكثر مما فعل، ومع مطلع الفجر ينصرف «شان» ويسير فى طريقه ساعة من الزمن أو ما يقرب حتى إذا ما اشتدت حرارة الشمس يرقد «شان» لينام.

وبينما هو فى غفوته يبدأ الصرصاران جهوداً جبارة للخروج من الغرارة ويزحفان إلى الغرارة الأخرى التى تحوى الطعام فيلتهمان كل فتات فيه ويسرعان بعد ذلك ما وسعهما ذلك تاركين المكان.

ويفيق «شان» من نومه راضياً عن نفسه. لقد كان بطل حفلة لم تكلفه شيئاً. إن لديه بقية من طعام لإفطاره عزم على أن يقتسمه مع الصرصارين فإذا هو يفتح الغرارة ويطلب منهما أن يخرجا. ولكن شيئاً لم يحدث فيهز غرارته فى رفق ظناً منه أنهما مازالا نائمين. ولما لم يجد ذلك نفعاً يقلب الغرارة رأساً على عقب فإذا به يكتشف أن الصرصارين قد هربا .. فيقول فى مرح ممسكاً بغرارة الطعام:

- حسنٌ. إن الإفطار بأكمله لى.

لم يكن «شان» محتاجاً إلى أن يفتح غرارة الطعام ليعرف أنها قد أصبحت خاوية منه، ولكنه حين يقف على ما حدث يزمجر مغضباً وينعت الصرصارين بصفات اللصوص والأوغاد، ويرسل صراخاً عنيفاً فتجتمع حوله الحيوانات والطيور والحشرات يستمعون إلى ما قد وقع ويناديهم «شان»:

فليلتف من حولى كل واحد منكم.. تعالوا فاسمعوا ما فعل هذان الصرصاران السافلان الخائنان.. لقد سمحت لهما أن يغنيا ليكسبا قوتهما.. لقد سرقا كل الطعام بينما كنت نائماً ثم هربا.. انطلقوا وابحثوا عنهما واحضروهما إلى هنا، وإلى أن تتولى العدالة الأمر فإن جميع الصراصير سوف تبوء بهذا العار.

ولما كانت الصراصير من المخلوقات التى تتصف بالذكاء.. فقد قررت فيما بينها أن للقصة جانبين محتملين لذلك فقد اتخذت مكانها بعيداً بحيث لا يستطيع «شان» أن يصل إليها وبدأت تستجوبه عما حدث، ولكن إجاباته لم تكن لتقنعها ولذلك فقد أحست فى الحال أن «شان» حاول أن يخدع الصرصارين وأنهما قد تغلبا عليه، وإذا بصرصار عجوز ذكى يقول له:

- انتصر حتى غسق الليل وبعدها سنحاول أن نجدهما.. وفى نفس الوقت اذهب إلى منزلك فانتظر.

وينطلق «شان» عائداً على غير رغبة منه ويسير ذهنه يرتب ضروباً من الحيل للانتقام من الصرصارين.

ومع غسق الليل تنطلق الصراصير لتبحث عن إخوتها وهى تشدو بغناء عال حتى لا يفشل أحد فى أن يحس قربها ولكنها فعلاً لا تعثر على المذنبين.

وفى صباح اليوم التالى تدنو الصراصير من «شان» لتقص عليه نبأ فشلها ويغضب لذلك غضباً شديداً ويأمرها أن تعيد البحث فى المساء وإلا فإنه منتقم من جماعة الصراصير كلها.

وتعود الصراصير فى الصباح التالى لتنبئه بفشلها مرة أخرى ويستمر الأمر كذلك حتى يصيب الكبر «شان» ثم يهلك.. ومازالت الصراصير تخرج مع غسق الليل تنشد أغنية التحذير للصرصارين اللصين اللذين سرقا طعام «شان».

إن الإنسان الذى يخرج كل مساء دافئ جميل إلى غابة أو حقل فسينصت إليها تشدو بأنغام كالتى تصدر من العازفين بآلاتهم الموسيقية.



الأعرج والأعمى

زعموا أن رجلين فى إحدى القرى لقيا فى حياتهما حظاً عاثراً جداً. كان أحدهما قد بدأ يصاب بغشاوة على عينيه أدنته من العمى. أما الآخر فقد انتابته حمى شديدة لم يشف منها إلا بعد وقت طويل. وحين شفى منها وجد أنه قد أصيب بالعرج. فبدلاً من أن يصبح فى مقدوره السير والتجول ورعاية زراعته كان يجلس ليتتبع الناس، وهكذا وجد نفسه يصاحب الأعمى الذى أصبح بدون عمل مثله.

- ويندب الأعرج حظه فيقول:

- آه لو أن لى ساقيك لكنت قادراً على الذهاب للعمل فى مزرعتى. إننى الآن أشعر أننى كم مهمل عديم الفائدة مثلى فى ذلك مثل كتلة الخشب.

ويشكو الأعمى إليه حاله فيقول:

- لو أن لى عينيك لكنت قد استطعت الإفادة من ساقى.

كان هذا الحديث حافزاً للأعرج على أن يقدر رأياً. فيقترح على صديقه:

- إنك شاب مهذب كبير فارع، أما أنا فصغير فإن حملتنى على ظهرك فسوف أهديك الطريق الذى تسلكه ولا تحتاج إلى البقاء هنا فى حالة من الكسل.

ويرد عليه الرجل الأعمى:

- ليس هذا بالأمر الهين.

- أعلم أن ذلك ليس هيناً. ولكنه رأى خليق بأن نحاوله.

وهنا يصعد الرجل الأعرج على ظهر الأعمى ويقول له:

- والآن سر.. فسوف أكون عينيك وتكون أنت ساقى.

وينطلقان وتصبح المهمة بادئ الأمر بطيئة ثقيلة، ذلك أن الأعمى كان يتعثر فى مشيته عثرات صغيرة ولكنهما صمدا لمحاولتهما.

وبعد انقضاء أسابيع تمكنا من أن يجتازا المرحلة فى صورة رائعة، وانطلقا يباشران العمل فى مزرعتيهما ولم يرجعا إلى القعود بعد متكاسلين، وكلما انقضى الوقت لم يجدا شيئاً لا يقويان على الاضطلاع به حتى أصبح كل منهما يغار من صاحبه ويعمل على أن يبذ زميله فى صورة عمل رائع بارع.

ويقترح الأعرج يوماً على زميله:

- هيا نذبح فرخاً لغدائنا.

- وكيف تستطيع القيام بهذا الأمر؟

- عليك أن تفعل تماماً ما أقول وبهذا تستطيع أداءه. فإن قلت لك «اجر» فلا تخاف الجرى.

- حسن.. ولكننى لا أحب ذلك.

- وراحا يجريان وراء الفرخ حتى تمكنا بعد ملاحقة مجهدة أن يمسكا به.. فيقول الأعرج لصاحبه:

- والآن اجلس سأعد لك الفرخ وسننعم بوليمة كاملة.

وبينما كان الأعرج يعد الفرخ لطعامهما كان يفكر فى أمر.. إنه لشىء يثير الحسرة الشديدة أن يقتسم الفرخ مع صديقه الأعمى، لقد راح يطيل التفكير فى وسيلة يستطيع بها الظفر بالفرخ كله لنفسه، وبينما كان يغسل الفرخ فى مجرى ماء رأى ضفدعاً كبيراً على ضفته، فيدنو قريباً منه ثم يلقى بنفسه فجأة على الضفدع الخائف فيقتله ويعده للطبخ مع الفرخ.

إنه يعلم أن لحم بعض الضفادع لين.. وكان يرجو أن يكون هذا واحداً منها.. لقد بدأ يسأل نفسه إن كانت نكهة المرق يمكن أن تكشف عن طعم الضفدع لذلك فهو يضع فى الوعاء قدراً كبيراً من التوابل والفلفل حتى إذا

انتهى من طبخ الفرخ ظن أن الضفدع قد كمل نضجه أيضاً، لذلك فهو يخرجه من القدر ويضعه فى قصعة ويقدمه للأعمى الذى يقول له شاكياً متضجراً حينما يحس قدوم صديقه متجهاً نحوه:

- ما أطول الوقت الذى أنفقته فى الطبخ.

ويجيبه الأعرج مقدماً إليه القصعة وقد جعل جانبها الذى وضع فيه الضفدع تجاه صديقه:

- لقد طبخت الفرخ بطريقة خاصة تماماً.. إننى واثق من أن طعمه سيكون مختلفاً عما أكلت من قبل من الأفراخ.

ويقول الأعمى وهو يتحسس الضفدع بيديه:

- يبدو أننى قد ظفرت بالطائر كله.

ويقول الأعرج:

- إننى أريدك أن تظفر بأحسنه.. انزع لى منه نتفة صغيرة.

ويلتقط الأعمى الضفدع ويحاول أن يقطعه أجزاء ولكنه كان صلباً فلم يقو عليه ونال منه عنتاً شديداً ويقول الأعمى مغضباً:

- إنك بحق قد طبخته بطريقة خاصة تماماً.. إنه صلب جامد لا أقوى على تمزيقه أجزاء.

ويرد الأعرج:- لابد أن يكون الطائر صلباً جامداً.. اجذب إليك بقوة، إنك ستجده لذيذ الطعم حلو المذاق إن أنت قطعته إرباً.

ويستجمع الأعمى قوته ويستعين بدفعة قوية، فإذا بالضفدع يتناثر قطعاً وإذا بحبات الفلفل التى كانت تكسوها تتطاير إلى عينى الأعمى فيرقص ويعوى ويبكى، وإذا عيناه تزران ولشد ما كانت دهشته حين وجد أن فى وسعه أن يرى النور فجأة مرة أخرى.

كان أول شيء يراه بعد أن استرد بصره ما كان يمسك في يديه، وكان واضحاً له غاية الوضوح أن ما كان يقبض عليه ليس فرخاً، فإذا وجهه يرتعد غضباً وإذا بالأعرج يدرك أنه ما لم يلذ بالفرار فإن مصيره إلى الضرب المبرح وهو من أجل ذلك يمضى مسرعاً مرتاعاً غير مدرك للحقيقة المذهلة وهى إنه قد استرد قدرته على استعمال رجليه.

وهكذا ينطلق الأعرج مسرعاً يتبعه الأعمى فيخترقان القرية وما حولهما من الريف الفسيح حتى يلقيا فلاحاً راجعاً من عمله.

كان الرجل جسيماً شديد الضخامة فيسرع الأعرج ليختفى من خلفه ويصرخ:

- انقذنى.. انقذنى إننى رجل كسيح عاجز.. سوف يقتلنى الأعمى.

وينظر الفلاح إليهما ويحكم أن أولهما مجنون معتوه فيسأله:

- ماذا تقول؟.. كيف تكون كسيحاً عاجزاً بينما أنت تسابق الريح.. وكيف يكون هذا الرجل أعمى بينما هو يطاردك؟

وشرعا يتحدثان معاً فى الحال إلى أن استيقن الفلاح المذهول من صدق قصتهما ويختم الأعرج الحديث بقوله:

- إن هذا الرجل شديد المراس.. إنه شاب خطير.. إن فرخنا يجب أن تلتهمه الكلاب.

ويزعق الأعمى:

- إن هذا الفتى مخادع.. إنه وغد.. لقد حاول أن يخدعنى وأن يقدم إلى ضفدعاً لغدائى.

وراح الفلاح يقهقه فى دوى:

- أعتقد أن بكما «عته» أنتما الاثنان.

ثم يتجه للأعرج فيقول له:

– لقد استرددت القدرة على استعمال رجليك.

ويذكر الأعمى قائلاً:

– وأنت قد استرددت بصرك، وكل ما يمكن أن تقوما به الآن أن تتعاركا على فرخ حقير وضفدعة.

وتهدأ ثورة الغضب عند الرجلين وتنزل عليهما السكينة فيصبحان كالأغنام وداعة، يقول الأعرج:

– إنك على حق.. إننى وأنت لعلى غباء، إننى أعتذر إليك أيها الصديق القديم لأننى حاولت أن أخدعك فآثرت نفسى بالفرخ لأننى كنت أغار منك لأن لك رجلين صالحتين للسير بينما أشكو عرجاً أو ظننت إننى كذلك.

ويرد عليه الأعمى:

– لقد فهمت تماماً.. ومع ذلك فقد كان ذلك خيراً لنا.

ويتصالح الرجلان ويعودان مسرعين إلى القرية يقصان على كل فرد من أهلها ذلك الشىء الفذ العجيب الذى وقع لهما.

لقد كان فى قصصهما عبرة: «ذلك أن خيبة الأمل فى حد ذاتها نعم ورحمات مخبوءة».



البحث عن البوق العاجى

زعموا أنه كان لملك ولدان، وكان هذا الملك غيوراً إلى حد كبير حتى أنه ليغار من ابنه الأكبر لأنه سيكون خليفته وكان يبغض ولده لأن هذا الولد كان مقداماً لا يعبء بشىء، وكان محبوباً فى قومه، كان لهذا الشعور وقع سيئ فى نفس الولد حتى جعله يميل إلى تحدى والده وإلى أن يصبح شخصاً طائشاً مغامراً، ولعل ذلك مما حدا بالشعب أن يزيد تعلقهم بالأمير الشاب.

وكلما ازدادوا حباً له زاد حنق والده عليه، وود الملك لو أن ولده الأصغر كان وارثاً له لأنه كان رقيقاً خجولاً يتوقع منه أن يكون رجلاً عظيماً.. استبدت الغيرة بالملك العجوز حتى عزم أن يرسل ولى عهده فى مهمة يكون فيها حتفه.

وكانت الحرب مشتعلة فى أرجاء المملكة، ذلك أن الملك العجوز كان يرى أنه لكى يبقى هو قوياً، فلا مفر أن تبقى الولايات المجاورة يقاتل بعضها بعضاً وظل يتآمر حتى تحققت غايته.

كانت تقع فى أقصى أطراف مملكته ولاية صغيرة تخضع لحكم هذا الملك العجوز فى هذا المكان، وفى قلعة حصينة من قلاعها كان للملك فيها أثمن ما يملك «بوق عاجى قديم» كان يرمز إلى مثل ما يرمز له التاج للملكية فى إنجلترا.

ويطلب الملك الأمير ثم يقول:

- إننى لأخاف والصراع الدائر على أشده، أن أبقى البوق فى ولاية نائية وأريدك أن تذهب لتنقله إلى هنا، إنه عمل شاق خطير، ولكنى أرى أنك جدير بأن تضطلع به بوصفك خليفتى فإن كنت تخاف على نفسك فسوف أذهب بنفسى لإحضاره.

إن الأمير حتى ولو لم تكن لديه الشجاعة والثقة بنفسه فقد كانت فكرة

الخوف التى ساقها الملك تحفزه لقبول المهمة وتجشم أخطارها:

ويقول الأمير لوالده:

- بالطبع سوف أذهب.

ويقول الملك محذراً:

- لا تنس أن المهمة خطيرة.

ويرد الأمير:

- سوف لا يصيبنا شيء.

ثم ينصرف ليستعد للرحلة.

ورغم أن الأمير لم يكن يخيفه الأمر إلا أن الناس كانوا يخشون سوء العاقبة، لذلك يحاول جمع من كبار عقلاء القوم أن يثنوه عن عزمه، معلنين أن الملك يتآمر عليه، فضلاً عن الأخطار التى تتجم من الوحوش الضارية والجنود الناهبة ولكن الأمير مع ذلك يغضب لقولهم ثم يزداد عزماً على أن يحضر البوق.

إن الاحتياط الوحيد الذى يقدم عليه قبل الرحيل أن يتجه إلى زيارة أكبر نساء القرية سناً فتحذره السيدة العجوز وتطلب منه أن ينصت إلى نصيحتها.

- إذا ما أصبحت فاذهب إلى حظيرة الخيول فسوف تجد هناك حصاناً أبيض اللون خذه ولا تأخذ غيره ودع الحصان يريك الطريق وسوف يقودك إلى مفترق طرق. فإذا ما وصلت إلى هذا المكان فاستعمل هذه العصا.

ثم تعطى الأمير العصا.

- ارفع العصا إلى أعلى وسوف تريك الطريق فامض حيث تشير.

ويلاطف الأمير السيدة ويعدها أن يعمل وفق ما أشارت به ويتساءل الأمير:

- هل هذا كل ما تريدين؟

وتهز السيدة رأسها ثم تقول:

- لا.. إن أباك يعمل لقتلك، غداً إذا ما جن الليل فسوف يعد لك ملجأ فى منزل تأوى إليه وعندما ينتصف الليل سوف يحترق هذا المنزل، اربط حصانك جيداً بعيداً عن هذا المنزل وتظاهر بالنعاس واحتفظ بالعصا فى يدك.

لم يكن الأمير ميالاً إلى أن يأخذ حديثها بشكل جدى ولكنه يعرب للسيدة عن شكره ويعود إلى منزله. وفى الصباح التالى يتجه مباشرة إلى الحظيرة فيجد حصاناً جميلاً أبيض اللون لم يره من قبل ويستبشر الأمير به ويمتطى صهوته ويحرص على أن يحمل عصاه لأنه كان لا يريد أن يسىء إلى شعور السيدة العجوز.

وبينما هو راكب يدهشه أن يرى الحصان يسير على طريق مرسوم كما لو كان يعرف كل خطوة يخطوها فيدعه يسير كما يشاء حتى يصل أخيراً إلى مفترق طرق ثم يقف ويرفع الأمير عصاه بدافع من حب الاستطلاع فإذا هى تنثنى فى يده كما لو كانت كائناً حياً وتشير إلى طريق متجه ناحية الغرب فيتجه الأمير إليه.

ويصل الأمير قبل الغروب بقليل إلى ساحة يقوم فيها عدد من الدور، فإذا فريق من الناس يتدافع لتحيته فى حماس شديد، ويعتقد الأمير أن الذى تحدثت عنه السيدة العجوز حق فيترك حصانه على مسافة من المنزل ويأوى إلى فراشه وفى يده عصاه، وعلى الرغم مما حذر منه الأمير من أن النار سوف تشتعل فى الدار فقد راح فى نوم عميق لم يوقظه منه إلا عصاه التى كان يمسكها فى يده، و هى تتلوى فى عنف ويشم دخاناً يوقظه من نومه فيخرج مندفعاً ويرقب من بعيد المنزل يحترق ثم يذهب ليبحث عن الحصان ليقضى بجواره ما تبقى من الليل.

وفى الصباح يسمع الأمير ضجيجاً عنيفاً فى القرية فيمتطى حصانه ويقفل راجعاً.. كان الناس يتصايحون بالفرح إذ علموا أن الأمير قد فر ولكن لم يكن لينبس بنت شفة. ويسير فى طريقه حتى إذا وصل إلى شاطئ نهر يتوقف الحصان عن عبوره كما لو كان يحس بدنو خطر.

ولكن الأمير يرى أنه لابد من عبوره فإذا به يلسع الحصان بالعصا فيقفز فوق النهر ويجد الأمير أن المنطقة تغص بالحيوانات الضارية والزواحف، ولكن

الأمير لم يعد خطيراً إذ ما لبث أن ولت الأدبار عندما رأت العصا فى يده ويلتقى فى طريقه بعد ذلك بأفعى ضخما قد تكورت حول نفسها معترضة طريقه وما يكاد الثعبان الكبير يرى العصا حتى يظل فى مكانه لا يريم، ثم تحدق فى الأمير وتقول فى دهشة:

- ماذا جاء بك إلى هذا الطريق؟

ويخبر الأمير أن أباه قد أوفده فى مهمة وأنه قد عقد العزم على القيام بها، وأن سيدة عجوزاً قد أعطته عصا وأنها قد تنبأت بأن المنزل سيحترق وكيف أنه فر منه، وماذا فعل بعد ذلك، وتنصت الأفعى إلى حديثه فى شىء من الاهتمام ويقول:

- إنه لشر أن يحكم أبوك الملك بهذه الطريقة وأن يثير الحروب، لماذا يريد البشر الحروب، أليس لأنهم جياع يريدون أن يلتهم بعضهم بعضاً.. أليس كذلك؟

ويجيب الأمير أن الأمر كما قالت:

وتقول الأفعى:

- إذن فالأمر لا يعدو أن يكون حمقاً أو شراً- إننا حين نقتل فإنما نفعل ذلك لنأكل- إننى لأرجو أن تحصل على البوق وأن تصبح حكيماً وملكاً جليلاً، سر فى طريقك تلحظك دعواتى.

ويجد الأمير فى سيره وبعد قليل يرى فهداً يقتفى أثره وتصيبه دهشة حين يرى ذلك، ولكنه يتوقف منتظراً حتى يصبح الفهد على مقربة منه ويصيح الفهد فى حدة وغضب:

- ماذا نفعل هنا فى هذه البقعة من الأرض؟

ويعيد الأمير قصته ويرى الفهد شأنه شأن الأفعى يعطف عليه ويسدى إليه كثيراً من النصائح فيما يتعلق بالرحلة، ويخبر الأمير أنه إذا ما جن الليل فسوف يصل إلى الحصن الذى يقصده، وهنا يحيى الأمير الفهد تحية دمثة وينصرف، وعند الغروب يرى الأمير الحصن الضخم يلوح من بعيد فيشد فرسه ليتفقد المكان.

ويدرك أنه لا أمل له فى أن يدخل المكان بالوسائل العادية، ذلك أن المكان كان يعج بالجنود ويبدو أنهم متريصون كما لو كانوا يتوقعون قدوم أحد، ويخشى أن يكون فى انتظاره لقاء حار، ولكنه فى نفس الوقت يعقد العزم على أن يحصل على البوق العاجى حتى ولو كلفه الثمن حياته.

ويفزع عندما يسمع إلى جواره صوتاً يناديه.

- مرحباً بك أيها الملك الذى سيكون.

وإذا بامرأة مجعدة الوجه تقف أمامه فى حذاء رأس فرسه.

ويتساءل الأمير:

- لماذا تدعوننى الملك الذى سوف يكون؟

وتجيب المرأة:

- لقد سمعت قصتك من صديقتك، وإننى هنا لأمد يد المعونة إليك.

ويدهش الأمير:

- ومن هى هذه الصديقى؟

وتذكر المرأة اسم السيدة التى قدمت له العصا، ثم تستأنف الكلام فتقول:

- إذا ما جن الليل ونام القوم فعليك أن تتبعنى، فاحمل عصاك معك وسوف أقودك إلى مكان البوق.

ويوافق الأمير، إنه ليدرك أنه يخاطر بحياته، ذلك أنه يعلم أنه حتى لو أن المرأة قد رافقته فى سلام داخل الحصن ليأخذ البوق فليس يسيراً أن يتركوه يبرح المكان إذا ما اكتشفوا أن البوق قد ضاع.

ويعرب للمرأة عن شكره وتخفيه فى الغاية حتى يجن الليل، فإذا أظلمت الدنيا تعود إليه وتطلب منه أن يتبعها وطفقا يسيران كالأشباح، ويقفزان من خلف الحصن إلى باب خلفى تلفه الأشجار وإلى دهاليز أرضية تعج الغرفات فيها بالنائمين من الجنود حتى إذا أتيا غرفة ضخمة فيها منضدة يتوسطها ذلك

البوق العاجى العجيب، تهمس العجوز:

- ارفعه إلى شفتيك، وانفخ فيه.

ويحتج الأمير:

- إنه لجنون أن أفعل ذلك.

وتقول المرأة فى عجلة:

- افعل ما آمرك.

ويرفع الأمير البوق إلى شفتيه وينفخ فيه وهو يعلم أن هذا العمل هو أكثر ما فعل فى حياته طيشاً وجنوناً.

كان الصوت يبدو وكأنه يصطدم بالسقف ويرتد إلى جوانب الممرات مردداً صداه على صوت صيحات الجماهير.

ويتقاطر الجنود من كل مكان فى الحصن يتراكضون فى الحجرة ويظن الأمير البطل المعروف أن شجاعته قد خانته فهلك، ولكنه يذهل إذ يرى المرأة العجوز إلى جواره تبتسم وتقول:

- إنهم لن يضروك شيئاً الآن لأنك تملك البوق، استمع إلى الجنود يهتفون جميعاً.. إنهم يهتفون «عاش الملك».

لقد كان هذا فى الواقع حقاً، ويعلم الملك العجوز أن الأمير قد نجا من النار وأن الحيوانات الضارية لم تصبه بسوء وأن بيده تلك العصا السحرية فما لبث أن مات غماً وكمداً.

وتعلم القبائل المتناحرة أن الأمير يتصف بالبطولة، وأنه يمتلك البوق الذى تكن له كل تقدير وإجلال فتسمح له بالمرور فى سلام وأن يعود إلى بلاده آمناً على نفسه ويصبح الأمير ملكاً حكيماً كريماً يصلح بين القبائل ولم تعد هناك حرب فى البلاد بعد ذلك اليوم.



الرجل الذى كان ماهراً أكثر من اللازم

زعموا أن صبياً يدعى «لوبو» كان ماهراً إلى حد أن الناس قد تعارفوا فيما بينهم على أنه أكثر من عرفوا بين الصبية مهارة. وكان الصبى يبدو منذ مطلع حياته قادراً على أن يستوعب كل شىء فى سرعة ضعف غيره من الناس وأن يؤدى العمل دون عناء، كان له عديد من الإخوة والأخوات ولكنهم لم يكونوا على شاكلته فى المهارة على وجه الخصوص.

ومن ثم كان يعامل بوصفه شخصاً ممتازاً، شخصاً متفوقاً على غيره من الناس.

لم تكن أسرة «لوبو» على قدر من الثراء وكان أفرادها يؤدون عملاً شاقاً فى مزرعتهم، وكانوا يقومون بالصيد فى وقت فراغهم، أما «لوبو» فلم يكن يعبأ كثيراً بالصيد، كان يؤثر إعداد الشباك، وكان يقوم بها فى مهارة حتى يندر أن تحتاج الأسرة إلى شىء من اللحم الذى كانوا يقتسمونه مع جيرانهم وكانوا يطلقون على حيوانات اللحم التى تؤكل لفظ «اللعبة» وكلما انقضت السنون كان «لوبو» ينصب كثيراً من الشباك فى البقاع المجاورة حتى أصبحت «اللعبة» نادرة قليلة.

ويشير عجوز حكيم على «لوبو» قائلاً:

- إن أرضنا ليست مكاناً طيباً لصيد حيوان اللحم، فإن لم نقلل من طرح الشباك ونستبدل باللحم شيئاً آخر مؤقتاً فسوف نجد أنفسنا فى حاجة إليها خلال سنوات قليلة، لقد رأيت هذا يحدث من قبل.

وينظر لوبو إلى الرجل العجوز فى ازدراء.. لقد كان يعرف أن ثم (لعباً) كافية لعدة سنوات قادمة، ولم يكن هو بالإنسان الذى ينظر إلى الأمور نظرة سليمة على الدوام أو بالذى يعبأ بما يحدث لغيره من الناس، لذلك فهو يقبل

على عمله ويستمر فى نصب الشباك.

لقد كان ينفق ما بقى من وقته فى رسم مشروعات جليلة بعضها يتصل بالوسائل التى تجعل العميل هيناً ميسوراً وبعضها يتصل بالمستقبل، ورغم ذلك فقد أصبح واضحاً أن جل عمل «لوبو» وآراءه السديدة كانت تعود بالفائدة على نفسه. كان أكثر وقته ينفقه فى إسداء النصيحة لغيره من الناس، أما أقله فكان ينفقه فى أداء عمل لنفسه، ورغم ذلك فقد أثرى لوبو من عمل أو آخر.

كما أصبحت أسرته تنعم بثراء كذلك، حتى جاء الوقت الذى تزوج «لوبو» من ابنة سيد من سادة قريته فقل عمله عما كان عليه من قبل ذلك، إن رؤساء القبائل كانوا يكثرون من عقد المجالس وكان «لوبو» دائماً يشخص إليها فى مثل هذه المناسبات، ولم يكن «لوبو» محبوباً بينهم كذلك، وكان الناس يقولون إنه ماهر أكثر من اللازم، وكانوا فى الواقع يقصدون أنه أنانى يؤثر نفسه وقد كان فى الحقيقة كذلك.

وكلما انقضت السنون ازدادت قلة لحوم الصيد كما سبق أن تنبأ الرجل العجوز الحكيم، حتى إن شباك «لوبو» لم تجد نفعاً كثيراً، وأصبح حصول القرية على اللحم حدثاً هاماً فإن أصابوا شيئاً منه لم يكن ذلك فى الغالب سوى منحة من الرجل الأبيض الذى جاء إلى المكان ليعيش فيه ومعه عدته من البنادق، وكان عمله أن يعنى بالغابة وما فيها من حيوان وكان يشرح لأهل القرية أنه لا يحبذ صيدها أكثر مما يجب خشية أن تختفى منها الحيوانات نهائياً.

إن «لوبو» لم يطق صبراً على مثل هذه الآراء ولو أنه استطاع الحصول على بندقية لنفسه فسوف يصطاد جميع الحيوانات ما وسعه ذلك، ولكنه لم يستطع الحصول على واحدة وكان يخشى أن يسرقها لأن السرقة يمكن أن يقتفى أثرها.

وذات يوم بينما كان «لوبو» يجوب الغابة يتفقد شباكه الخاوية إذ به يقابل رجلاً عجوزاً شريراً كان يمارس السحر الخبيث، وكان هذا الرجل شغوفاً باللحم مثله كمثل «لوبو» يتحسر على أن اللحم قد صار قليلاً نادراً. ويتحدث «لوبو» مع

الرجل ويشتكى إليه فى مرارة من الشباك الخاوية.

- إن الشخص الوحيد الذى يستطيع الحصول على اللحم هو الرجل الأبيض لأن لديه أسلحة من البنادق، فلو أن لى سلاحاً لأمكننى الحصول عليه.

ويتساءل الساحر:

- وماذا يفعل الرجل الأبيض باللحم.

ويزمجر «لوبو»:

- إن كانت قطعة صغيرة فهو يأكلها وإن كانت كبيرة فهو يقطعها أجزاء صغيرة جداً لا تستحق أن تؤخذ من حيث المبدأ.

ويقترح عليه الساحر:

- قد يكون شيئاً مستحباً أن تأخذ اللحم كله لنفسك أو قل لصديقك.

ويوافقه «لوبو» على ما يقول:

- لا شك أنه يكون كذلك، ولكن ليست ثمة فرصة سانحة لذلك، إن الرجل الأبيض غبى ويبلغ غباؤه حداً لا يستطيع معه أن يتصور أن يكون نصيبه كنصيب غيره.

ويقول الساحر:

- فهمت.. ما رأيك فى أن الصيد يختفى بعد أن يطلق هو النار عليه ويصيبه.

ويجيب «لوبو»:

- لا يستطيع إنسان الاقتراب من معسكره، إن عليه حراسة كاملة.. فى الواقع لقد فحصت هذه الناحية من الأمر منذ زمن مضى.

ويقترح الساحر:

- قد يستطيع حيوان أن يدخل إليه.

ويتساءل «لوبو» فى استغراب:

- ماذا تقصد؟

ويرمق الساحر «لوبو» فى خبث:

- إن رغب إنسان ما فى أن يتحول حيواناً، ضبعاً مثلاً فإنه يستطيع أن يسرق اللحم فى سهولة تامة، سيكون عملاً هيناً بالنسبة لشخص ماهر.

ويتساءل «لوبو»:

- تقصد من؟

ويقول الساحر:

- أنت.. إن لم تكن خائفاً.

ويقول «لوبو» مستغرباً:

- تقصد أنك تستطيع أن تقلبنى ضبعاً؟

- أستطيع.. كل ما أطلبه أن يكون لى نصف اللحم معك.

ويقول «لوبو» وقد بلغ سروره حداً كبيراً:

- بالتأكيد.. ولكن هل أنت واثق من أنك تستطيع أن تقلبنى ضبعاً؟

- أستطيع.. وفى المرة القادمة حين يصيب الرجل الأبيض صيداً فتعال إلى مع غسق الليل وسأحولك ضبعاً، وبهذا تستطيع أن تزحف داخل المعسكر إذا ما جن الليل وتسرق اللحم وتحضره إلى وبعدها سوف أعيدك رجلاً مرة أخرى.

ورغم أن «لوبو» كان فزعاً إلا أن الفكرة قد أخذت بمجامع قلبه، لقد كان يقول فى نفسه إن قليلاً من الناس قد يكون لديهم الشجاعة على أن يستسلموا لمحنة كهذه ولكنه ليس كغيره من الناس.. إن لديه عقلاً.

ويقول للساحر:

- أوافق.. فى المرة القادمة التى يصيب الرجل الأبيض صيداً فسوف آتيك.. أين أجدك؟

- على بعد نصف ميل من هنا سوف تجد جزءاً من الغابة كثيفاً مليئاً بالشوك يبدو كأنه كتلة صماء من الشجر المعروش ولكن فى وسطه فضاء صغيراً قد اتخذت فيه كوخاً هناك.

- رائع.

ويقول «لوبو» ذلك فى إعجاب به ويحييه مودعاً.

وبعد يومين يسمع «لوبو» أن الرجل الأبيض قد أصاب غزالاً كبيراً وأنه فى اليوم التالى سوف يقسمه قطعاً.. ويسرع حين تغيب الشمس إلى الساحر فيعثر على ذلك المكان المحدد من الغابة الذى كان الرجل العجوز قد وصفه له، لقد كان فى الواقع مخبأ كبيراً، إن «لوبو» لم يكن ليستطيع أن يلتمس آثار الطريق الموصل إلى المكان لو لم يكن حاد البصر، لقد كان كمن يسير بين أسوار صلدة من أشجار الغابة.

هناك كان الساحر يوقد ناراً عليها قدر يخرج منه بخار وفقاقيع ويوضح له الأمر فيقول:

- لقد سمعت بقدومك لذلك فقد أعددت العدة.. اجلس لحظة من الزمن.

ويصدع «لوبو» بالأمر وفى الحال يغترف الساحر غرفة ذات رائحة نكدة من القدر ويقدمها «للوبو» ويقول آمراً:

- الآن ازدرد هذه.. ثم يتمتم بتعويذات ورقى عجيبة ويزدرد «لولو» الشىء دون أن يعصى أمراً، وفى الحال يحس أن تغيرات غريبة تحل بجسده ويغمض عينيه فى قوة محاولاً ألا يصرخ وبعد لحظة تفارقه تلك الإحساسات الغريبة ويفتح عينيه فيجد نفسه وقد انقلب مخلوقاً كريه الصورة خليطاً من الذئب والكلاب المهجنة.. لقد أصبح فى الواقع ضبعاً.. ذلك الكناس المرذول فى عالم الحيوان.. ويستدير «لوبو» ليلقى نظرة على نفسه ويقول معلقاً:

- لست على صورة يرضى أحد أن ينظر إليها.. ولكننى أعتقد أننى قادر

على أن أضطلع بالعمل.

ويقول الساحر ناصحاً:

- بالتأكيد سوف تقدر.. من الخير أن تنطلق الآن فتتجول فى الغابة قليلاً لتتعود على رؤية صورتك.

ويسعى «لوبو» فى الغابة، وما أن يجد نفسه قد اعتادت الإحساس بالسير على أربع بدلاً من رجلين حتى يشعر بأن التجربة ممتعة، كانت كافة الحيوانات الليلية الصغيرة تزحف من حوله ولكنها لم تعر «لوبو» اهتماماً فالضباع لا تصطاد أبداً ولكنها تسرق لحوم الحيوانات التى يقتلها الآخرون، والحيوانات تعلم ذلك ولا تخشاهم، كان هذا كفيلاً أن يعيد الثقة إلى نفسه لولا أن «لوبو» يذكر أن بعضاً من الحيوانات الكبيرة كانت قد صرعت ضبعاً.. من أجل هذا فهو يسعى متذرعاً بأقصى ما يستطيع من حذر ويتخذ سبيله إلى أعلى الطريق الرئيسى ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ويرى «لوبو» أن تجوله حول القرية نوع من المزاح لذلك فهو يمرق فى مهارة من ظل إلى آخر حتى لا يلحظه أحد، ومن سوء الطالع أن القولة المأثورة التى تقول إن المتسمعين لا يسمعون عن أنفسهم خبراً يصدق عليه، ذلك إنه لم يمكث بعيداً حتى سمع قرويين يتجادلان: فيسأل أحدهما الآخر:

- أين «لوبو» هذا المساء؟

- يحتمل أن يكون قد خلا إلى نفسه فى مكان ما يفكر فى مشروع رائع يعود بعمل كثير علينا وبقليل على نفسه.

ويقول له الآخر:

- هيا الآن.. يجب أن نقرَّ بأن أكثر آرائه صائبة.

- أجل.. لكنها صائبة بالنسبة «للوبو» إن أحداً غيره لا ينال من ورائها خيراً.

- ربما.. ولكن على كل حال فهو إنسان ماهر.

- ماهر جداً.. إن سألتنى رأيى.

وينزعج «لوبو» عند سماعه الحديث ويهمهم فى سورة من الغضب.. ويتعجب أحد الرجلين فيقول:

- ما هذا؟!

- آه.. إنه واحد من تلك الضباع البشعة التى تحوم حول المكان لترى إذا كانت تستطيع أن تسرق شيئاً.

ويمسك بحجر فيقذفه فى دقة وإحكام كاملين حتى يصيب «لوبو» فى أذنه إصابة تثير كامن غضبه ولكنه لا يجد شيئاً يفعله سوى أن يقفز فى الغابة بخطى واسعة فيتخذ سبيله مستأنياً وحذراً إلى حيث يعسكر الرجل الأبيض، وهناك يشرع فى التجسس حول المكان.

كانت الخيام محوطة بسياج كثيف من الشوك لا يستطيع أحد من الناس أن ينفذ إليها ولكن ضبعاً واحداً يمكن أن يدخل من خلالها، كانت جذوة النار قد بدأت تخبو ولكن «لوبو» لاحظ أن الصبية قد راحوا يكدسون فروع الشجر فوقها ورقدوا ليقضوا ليلهم من حولها.

ويبزغ- بعد وقت قصير- من الخيمة الأخرى النور ويستقر الرجل الأبيض لينام وينتظر «لوبو» وقتاً طويلاً ثم ينقلب فى صمت من بين السياج الشوكى مستلقياً على الأرض ومتخذاً سبيله كالظل إلى حيث يقع المطبخ وهناك يجد غزالاً جميلاً معلقاً، ويتسلق «لوبو» إلى السقف ويرخى الغزال من خطافه فيسقط على الأرض، لم يحدث صوت سقوطه دوياً عالياً فلم يستيقظ أحد على أثره ويبدو «لوبو»- مستأنياً حذراً فى القيام بأصعب عمل فى واقع الأمر وهو أن يسحب الغزال نحو السور فى هدوء تام ما استطاع إلى ذلك سبيلا.. كان عليه أن يقوم به متئداً دون أن يحدث ضجيجاً.

وكان «لوبو» يهنئ نفسه على قوة جلده واحتماله.. إن جذبة واحدة فى غير اكتراث وحذر قد تودى بكل شىء، كان الليل حالكاً مظلماً لحسن حظه وكان

«لوبو» يمضى مسرعاً لا يخشى أن يفتضح أمره مادام لا يحدث صوتاً ما، وما يكاد يجر الغزال إلى حافة الأشجار الشوكية حتى يصير الأمر بطبيعة الحال أكثر تعقيداً وعسراً، وكان إحداث الضجيج أمراً لا مفر منه، ولكنه بعد أن يطوى نفسه ويسحب الغزال معه فى بطء لم يحدث إلا صوتاً خفيضاً لا يوقظ أحداً.. وما يكاد يخرج حتى بدا أكثر جراة.. وما أن وجد نفسه على مرمى السمع حتى انطلق يعوض من الوقت ما ضاع من قبل ويصل مع منتصف الليل إلى كوخ الساحر ساغباً لاغباً يتصبب عرقاً.

ويسر الساحر حين يراه وفى لحظات يعيده رجلاً مرة أخرى ويأخذان فى سلخ الغزال وطبخه على نار كبيرة مستعرة، فكان لهما طعاماً زكياً فى يومهما وعشاء فى الليالى التاليات مما تبقى من الغزال بعد ذلك، وتستشرى أنباء السرقة فى القرية فى الصباح التالى ويضطرب الرجل الأبيض وخدمه أشد الاضطراب، لقد شاهدوا آثار أقدام حيوان وأيقنوا أن لصاً من ذوات الأربع قد سرق الغزال، وأن أهل القرية قد أصابتهم خيبة أمل لأنهم لا يجدوا لحماً، ويبذل الرجل الأبيض لهم الوعد أن يحكم الرقابة فى المرة القادمة حتى لا يسرق اللحم.

ولكن السرقات خلال الأسابيع التالية تستمر ويرسم «لوبو» مختلف الوسائل ليحبط الاحتياطات التى اتخذها الرجل الأبيض، لقد أصبحت مباراة شيقة مثيرة أن يقارع بحصافته ذكاء الآخرين، كان يرى أنه حقيق أن يأخذ اللحم إن استطاع أن يصل إليه بذكائه ومهارته، وكان طبيعياً أن يسنده الساحر، وكان مما جعل عمله أكثر يسراً أن كان فى وسعه فى الغالب أن يعرف مقدماً وسائل الحيطة التى تكون قد أعدت للمحافظة على اللحم، ذلك إنه كان من اليسير عليه التحدث مع الصبية من الخدم فيكشف ما يجرى هناك على وجه التحديد.

وفى هذه الأثناء يحتار الرجل الأبيض أشد الحيرة فلم يعد يدرك كيف أن حيوانات تبلغ بها المهارة حد الإفلات من كافة وسائل الحيطة وتفادى الشباك المعدة لها، ويبدأ الرجل الأبيض يتساءل: إذا كان ثم بشر وراء هذه السرقات

ويؤمن بالفكرة التى تقول إن بعض الناس قد دربوا كلباً على أداء هذا العمل. من أجل هذا فإن الرجل الأبيض يعقد العزم على اتخاذ إجراءات صارمة لم يطلع أحداً عليها.

وفى هذا اليوم يذبح غزالاً صغيراً ويعلقه إلى جوار خيمته الخاصة ويقرر أن يظل طيلة الليل ساهراً، وقد أمسك فى يديه سلاحه، ويصل «لوبو» مبكراً يتحسس المكان ولكنه لم يلحظ شيئاً غير عادى، إلا أن غزالا قد علق قريباً من فراش الرجل الأبيض، ولكن ذلك لم يقلقه كثيراً، لقد كان هذه المرة واثقاً من نفسه أشد الثقة، حتى إنه كان مستعداً أن يخاطر بكل شىء إلا بالموقف الحقيقى الذى لا يعلم شيئاً عنه، لقد رأى الضوء بازغاً ولكنه لم يكن يعلم أن الرجل الأبيض قد ثبت فى فراشه دمية، وأنه كان يربض على قيد خطوات من الغزال المعلق وسلاحه فى يده.

ويتخذ «لوبو» سبيله داخل الأشجار الشائكة دون جلبة وعلى جهل مطبق منه ويزحف مستأنياً إلى البقعة التى علق فيها الغزال، وما يكاد يمسكه بفمه حتى يحس بحركة صادرة من الرجل الأبيض الذى كان يرفع بندقيته ليصوبها، وإذا بومضة خاطفة يحس «لوبو» أثرها فى ألم لاذع فى منكبه فيستدير هارباً، وحتى هذه الآونة لم يفقد سرعة خاطره تماماً فيشرع فى تحاشى الأماكن من الأرض الساطع ضوؤها ويجرى بين الظلال وكان على قدر كبير من الذكاء بحيث لم يتجه إلى المكان الذى دخل منه وإنما إلى مكان آخر يؤمه أيضاً.

وتترى الطلقات وراءه بينما كان يجرى فى اتجاه السور حتى يصل فى سلام إلى الغابة دون أن يظفر به أحد، لقد كان خيراً أن قد أصيب إصابة بالغة فى منكبه، وإذا به يعرج إلى الساحر متألماً لينبئه بقصة فشله لأول مرة.

وينزعج الساحر أشد الانزعاج حين يسمع ما قد حدث، الأمر الذى لم يستطع أن يفهم له معنى حتى يعيده رجلاً كرة أخرى.

فيقول «للوبو»:

- إنه موقف بالغ الخطورة.. إذا انكشف الأمر فإننى سأنفى نتيجة للدور الذى اضطلعت به.

ويتساءل «لوبو»:

- وماذا عنى.. إن القوم سيغضبون أشد الغضب حتى إنهم سيقتلوننى.

ويوافق الساحر الذى يقول:

- هذا حق.. يبدو أن ثم شيئاً واحداً ينبغى عمله.

ويتساءل «لوبو»:

وما هو:

- سأقوله لك فى خلال دقيقة من الزمن.. اشرب هذا وستشعر أنك أحسن حالاً.

ويقدم له الساحر كأساً يحتسى ما فيها. وفى الحال يتحول إلى ضبع مرة أخرى، ويدهش «لوبو» ويغضب وتصدر منه نبرات الاحتجاج ويقول له الساحر:

- ليس ثم شىء أستطيع عمله سوى هذا.. إنك لن تستطيع أن تجد تعليلاً لهذا الجرح الناتج عن الطلقة حتى إذا سمحت لك بالبقاء هنا، وأفلحت فى علاجك ولكنك ستشفى سريعاً وفى سهولة إن بقيت ضبعاً وسوف لا يسعى أحد لقتلك مادمت تتفادى الرجل الأبيض، كذلك سوف لا تقوى على الكلام وهو أمر مرغوب فيه من وجهة نظرك ونظرى.

ويزمجر «لوبو» فى حنق ويحاول الهجوم على الساحر، ولكن منكبه كان يؤلمه أشد الألم حتى لم يعد قادراً على أن يفعل شيئاً ويجلس متجهماً عابساً ويقول له الساحر:

- هدئ من روعك.. إنك ستجد أن لحياتك وأنت فى صورة الضبع جوانبها الطيبة.. إنك إن قمت بعملك كناساً ماهراً فستأخذ حظك من جمع اللحم الموجود دون أن تؤدى عملاً.. والآن دعنى أرع جرحك.

ويأخذ الساحر فى رعاية جرح «لوبو» ثم راحا فى سبات عميق حتى مطلع الشمس وإذا بأصوات قوم يقتحمون طريقهم فى الغابة توقظهما من سباتهما وقبل أن يتحركا يدخل الرجل الأبيض إلى الساحة ويصرخ:

- انظروا.. إننى على صواب.. لقد كنت أعرف دائماً أن ثم حيواناً مدرباً كان يسرق اللحم.. إن دمه قد أرشدنا إلى هنا.. إلى شخصه وإلى صاحبه.

وقبل أن ينهض الساحر المذعور كان الخدم قد قبضوا بأمر من الرجل الأبيض عليه، غير أن «لوبو» كان أسرع منهم فاندفع كالسهم إلى شجرة شائكة ثم إذا به يتلوى فى سيره ملتمساً حريته، وإذا به يصل إلى الطريق فيقفز إلى الجانب الآخر من الغابة ولا يتوقف إلا حين يضطره جرحه أن يستريح.

لقد مرت به أيام شداد قبل أن يندمل جرحه لأنه كان لا يجد غير قليل يأكله فإذا به يصبح بعد أن يشفى من علته كناساً مشهوراً ولصاً، ومع ذلك ما كان يضيره كثيراً أن يبقى ضبعاً، لقد كان يضيره كثيراً أن يعرف الناس شيئاً عن قصته ولكنهم لم يعرفوا.. لقد أصبح بين فصيلة الضباع الزعيم الأول لهذه القبيلة ولم يفتقد أحداً من أسرته أو أصدقائه لأنه كان محباً لنفسه إلى أبعد حد، أما الساحر فقد ألقى به فى غيابات السجن، وكلما فكر «لوبو» فى الأمر ضحك، كانت ضحكته مدوية كريهة.. إن جميع الضباع تطلق ضحكات كريهة، ولكن ضحكات «لوبو» كانت أكثر نكراً من غيرها، لذلك فإنك إن ذهبت إلى إفريقية واستمعت على الأخص إلى ضبع يضحك فى مجاهلها الموحشة ليلاً، فلابد أن يكون هو «لوبو» يفكر فى الساحر الذى يرقد مسترخياً فى سجنه معانياً السقم والذبول.



صياد السمك

فى بعض الأصقاع من إفريقية يكسب الناس قوت يومهم عن طريق صيد الأسماك فى الأنهار العميقة، زعموا أن أخوين تركا منزلهما فى الغابة وأخذا يسيحان حتى أتيا مكاناً وجدا فيه صيداً كثيراً من الأسماك، ويحب الأخوان هذه الحياة ويقرران أن يستقرا فى هذا المكان، وأن يتعلما صيد السمك.. وتربطهما الصداقة فيما بعد برجل عجوز وابنته.. كانا يعيشان بالقرب من هذا المكان وكانت الفتاة جميلة دائبة فى عملها ويقع أخيراً الأخوان فى عشقها إلا أن الفتاة لم تستطع أن تقرر أيهما تتزوج ولكن جدتها تقول لها ناصحة:

– تزوجى بأفضلهما صيداً للأسماك.. كلا الشابين غريب عنا ولا نعرف عنهما إلا القليل.. انظرى أيهما يصطاد أكثر من غيره سمكاً خلال الأسابيع القليلة القادمة.. اتركى كلا منهما يبحر ليصطاد وحده دون أن يساعده أحد وبعدها نستطيع أن نرى أيهما يفضل الآخر.

وتفكر الفتاة فى الأمر ملياً وترى أن الخطة على الأقل قد تمنحها الوقت لكى تقرر أيهما تحب أكثر من الآخر، ذلك أن كلا الشابين كانا على درجة من الوسامة والمهارة بحيث لا تستطيع أن تختار أيهما وتخبر أباها بما قد اقترحته جدتها ويخبر الوالد الشابين بأن ابنته سوف تتزوج أفضلهما صيداً للأسماك.

كان أكبرهما يدعى «سوكى» أما أصغرهما فكان يدعى «كانا» ويتفقان على أن رأى الفتاة سليم إلى درجة كبيرة، وأنهما سوف يبذلان جهدهما فى صيد أكثر ما يمكن من السمك.. وفى الصباح يتخذ كل منهما طريقاً فى البحر مختلفاً عن الآخر، ويعود «كانا» فى منتصف النهار بصيد رائع من الأسماك.

فتسأله الجدة:

- هل أديت صيدك فى يومك هذا؟

ويجيبها «كانا»:

- نعم.

- هل قطعت لى بعض الأخشاب.

ويقول «كانا»:

- بالتأكيد.. سأحاول أن يكون لدى وقت لذلك.

وينطلق «كانا» ليقطع الخشب ويؤدى بعدها أعمالاً أخرى حتى تخف الحرارة اللافحة ويعود «سوكى» فى المساء مكدوداً كما يبدو عليه ومعه حمل وفير من السمك ويقول والد الفتاة:

- لقد أضعت يوماً بأكمله.

- هذه هى الطريقة التى أعمل بها.

وتتوالى الأيام ويعود «كانا» مبكراً ومعه حمل من السمك ويعود «سوكى» متأخراً يحمل آخر وكان يبدو مكدوداً دائماً بعد يوم طويل من العمل بينما يبدو «كانا» نشيطاً مرحاً، ويقول الأب:

- حسنٌ.. إنه من اليسير أن نقول أيكما أحسن عملاً، إن «كانا» يخصص ساعات قليلة للعمل مثله فى ذلك مثل الفراشة التى لا تستطيع أن تبقى فى مكان واحد ردحاً طويلاً من الوقت. إن «سوكى» هو العامل الحقيقى.

وتعلق الفتاة:

- انظر كيف أن «كانا» يساعد غيره، إن «سوكى» يقوم بعمله صياداً فحسب.

ويقول الأب مؤكداً:

- هذا ما ينبغى أن يكون. إن «سوكى» مثال للعامل المثابر الثابت.

وتحتج الفتاة:

- لكنه لا يصيد أسماكاً أوفر عدداً من «كانا».

ويجيبها الأب:

- إن الشاب المسكين لسيئ الحظ، إنه يضطرب كثيراً فيفزع السمك منه، فإذا ما تزوجت منه فستجدين أن نصيبه من صيد السمك قد تضاعف.

وفى هذه الأثناء تستيقن الفتاة أنها تؤثر «كانا» زوجاً لها إذ رأت فيه أكثر مما رأت من «سوكى» ولكنها كانت تضطرب أشد الاضطراب حين يبدو «كانا» كسولاً طائشاً بالقياس إلى أخيه.. وذات يوم يصل «كانا» مبكراً كما اعتاد أن يفعل وتقرر الفتاة أن تتحدث معه فتقول له:

- إنك لتعلم أننى أتوقع منك عملاً متواصلاً حتى أرضى بك زوجاً.

ويجيب «كانا»:

- إننى أعمل كما تعودت أن أعمل، إنك لا تحبين بالتأكيد أن أخدعك بجهود زائفة أقوم بها.

- لا أعنى ذلك، ولكن لماذا لا تمكث أكثر مما تمكث لكى تعود حاملاً مزيداً من السمك.

ويقول «كانا»:

- إننى أعود دائماً ومعى حمل كامل، وإن مجيئى بأكثر منه جهد ضائع لا فائدة منه.

كان حديثه معها مقبولاً ولكن الفتاة لم تكن لتقتنع به.

وتلاحظ الفتاة:

- إن أبى يعتقد أن «سوكى» أفضل منك عملاً.

ويتساءل «كانا»:

- وما رأيك أنت فيما يقول.

وتجيب الفتاة:

- أخشى أن يكون ذلك هو الحق.

ويقبل «سوكى» مكدوداً يائساً ويشغل كل واحد من حوله ليعد له طعامه، ويرى أنه يقضى المساء فى دعة، بينما يشارك «كانا» الناس فى الرقص والغناء حول النار وينزعج الأب لهذا أكثر مما كان من قبل ويقول لابنته:

- حسن.. إننى لمسرور أن وضعت هذين الرجلين موضع الاختبار ولم أستغرق وقتاً طويلاً لأستوثق أيهما يفضل الآخر.. عندما ينتهى الحصاد فسوف تتزوجين «سوكى».

وتغضب الفتاة لأنها كانت تحس أن «كانا» يعمل القليل من أجلها، فإن كان راغباً حقاً فى الزواج منها، فقد كان عليه بالتأكيد أن يواصل العمل أكثر مما يعمل ليثبت أنه أحسن العاملين أنها لا ترغب فى الزواج من «سوكى».

وإذا هى تحاور جدتها:

- هذا جميل لدى أبى.. ولكننى لا أظن أن زواجاً من رجل يعمل من الصباح حتى المساء ثم يأوى إلى داره مكدوداً لا يقوى على التحدث أو الغناء يمكن أن يكون مصدر سكينة وسرور.

ولكن جدتها تسألها:

- إذن أنت فى الواقع ترغبين فى الزواج من «كانا».

وترد الفتاة فى عجلة:

- بالطبع لا.. إنه يظهرنى بمظهر مضحك.

وتخفى جدتها بسمة بدرت منها وتمسك عن الكلام فى هذا الأمر ولكنها فى صباح اليوم التالى وبعد أن ينصرف الرجلان إلى الصيد كما اعتادا كل يوم تعرض عليها اقتراحاً.

- لماذا لا تزورين «سوكى» إنه شىء يبعث على السأم أن يبقى طيلة اليوم وحده، احملى إليه بعض الطعام واذهبى إليه لعل ذلك يتيح لك فرصة أفضل للتعرف عليه، ليكن تسالك إليه ضرباً من المفاجأة اللطيفة له وقد تجدين فيه شخصاً يختلف عما تظنين.

لم تكن الفتاة راغبة فى القيام بهذه المحاولة أولاً، ولكنها عقدت العزم على الذهاب وقد بلغ منها الجهد فى التفكير فى الأمر حداً جعلها تشعر أن من الخير أن تفعل شيئاً.. لذلك فهى تلف بعض الطعام ثم تنطلق إلى المكان الذى يسعى «سوكى» للصيد فيه، كان الطقس شديد الحرارة وكانت النفس تضيق به، وكانت تشعر بالأسف أن تقوم بمثل هذه المهمة ولكنها تواصل السير، فترى من بعيد نهراً وتقبل فى دعة وهدوء إلى البقعة التى تتوقع أن تجد «سوكى» يصطاد السمك، وتصيبها الدهشة حين تلمح بعض الشباك ملقاة على الأرض وتنظر مرة أخرى فتشاهد شبحاً نائماً تحت شجرة فتأخذها الدهشة ولكنها تظن أن «سوكى» قد استلقى لينال قسطاً يسيراً من الراحة فتأوى إلى الظل لتستريح كذلك وتمضى الساعات ويصحو سوكى من نومه أحياناً ثم يتثاءب ويتمطى أحياناً أخرى، وينظر إلى الشمس ثم يروح فى نومه مرة أخرى، وأخيراً يفيق عندما يميل قرص الشمس بعد الظهيرة ويسعى إلى شباكه ويبدأ الصيد، وتقف الفتاة على قدميها دون أن تنطق بكلمة واحدة وتتسلسل راجعة من حيث أتت، وتعود إلى الدار حيث كانت جدتها تراقب مجيئها وتسألها:

- هلا فاجأت «سوكى».

وتجيب الفتاة:

- لم أقترب منه إطلاقاً.. أرجو ألا تقولى شيئاً.

ويعود «سوكى» إلى الدار متأخراً قليلاً ويبدو كما هى العادة- مكدوداً ومعه حمل ثقيل من السمك. أما «كانا» الذى عاد من عمله من ساعات بعد أن أدى أعمالاً مختلفة عجيبة فلم يبد تعليقاً.

وتسأل الفتاة «سوكى»:

- هل قضيت يوماً شاقاً يا «سوكى»؟

ويومئ سوكى برأسه موافقاً.

- إن حياة الصياد ليست هينة، لم يكن حظى مثل حظ «كانا».

ولكن الفتاة تقول وهى تنصرف عنه:

- إننى لأتساءل أهو الحظ؟

وتغضب الفتاة من الطريقة التى كان «سوكى» يخدعهم بها وتصمم على أن تفضح أمره لكسله ونفاقه وتخبر جدتها فى اليوم التالى، بأنها سوف تزور «سوكى» فى الحقيقة وتعد الطعام مرة أخرى وتنطلق إليه وتتسلل ثانية إلى البقعة التى يصطاد فيها، ومرة أخرى تشاهد «سوكى» يغط تحت الشجرة بينما تمتد شباكه فى استرخاء وتعود إلى جدتها وتخبرها الحقيقة وتقول:

- أريد منكما- أنت وأبى- أن تذهبا معى فتشاهدا بنفسكما وإذ ذاك سوف ينتهى هذا الزعم.

ويصغى الأب إلى القصة ولا يستطيع لها تصديقاً، ويلح فى أن يلتمس لموقفه تفسيراً، ولكن الفتاة تذكره بأنها قد راقبت سوكى ساعات فى اليوم الذى انقضى وأنه لم يؤد عملاً ما.

ويقترح الأب:

- ربما كان يشكو المرض.

وتقول الابنة فى تهكم:

- ولهذا فقد تناول عشاءً خفيفاً مما يأكل الرجل الذى يحس المرض.

ويقول الأب شاكياً:

- لا أحب مع ذلك.. التجسس عليه.

وترد الفتاة عليه:

- هراء.. إنه ظل يخدعنا أسابيع.. تعالوا بنا.

وتتقدمهما إلى الغابة حتى إذا تراءى النهر لهم تشير إليهما الفتاة بالسير على مهل وحذر وينظرون من خلال أغصان الأشجار فتتراءى لهم تلك الصورة التى بدت للفتاة من قبل: الشباك ملقاة على شاطئ النهر وسوكى يغط فى نومه.

وتهمس الفتاة:

- ماذا أقول لكما؟

ويقول الأب محتجاً:

- إن الرجل لخليق بأن ينال قسطاً من الراحة.

ولكن الفتاة تقول:

- لقد كان يستريح منذ مطلع الصبح وسيظل فى راحته حتى الظهيرة إذا ما كان لكما أن تراقباه.

وتطلب الفتاة من الآخرين الرقود والانتظار، وكلما تغفو عيونهما توقظهما الفتاة مرة أخرى ومع ذلك فلم يغير هذا الموقف من حدة شعورهما، وإن كانت قد صممت على أن يعرفا كيف أن «سوكى» كان يخدعهم جميعاً.

ويصحو سوكى بعد عدة ساعات وينظر حوله إلى الشمس ثم يدلف إلى عمله فيجمع بعض السمك من شباكه، ويجد أن حمله قد أصبح- إلى حد ما- ثقيلاً فيقذف ببعض السمك فى النهر ويأخذ طريقه إلى القرية فى خطى وئيدة، ويسرع الثلاثة عائدين إلى الدار من طريق جانبى قبل أن يصل «سوكى» ويعدون النار فإذا به يصل إلى القرية ويلقى بنفسه متهالكاً وتقول له الجدة:

- أرجو أن تحضر لى بعض الحطب وقوداً للنار يا سوكى.

ويتنهد سوكى:

- لقد لقيت فى يومى عملاً شاقاً.. لا يقوى عليه «كانا».

ويقول «كانا»:

- ها هو الحطب.

ويلقى به «كانا» أمامها على الأرض.

وبعد العشاء يصرح الأب أن لديه حديثاً يريد أن يقوله:

- لقد كنتما تصيدان السمك لأسابيع انقضت وإننى لأشعر أن الوقت قد حان لكى أعطى كلمة القبول لمن يتزوج ابنتى.

وتلوح ابتسامة على ثغر «سوكى» وينظر إلى «كانا» فى نشوة الظفر وإن كان يتظاهر بالتواضع.

- أخشى أن تجدوا أن قراركم النهائى عسير.. إننى أعلم أن أخى لا يصمد فى عمله كما يجب ولكنه سريع ماهر، وعلى العكس إننى لا أدعى لنفسى المهارة ولكننى أحب أن أؤدى عملى إلى نهايته وأن أستمر فيه حتى أنجزه.

وتصيح الفتاة فى غضب:

- غش.

ويرمقها «سوكى» فى دهشة:

- ماذا تعنين بهذا؟

- أقصد أننى لا أريد أن أتزوج منك برغم هذا.. إننى بعدما شاهدت أمس واليوم أوقن أنك رجل كسول ومخادع كذلك، فقد ذهبت لزيارتك أمس.

وتقول الجدة فى شىء من الدهاء:

- ذهبت لتقدم إليك مفاجأة.

وتستأنف الفتاة الحديث:

- إننى أنا التى تلقيت المفاجأة.. ذلك أننى شاهدتك تنام طول اليوم تقريباً وأنك تعمل ساعة من النهار أو ما يقرب من ذلك وبعدها تعود مدعياً أنك متعب.

ويستغرب منها ذلك فيقول:

- كيف تقولين مثل هذا، لو صدَّق أبوك وجدتك هذه القصة لكان ذلك أمراً نكراً.

وتقول الجدة:

- لقد شاهدنا ذلك بأنفسنا، لقد ذهبنا جميعاً لزيارتك مرة أخرى اليوم.

ويغضب «سوكى» غضباً شديداً محاولاً تبرئة نفسه ولكن دون جدوى ويتفق الأب مع ابنته على أن «كانا» هو الرجل اللائق الذى تتخذه زوجاً لها، وتوضع الزينات ليوم العرس ويسخط كل من فى القرية على «سوكى» إلى حد أنه كان يرحل إلى الشاطئ ليعمل عملاً أكثر مشقة مما كان يفعل من قبل ليكسب قوته.

وفى كل يوم نقابل فيه إنساناً مشغولاً بعمله ولا يتسع وقته لمساعدة غيره لابد أنه يذكر قصة «سوكى» وصيد السمك.. فليس كل من كان مشغولاً عن الناس بعمله هو أكثرهم أداء له.



الأخت المفقودة

جثمت «زارا» على حافة الشجرة وراحت ترنو ببصرها إلى المدينة وإلى البيت الكبير الذى تعيش فيه شقيقتها، لقد وجدت أختها «ميزيا» أخيراً، لقد انقضت ست سنوات قبل أن تراها وفى أثناء ذلك وقعت أمور كثيرة، لقد كانتا تحملان الماء من النهر- كان عمر «زارا» تسع سنوات وكانت فتاة صغيرة ذات مظهر جذاب وعينين نجلاوين ووجه صبوح وجسم نحيل، ولم يكن ينظر إليها أحد نظرة إعجاب، ولكن الجميع كانت تعجبهم الأخت الكبرى «ميزيا».

لقد كان الجميع يتكهنون «لميزيا» بزيجة هنيئة، فمن المؤكد أن تتزوج أى فتاة جميلة مثلها رجلاً جليلاً، لقد كانت أمها فخورة بابنتها الكبرى لقد كانت هى أثيرة عند كل إنسان.

تذكرت «زارا» مقدار ما كان يغمرها من سعادة فى ذلك اليوم الذى راحا فيه يحملان الماء- إنها كانت وليمة تعد فى ذلك اليوم جمعت أنواع الطعام وكانت القرية كلها تستعد لها فى بهجة وسرور حتى نزل النخاسون إلى القرية فى صوت كقصف الرعد، لقد كانت القرية- حتى لحظات- سعيدة تغمرها أشعة الشمس بينما الفتيات يحملن جرارهن المليئة بالماء، ولكن ما هى إلا لحظة أو أخرى حتى امتلأت بأشباح متصايحة مصطرخة- وقفت الفتيات مأخوذات وقبل أن يتحركن كان قد أحيط بهن من كل مكان، لم تكن زارا لتذكر غير شىء قليل جداً مما حدث بعد، لقد كان.. ثم قتال ودماء مراقة ولكنها وأختها قد سحبتا إلى كوخ حيث أوثقتا وطرحتا أرضاً.

وفى المساء استأنف النخاسون مسيرهم مع الأسرى وظلوا على ذلك أياماً وليالى كثيرة ثقيلة دون أن يستريحوا قليلاً فى أقسى الساعات القائظة فى النهار، حتى أتوا على مدينة كبيرة فألقوا بالفتاتين فى كوخ مقيدتين فى

الأغلال.

وتقول زارا وهى تبكى بمرارة:

- هب أننا افترقنا، إنك جميلة جداً ومن المؤكد أنك سوف تجدين من يبتاعك ويرحل معك، وقد تعيشين فى قصر مشيد، ولكن من الذى سيرغب فى ابتياع فتاة مثلى صغيرة دميمة.

وتسرع «ميزيا» فتخرج تميمة كانت تلبسها حول عنقها وتقول لزارا:

- خذى هذه معك حتى إذا ما افترقنا يوماً فسوف أحاول أن أبعث إليك بكلمة حيثما كنت، ومهما يحدث لك فإنك لابد سوف تهربين وسوف تلتقين بى، البسى هذه التميمة حتى أستدل عليك، ذلك أنه إذا انقضت السنون فسوف تكبرين وتتغير ملامحك ومهما حدث من أمر فسوف لا أنى عن محاولة اقتفاء أثرك أيتها الأخت الحبيبة.

وفى الصباح التالى تتحقق أسوأ مخاوف «زارا» وتؤخذ الأختان إلى سوق النخاسة ويتنافس المزايدون على شراء «ميزيا» وأخيراً يقتادها عجوز عابس الوجه.

وتهمس إحدى الجوارى فى أذن «زارا»:

- إنه يشترى الجوارى للسلطان الذى يحكم هذه البلاد شمالاً، إن «ميزيا» لذات حظ موفور، إنها قد تصبح أثيرة عنده.

وتهمس «زارا»:

- وكم أتمنى لو ابتاعنى كذلك.

وتضحك جارتها ضحكة قصيرة:

- إنه ليبتاع الفتيات الفاتنات.

وتقف «زارا» ووجهها بين يديها باكية، ويستمر البيع حتى إذا أوشك على

نهايته كانت «زارا» من نصيب صانع عجوز ينسج الطنافس، لقد أدركت أنها بذلك قد وقعت بين أسوأ يدين، كان هذا الرجل العجوز يمتلك عديداً من الجوارى من مختلف الأعمار لقد كان عليهن أن يعملن عملاً شاقاً ولكن لم يكن ليعاملهن معاملة سيئة، لقد أصبحت «زارا» بعد قليل عاملة نسيج ماهرة.

وفى ذات يوم يفد على السوق من أقصى الشمال تاجر يروى قصة عجيبة، فما كانت زارا تتخلف يوماً عن السوق، ذلك أنها كانت تعلم أن السوق مكان لتداول الأنباء وأنها لابد يوماً ما سامعة أنباء «ميزيا» وأخيراً تجزى على صبرها.

كانت قصة التاجر تقول إن الجارية ميزيا قد تزوجت ابن السلطان، وأن جميع البلاد تعج بالاضطراب، وأنه ليندر فى الواقع أن يكون لجارية مثل هذه الحظوة التى خلعت عليها، لقد كان هذا راجعاً- بكل تأكيد- إلى جمالها الساحر وشعورها الرقيق؛ وتحاول زارا فى شىء من الجد، أن تتعرف السبيل إلى هذا المكان القصى الذى تعيش فيه أختها، إن هذا سوف يقتضيها شهوراً عديدة إذا وفقت إلى الفرار، إنه عمل شاق ولكن عقوبة الفشل فيه هى الموت، إن السبيل قد يكون يسيراً لو أن «زارا» المسكينة كانت تملك مالاً أو جواهر تستطيع بها أن ترشو بعض الناس الذين يساعدونها ولكنها لا تملك شيئاً، فعليها إذن أن تعتمد على فطنتها.

وتروح زارا خلال الأسابيع التالية تخفى بعض الطعام، وفى ليلة والناس نيام تسللت تحمل معها لفافتها- لقد اقتضاها ذلك وقتاً طويلاً لتختفى فيه عن العيون، ذلك أنه يبدو أن الناس يضطربون فى كل مكان كشأنهم فى الغالب فى المدن العامرة، وما تكاد زارا تطمئن إلى أنها فى الخلاء حتى تستيقن أن أحداً لم يرها، وتجد نفسها مع فلق الصبح تمرق بعيداً بين الأحراش حتى تختفى بين أغصان شجرة ضخمة، إنها كانت تخشى أن يغلبها النوم فتقع على الأرض، لذلك فهى تجاهد نفسها على أن تظل ساهرة.

وتعجب «زارا» حين تسمع بعد ساعات صوت رجلين على الطريق يسيران على بعد منها كانا يتحدثان عن جارية فرت من بلدتها.

ويقول أحدهما لصاحبه:

- لن تذهب بعيداً عن هذا المكان، إن الجوع سوف يردها إلى مكانها لسبب واحد وهو أن أحداً لن يجرؤ على مساعدتها.

وتلقى زارا نظرة اضطراب على لفافة الطعام التى تحملها، ولا تأكل منها إلا القليل وتقتصد فيه فتمزجه بعروق الفاكهة وثمار التوت وتظل على حالتها، مرة تغفو وأخرى تصحو حتى يحل الظلام فتستأنف المسير فى الاتجاه الذى ظنت أنه موصل إياها إلى الشمال.

ويجد بها السفر على الطريق ويلح الجوع عليها كلما تناقصت حصيلتها من الطعام، وفى النهاية تستشعر شيئاً من الأمن، إنها ولا شك تبعد كثيراً عن هذا المكان الذى يعلم الناس فيه قصة فرارها.

وفى الليل تصل إلى بحيرة كبيرة مليئة بالقوارب وصائدى الأسماك وتستجمع زارا شجاعتها فتقترب من أحدهم ثم تسأله إن كان فى وسعه أن يعبر بها البحيرة.

ويتساءل الرجل فى ريبة:

- من أنت؟

- إننى أسعى لزيارة أختى التى تقيم على الشاطئ الآخر من البحيرة، إنها ترغب فى رؤيتى.

ويتساءل صاحب القارب:

- هل معك نقود؟

- لا .. إن أختى تملك مالاً كثيراً، وإننى أعدك بجائزة كبيرة أرسلها إليك إن كان لك أن تثق بى.

ويعبس الرجل ثم يقول أخيراً:

- حسن.. إننى ذاهب على كل حال، وأكبر الظن أننى لن أخسر شيئاً إذا ما حملتك.

وتقول زارا:

- أعدك ألا تكون خاسراً، ولكن قد لا تسمع عنى شيئاً ردحاً من الوقت.

ويعلق الرجل:

- أحس فيك الأمانة فى القول، اركبى وعليك أن تفيدى مما تفعلين.

ويصلان فى اليوم التالى إلى الشاطئ الآخر من البحيرة وتنطلق زارا على الطريق مرة أخرى، وتحس بفرحة غامرة لأنها تملك تلك التميمة التى أعطتها إياها أختها ولأنه قد انقضت ثلاث سنوات منذ أن افترقت عن أختها وأصبحت أطول مما كانت من قبل، وفوق ذلك لم تكن لتدرى كيف يبدو وجهها الآن، ذلك أنها لم تنظر إلى مرآة قط طيلة المدة التى قضتها كجارية.

وتصل زارا مساء اليوم إلى إحدى القرى ويلقاها أهلها مشفقين ويقدمون لها الطعام والإيواء ولكنها تقنط حين تعلم أن بينها وبين المدينة التى تعيش فيها أختها مسيرة أسابيع عديدة.

ومع ذلك تنقضى أسابيع وشهور قبل أن تصل زارا إلى المكان، لقد كان عليها أن تعمل لتكسب قوتها كلما سارت على الطريق لأنها لم تكن لتملك مالاً أو طعاماً.

وتصل أخيراً إلى المدينة وتجلس على مشارف الغابة وترنو ببصرها إلى الأضواء وتسأل نفسها عن الطريقة التى تظهر بها نفسها لأختها.

وعلى الرغم من أن زارا لم تكن لتعرف الحقيقة، فإن ما تقوم به «ميزيا» من جهود للتعرف عليها قد بلغ قدراً جعل قصة الأخت الضائعة معروفة للجميع حتى أن خياطاً غادراً وشقيقه التاجر الذى يعيش على مسافة من المدينة قد اعتزما أمراً نكراً يستعدان لوضعه موضع التنفيذ- كان للتاجر ابنة صغيرة فى

عمر «زارا» تتفق فى صفاتها مع ما أدلت به «ميزيا» عن أختها «إنها صغيرة نحيلة واسعة العينين تلبس تلك التميمة فى صورة السلحفاة التى أعطيت إياها».. لقد كانت ابنة التاجر صغيرة نحيلة واسعة العينين وكانت ماهرة ماكرة لم يكن يساور الأب والعم شك فى أنه بمساعدتها سوف تستطيع أن تمثل شخصية زارا وأن تجنى الثمار المرجوة من كونها شقيقة لميزيا، إن الشىء الوحيد الذى ينقصها هو التميمة، إنها ينبغى أن تكون شبيهة بتلك التى أذاعت ميزيا أوصافها وإلى هنا لم يكن فى وسعهما أن يجدا واحدة تماثلها.

وفى مساء ذلك اليوم الذى تصل زارا فيه إلى مشارف المدينة يقفل الخياط راجعاً من زيارة أخيه، لقد كان بطبيعته رجلاً محباً للاستطلاع فما يكاد يشاهد الفتاة الغريبة تجلس على الطريق حتى يتوقف ليعرض عليها عونه ويتلطف معها ويتودد إليها إلى الحد الذى جعل زارا تفرغ قصتها عليه، ويبذل غاية جهده فى إخفاء شعور الغبطة لتلك الصدفة التى ألقاها القدر فى طريقه.

ويقول لزارا:

- إنها قصة رائعة.. إننى على استعداد أن أعينك ولكن لا تلومينى إن أنا طلبت مزيداً من المعلومات.

ويلح عليها بأسئلة حتى يظفر منها بكافة التفصيلات عن حياة الفتاة المنزلية وأقربائها، وفى الواقع عن كل شىء تحتاجه ابنة أخيه يمكنها فى الحقيقة من القيام بدور الأخت الضائعة.

ويظفر أخيراً بالكثير ثم إذا هو يتظاهر بالتوقف ليتدبر الأمر، ويقول:

- إننى لمقتنع بأنك إنما تقولين الحق، ولكن هناك من الصعاب ما سوف تواجهين، إنه لمن العسير أن نلتقى بأختك وعليك أن تعلمى أنها شخصية هامة جداً، وهناك أخطار كذلك، فإذا ما عرف الأشرار قصتك فإنهم ربما يحاولون أن يسرقوا التميمة وينحرفوا فتضلى الطريق، والآن فهذا ما أقترحه عليك: فى نهاية الطريق يعيش حداد مع زوجته- إنهما معروفان بالرحمة فإذا ما سئلا

الطعام والمأوى فإنهما يستجيبان لذلك، ولكن لا تعطيهما اسمك الحقيقى أو تخبريهما قصتك وفى نفس الوقت سوف أحمل التميمة إلى أختك، إننى رجل ذو مكانة وسوف يكون فى وسعى أن أحصل على إذن بالمثول بين يديها، وسوف أعود فى مساء اليوم التالى لآخذك.

ويمزق التردد زارا المسكينة، إنها لا تكره أن تتخلى عن التميمة ولكنها كانت تعلم أن ثمة عقبة كأداء سوف تعترضها إذا ما حاولت الالتقاء بأختها ميزيا، وأخيراً يغريها حديث الخياط الماكر فتقبل خطته وتقدم إليه التميمة وتنطلق على الطريق إلى منزل الحداد.

وما أن يتلقى الخياط التميمة حتى يسرع بكل قوته عائداً إلى منزل أخيه يقص على التاجر وابنته الأنباء العظيمة وظلا يعلمان الفتاة دورها فى حياة زارا حتى تؤديه جيداً كما تؤدى الممثلة الناجحة دورها فى أية مسرحية.

ويسافر الخياط فى جوف الليل مصطحباً التاجر وابنته وكلما جدوا فى سفرهم اصطنعوا قصة تظهر كيف دخلت زارا المدينة.

ويظفر التاجر فى صباح اليوم التالى عن طريق الرشوة بلقاء مع ميزيا بحجة أنه يقدم إليها بعضاً من الطرف الجميلة، وينشر التاجر فى حضورها قطعة من قماش ويخفى فى يده التميمة على صورة تجعل عينيها تقعان عليها، وفى نفس الوقت يتحركان فى شىء من السرية وينقلب لحظة وجه ميزيا شاحباً شحوب الموتى وتأمر وصيفاتها أن يتركن المكان وتتنهد فى عنف بعد أن تتفرد بالتاجر ثم تقول:

- من أين لك بهذا؟

فيقول:

- من أختك.. منذ يومين وأنا راجع إلى منزلى التقيت بفتاة كادت تسقط إعياء على جانب الطريق، حملتها إلى منزلى فلما أفاقت أخبرتنى من تكون وأنها تسعى للقائك.

وتسأله ميزيا فى لهفة:

- أين هى؟

- إنها تنتظر بالباب.

- ادخلوها على عجل.. آه يا أختاه.. إن أختى العزيزة الصغيرة قد عثر عليها.. إنه استجيبت صلواتى ودعائى.

وتشهق ميزيا تغلبها عاطفتها:

وفى لحظات يؤذن لشبيهة زارا أن تدخل.. وتلقى بنفسها على قدمى أختها فى تصنع محبوك وتأخذ ميزيا الفتاة بين ذراعيها وهى تبكى وتمطرها سيلاً من الأسئلة كان فى وسع زارا الإجابة عنها، ويسعد التاجر لهذا الأداء الرائع الذى تقوم به ابنته، فلم يسع أحد أن يقوم بأحسن مما قامت وتبعث ميزيا إلى زوجها تنبئه بأنها قد عثرت على شقيقتها الضائعة فلم تكن سعادة الشاب بأقل من زوجته، فقد كان يبذل من نفسه ما يدخل الهناء والدعة إلى قلبها وما ينسيها تعاستها من قبل.

ويقدم للفتاة أشهى الطعام وتغتسل بالماء المعطر وتلبس فاخر الثياب.. ويقام احتفال رائع إحياء لجمع شمل الأختين.

أما زارا الحقيقية فتبقى فى منزل الحداد يتزايد قلقها يوماً بعد يوم، فلم يعد فى وسع مضيفيها أن يدخلوا على قلبها عزاء وسلوى لأنهم لم يكونوا ليعرفوا شيئاً عن قصتها، وبينما هم يتساءلون عن سر اضطرابها إذا بجار لهم يعود بأنباء مذهلة عن استرداد ميزيا لشقيقتها الضائعة ويصيبهم ذهول كامل، بينما كانت تنصت زارا إلى حديث الجار وتمرض زارا أياماً عديدة بعد ذلك حتى إذا ما أبلت من وعكتها تحاول أن ترسم لنفسها خططاً بعد أن أدركت أن الخياط الخائن قد خدعها، وأنه لا حول لها ولا قوة دون أن تكون معها تميمتها.

إنها فتاة ماهرة شجاعة وكلما استشعرت قوتها رسمت لنفسها خططاً.

وتخبـر الحـداد العطوف أنهـا ترجـو- فـوق كل شـىء- أن تـظفـر بعـمل فى القصـر حتى إذا تماثلت للشفـاء تمامـاً يسـعى الحـداد إلى ابن أختـه الذى يعمل مساعداً فى المطبخ فيحصل لزارا على عمل من تلك الأعمال الهينة فى القصر.

كانت زارا على جانب من المهارة والعزم، وتعقد العزم على أن تسلك طريقها الذى رسمته لنفسها لكى تتمكن فى النهاية أن تتصل بشقيقتها، وكلما انقضت الأسابيع تنتشر الأقاصيص عن تلك الفتاة المماثلة لها، فمن قائل أنها تستغل مكانتها، ومن قائل إنها سيئة الطبع فيها غطرسة وجشع، ومن قائل إنها قد أثرت ثراء فاحشاً من مال وجواهر على حساب ميزيا وزوجها، وأن الناس قد بدأوا ينفرون منها.

وتنقضى الشهور ولاتزال الفتاة المحتالة تستأثر بمكانها فى القصر، وإن كان قد ازداد بغض الناس لها يوماً بعد يوم.

ويتزايد اضطراب ميزيا لسلوك أختها، وفى نفس الوقت تصيب زارا نجاحاً مطرداً إذ أصبحت تحيك الملابس، وكانت تنظر فى أغلب الأحيان إلى ميزيا وتتحدث إليها.

وتقول ميزيا لها يوماً:

- ألا تعلمين أنك جميلة.

وتقول زارا:

- جميلة ما كنت يوماً جميلة.

وتتساءل ميزيا:

- ولكنك كذلك، ألم تنظرى يوماً إلى مرآة؟

- لا .. لم أكن لأعبأ بذلك.. لقد كنت فى طفولتى عارية من كل جمال، فلا أظن أننى أبدو جميلة الآن.

وتتساءل ميزيا:

- كم عمرك؟

- خمسة عشر ربيعاً.

وتقول ميزيا فى رفق:

- إنك فى مثل عمر أختى.

ثم تشهق وتسدير تاركة المكان.

وفى ذلك الوقت تحدث تطورات مثيرة تتصل بالفتاة المحتالة، فيفد من أقصى الشمال رجل خطير المكانة يلتمس لابنه زيجة يكون فيها الثراء والنفوذ، ويدنو الرجل من زوج ميزيا يستطلع رأيه فى مشروعات الزواج من الفتاة زارا، فإن كانت شخصية زارا الآن كما سبق أن وصفت ميزيا من قبل فتاة جميلة فاتنة، فالفكرة بهذا الوصف سوف لا تؤتى ثمارها ولكن زوجها رأى أن يكون ذلك حلاً ممكناً لموقف قاتم دقيق أليم، ويعرف عن زارا سوء الطبع والأثرة والغطرسة وتبدو مطالبها من الملبس والمال والجواهر شيئاً لا يقف عند حد، والحقيقة أن والد المحتالة وعمها كانا لا ينيان فى أن يستحثانها على مداومة الطلب وهى عندئذ تضطر للقيام بذلك، ويبلغ بميزيا النكد حداً مخيفاً، ولو أنها كانت لا تعرف من الحقائق المؤلمة إلا قليلاً من شراسة زارا وكل ما كانت تسوقه من دفاع لصالح أختها أن سنوات العبودية القاسية قد أثرت فى خلقها، وأنها سوف تتحسن على مر الزمن ولكن ميزيا أو غيرها لم يكن ليلحظ عليها أقل مظهر من التحسن.

ويذهب زوج ميزيا إليها عاقداً العزم أن يكون حازماً فيخبرها بعرض الزواج ويلح فى قبوله، ذلك أنه ليس مستعداً أن تظل زارا، فى بيته أكثر ما بقيت، وتبكى ميزيا أول الأمر لأن أختها التى كانت ضائعة سوف تبعد عنها فى الحال، ولكنها ترجع فى النهاية وتعترف بأن الزواج يبدو خير طريق لصالح الجميع.

وتتساءل ميزيا:

– وعن الشاب؟ يبدو أن من الإجحاف به أن يقذف بهذا العبء عليه؟

ويقول الزوج:

– سوف أقدم مهراً كبيراً لهذه الزيجة ويسعدنى أن أفعل ذلك لكى أنجو بنفسى من مظاهر السلب والابتزاز.

ويتجه الزوج إلى الأب ويبرم معه عقد الزواج ويعود الرجل إلى ابنه الذى يغضب لذلك أول الأمر.

– إننى لا أشك أنك تريد أن تزوجنى، ولكنى أعترض على هذه الترتيبات التى عملت دون علمى، إننا لسنا فقراء وليس من سبب يدعو للزواج من أجل المال، كيف تقطع أننى سوف أحب هذه الفتاة؟

– أليست هى أختاً لميزيا تلك التى عرفت بروائع جمالها ولطافة شعورها؟

– إنك إن طوفت العالم فإنك لن تجد عروساً تماثلها، لقد كان يجب أن تشكر لى ما أوتيت من الحكمة وحسن الطالع إذ وفقت فى تخير هذه الفتاة لك.

ورغم ذلك ينقضى بعض الوقت لإقناع الشاب بالرأى وينجح الرجل آخر الأمر وتسير الخطط قدماً.

وتشتغل زارا بالحياكة من مطلع الصبح حتى الليل حتى لتكاد تمرض إشفاقاً مما يحدث، إنها لتعلم أن حفلاً كبيراً لزواج الفتاة المحتالة سوف يقام فإن تم الزواج فكل ما يحدث بعده أمر غير ذى بال، ولم تعد تتصل من قريب بميزيا كل يوم ولم تعد تواجهها، ولم يعد لزارا الحقيقة أدنى أمل فى أن تزيل القناع عن الوجه المذنب.

وتستمر الأمور على هذا المنوال حتى ليلة العرس التى سوف تكون حدثاً جليلاً، وتذهب زارا فى مساء اليوم لتزور الحداد صديقها القديم- ولشد ما كانت دهشتها إذ تمشى إلى منزله فترى ذلك الصياد الذى نقلها عبر البحيرة منذ عام مضى ويحملق كل منهما فى وجه الآخر استغراباً.

ويسأل الصياد:

- ماذا تفعلين هنا؟

وتقول زوجة الصياد:

- إنها صديقتنا الحميمة.

ويصيح الصياد:

- ولكنها الفتاة التى جئت أبحث عنها- الأخت الضائعة، تلك التى لم تف بوعدها ولم تدفع لى شيئاً لقاء مساعدتها.

ويبدأ كل حاضر فى الكلام وتنقضى دقائق قبل أن تستطيع زارا أن تسمع الحاضرين صوتها، وتوقن أن الحقيقة بأكملها ينبغى أن تعرف، لقد كانت قصة مستفيضة حتى إذا ما انتهت منها يتنهد الجميع فى دهشة.

ويسأل الصياد:

- إنك لابد تذكريننى.. أليس كذلك؟ ولابد أن تذكر تلك التميمة التى كانت حول عنقى؟

ويرد الصياد:

- بالطبع أذكرها لقد عرفت من أنت، عندما استمعت إلى قصتك أخيراً، لقد وثقت بك وكنت متأكداً من أنك سوف لا تنسيننى، لقد رحت أستمع كيف كنت أنت- أعنى الفتاة الأخرى الجشعة الأنانية- لذلك فقد عزمت على اقتضاء حقوقى لقاء مساعدتى إياك، أعنى الفتاة الأخرى، وفى الواقع كنت أنت المعنية بالأمر.

وهنا يتوقف الصياد عن الكلام بعد أن تختلط عليه الأمور وهو يوضح ما يعنى.

وتقول زارا:

- إننى أفهم ما تقول.. إنه لمن العجب أن تأتى.. ذلك أن الحقيقة ينبغى أن

تعرف أخيراً.

ويهتف الصياد:

- إننى لأتساءل من تكون زارا المزيفة؟

وتقول زوجة الحداد:

- أعتقد أننى أستطيع أن أتكهن أننى أعرف من يكون الخياط، لقد رأيته يمر من هنا مرات عديدة، وكذلك رأيت أخاه التاجر، إننى أعلم أنها أسرة لا تدين بالأخلاق والمبادئ وأعلم أن للتاجر بنتاً فى عمر زارا، أظن أنها هى التى تقوم بدور المحتالة.

ويقول الحداد:

- المهم هو أن نكشف أمرها سريعاً.. ثم يستدير إلى زارا «عليك أن تقابلى زوج أختك.. سوف نصحبك إليه ونسندك فيما تقولين»، هيا بنا نذهب على عجل.

وينطلقون جميعاً وتخفى زارا أصحابها فى حجرة صغيرة مهجورة ثم تدلف لتترصد قدوم الأمير بعد أن تلتمس لذلك عذراً.. سترته التى أصلحتها أخيراً.. كان المكان من حسن الطالع يزخر باللغط والاضطراب إلى حد لا يثير التفات الناس إلى تلك الفتاة الذليلة التى تحيك الملابس فتستطيع أن تزحف إلى مخدع الأمير وترتمى تحت قدميه..

ويتساءل الأمير فى عجب:

- من أنت وماذا تبغين؟

وتستجمع زارا شجاعتها وتقول فى هدوء:

- لدى الدليل على أن أخت زوجتك فتاة محتالة.

وينتصب الأمير واقفاً على قدميه فى ذهول.

وتتوسل زارا إليه قائلة:

أرجو أن تنصت إلى وأغلق دوننا الباب بالرتاج حتى لا يقطع علينا الحديث أحد، إنها قصة يطول شرحها.

وفى دهشة يفعل الأمير ذلك ثم يأمرها أن تتكلم.

وما أن تنتهى زارا من حديثها حتى يرمقها الأمير بنظرة فاحصة وتساؤل:

– الصياد.. أين هو؟

– إنه يرجو أن يتحدث إليك وكذلك الحداد وزوجته.

– سوف أبعث إليهم بحارس يأتى بهم فى الحال.

ويدخل ثلاثتهم على الأمير ويحدثونه بما يعرفون عن زارا ويشعر الأمير بأن هناك احتمالاً يدعو إلى تصديق القصة.. إنها قد أعانته على استجلاء أمر قد حيره كثيراً.. ذلك الفارق الكبير فى الشعور بين فتاة طالما تحدثت عنها ميزيا وبين سلوك أخرى ادعت لنفسها شخصية الفتاة الضائعة.

«سأحاول أن أرغمها على الاعتراف بهذا الزيف.. لدى رأى.. انتظروا هنا.

ويسرع باحثاً عن زوجته ويقول لها:

– أريد منك أن تفعلى أمراً دون أن تسألى عنه- أريد أن تنطلقى باحثة عن أختك، فإذا ما التقيت بها فتحدثى معها عن تلك الأيام الخوالى اسأليها إذا ما كانت تذكر ذلك الحفل الجميل الذى أقيم لزواج عمها، وإذا ما كانت تذكر رداءك الأحمر الرائع الذى كنت تلبسين ورداءها الأزرق الجميل الذى كانت ترتديه.

وتنظر ميزيا فى استغراب:

– ولكن مثل هذه الأمور لم تحدث قط.. إن جميع أعمامنا قد تزوجوا قبل أن تولد.

ويرد الزوج:

– وليكن ذلك ولكن افعلى ما آمرك به، سوف أصطحبك.

وانطلقا يسيران فى حذر باحثين عن زارا فما أن يلتقيا بها حتى تبدأ ميزيا الحديث معها عن طفولتهما.

وتقول زارا فى شىء من القلق:

- عفواً يا أختاه إن لدى من الأمور الكثيرة ما أريد أن أقوم به.

- دعينى أساعدك، إن ذلك يذكرنى بالوقت الذى تزوج فيه عمنا.. ألا تذكرين ما كان هناك وقتئذ من ضجيج واضطراب.. لقد كنت فى الصباح أستعيد هذه الذكرى وما كان فيها من ملابس جديدة، كان ردائى أحمر اللون ورداؤك أزرق.

وتجيب زارا المزيفة على عجل:

- أجل.. بالطبع.

وتسألها ميزيا:

- هل تذكرين ذلك؟

- أجل أذكره بالطبع.

وتميل ميزيا ناحية زوجها وترمقه بنظرات زائغة.

ويقول الزوج:

- إنه لأمر عجيب حقاً إنك لتعلمين أن شيئاً من ذلك لم يحدث قط.

إننى قد نصبت لك شراكاً وها قد وقعت فيه.. إنك لست أختاً لزوجتى.. من أنت؟

وهنا تحتج الفتاة المحتالة فى عنف ولكن يبدو أنها كانت خائفة خوفاً شديداً ويزداد غضب الأمير شيئاً فشيئاً وفى النهاية تلقى الفتاة التعسة بنفسها على الأرض وتعترف بالحقيقة.

ويسمع الأمير عن شريكيها ويأمر بالقبض عليهما فى الحال وفى نفس

المساء كان الجميع.. الخياط وشقيقه والفتاة فى غيابات السجن.

أما زارا الحقيقية وأصدقاؤها فقد ظلوا فى لهفة ينتظرون حتى جاءهم رسول من قبل ميزيا وهنا تتعانق الأختان.

وفى اليوم التالى يجىء العريس فلا يقام حفل الزواج، ولكن تقام بدلاً منه وليمة.. ويتأثر الشاب تأثراً جميلاً بزارا الحقيقية حين يلتقى بها وتدهش زارا حين تجد نفسها وقد أصبحت على قدر من الجمال الرائع مثل ميزيا.

وتهتف ميزيا:

- كيف كنت عمياء؟ إن شقيقتى كانت فى واقع الأمر معى قريبة منى قرب أنفى ولا أعرفها.. بينما تلك الفتاة الكذوب تسعى لإقناعى.

إن هذ كله ليقطع كيف أن الناس قليلاً ما يدرون ما يقع فعلاً من حولهم من أمور، وكيف أنه من اليسير أن يخدعوا.



طفــل الغابــة

أتى على إفريقية من الدهر كانت الحروب فيها تمزق شمل بلادها وكان من عادة الظافر المنتصر أن يسوق جحافل المقهورين من الناس عبيداً أرقاء.

ولم يكن أحد يأمن على نفسه فكانوا يسومون الرجال والنساء، وحتى الأطفال سوء العذاب يخرجونهم من ديارهم ويجعلون منهم جماعات يذرعون بهم الغابة أميالاً.. وأميالاً عديدة حتى يبلغوا بهم بلاد الظافر المنتصر هنالك يكلفونهم بالعمل المضنى الشاق ساعات طويلة من النهار، وكانوا يباعون ويشترون أو يستبدلون بالسلع.

زعموا أن صبياً يدعى «آبو» كانت تعيش أمه على تخوف دائماً من شرور الحروب وهجمات الأرقاء، ذلك أن والديها كانا قد سرقا فى غارة مماثلة عندما كانت صغيرة وأنها قد نجت من الأسر حين اختفت فى الغابة، لقد عقدت العزم على ألا يحيق هذا المصير بطفلها الصغير، وكانت تقص على مسامعه فى أغلب الأحيان ما يجب أن يفعل لو أن قوماً غرباء غلاظاً شداداً جاءوا إلى قريتهم وأن عليه أن يحتمى بالغابة ويختفى فيها وقتاً طويلاً وألا يخرج من مخبئه حتى يستيقن أن النخاسين قد ولوا الأدبار.

كان «آبو» يحس الحزن والأسى حين كانت أمه تتحدث إليه عن هذه الأمور، ولكنه كان فى معظم الأوقات مرحاً سعيداً إلى حد كبير، لأن الحياة كانت فى عينيه جميلة باسمة.. كانت أمه فى أغلب الأحيان تصحبه حينما تسعى إلى العمل فى الحقل حيث كانا يزرعان لطعامهما، كان آبو يتعشق السير فى الصباح الباكر فى تلك الرقعة من الأرض الخاصة بهما كما كان يحب فوق ذلك أن يعود إلى داره فى أمسيات أيامه، حيث كانت النيران توقد ليلاً فيجلس من حولها القوم وقد جاء كل بطعام يأكله ويستمتع بمختلف القصص.

إن الشيء الوحيد الذى كان يخيف آبو فى الحقيقة تلك الساحرة التى كانت تقطن على مسافة من قريته.. تلك العجوز التى انحنى ظهرها وتجعدت قسماتها، وقد تعود الناس زيارتها إذا ما ألم بهم مرض أو نزل بساحتهم بلاء أو جدب أو غيره من شتى المكاره، وكانت تعرف بينهم بما تمارس من أساليب التطبيب بالسحر وبما تستجلب من رضا الآلهة.

حاولت الأم أن تهدئ من روع ابنها فكانت تقول له:

- إنها امرأة عاقلة ينبغى أن يكون لها شيء من التوقير.

ولكن آبو كان يقول:

- ولكن أليست هى بالمرأة الشريرة؟.. لقد سمعت أنها تجعل الناس حيوانات إن هم هموا بإغضابها.

وتجيب الأم:

- إذن فكن حذراً من أن تغضبها.

إن آبو مع ذلك لم يكن ليهتبل الفرص السانحة فلا يحاول أن يدنو من دار الساحرة، فلو أنه رآها مرة قادمة لأسرع يختفى، ذلك أنها كانت تخيفه بثيابها العجيبة وأساورها المصنوعة من فراء القردة.

وتستشرى فى البلاد أنباء الحرب، وأن كثيراً من الناس قد خرجوا للقتال، وكان والد آبو واحداً منهم وتترى الأنباء من آن لآخر بأن القوم قد هزموا وأن والد آبو قد مات، وأن الجيوش الظافرة تتقدم فى اتجاه القرى.. ولكى تأمن أمه على نفسها وابنها فقد اختفيا فى الغابة قريباً من مزرعتهما ولم تكن الأم لتترك ابنها إلا حين تسعى لجلب طعامهما، كانت تقول له حين تتركه كل صباح:

- إذا لم أعد إليك فلا تحاول أن تتبعنى.

ظل هذا يحدث طوال أيام عديدة، وكانت الأم- دوماً- تعود إلى ابنها بعد ساعات قليلة، وفى ذات يوم لا تعود الأم وينتظر آبو عودتها طيلة هذا اليوم حتى

تغيب الشمس، فإذا به يتخذ سبيله إلى القرية فى حذر وحيداً خائفاً يترقب.

وبينما هو يسير فى الغابة كان يحس- مرات عديدة- أن شيئاً يتبعه ولكنه تبين أن هذا الشىء ليس حيوانا أو طيوراً تتحرك من حوله فى غير يسر بسبب تلك المناظر العجيبة والأصوات الصادرة التى جعلت من ذلك اليوم ما يختلف عن غيره من سائر الأيام.

ولم يقابل آبو غريباً فى طريقه وكلما دنا من القرية رأى ضوء النيران الموقدة فى المساء، وسمع الناس يتغنون فشد ذلك من عزمه واستجمع قواه وتقدم مسرعاً ظناً منه أنه لن يصيبه مكروه بعد ذلك ولكنه حين يدنو يرى منظراً مريعاً.. كان معظم أهل القرية قد جثموا على الأرض مكبلين فى الأصفاد، بينما كان الغزاة يضحكون ويرقصون ويمرحون فى ضوء النيران، ويتفقد آبو أمه فى شوق فيراها واحدة من ذلك الجمع من السبايا، وينسى كل شىء عن تحذير أمه ويصرخ فإذا بالناس الذين التفوا حول النار يلتفتون إليه وتصيح أمه:

- اجر آبو.. اجر إلى الغابة.

وحين التفت الناس إليه استدار آبو وأخذ يجرى بين الأغصان والأشجار الفارعة ويقفز فوق المياه العميقة ويختفى على ضفاف الأنهار ويرى المطاردين مرة يبتعدون عنه وأخرى يقتربون منه، وظل آبو يجاهد حتى يرى على البعد ضوءاً فيتجه إليه، كان النور ينبعث من منزل حقير صغير ولكنه كان بالنسبة إليه يعنى الاحتماء والمأوى.

لم يقف آبو ليقرع الباب، بل فتحته واندفع إلى حيث المدخل، وما كاد يفعل ذلك حتى يدرك أن هذا البيت ليس شيئاً عادياً، كانت جدرانه مغطاة بأشياء غريبة كما كانت تشتعل بغرفه نار صغيرة ذات دخان، كان الشخص الذى قام لتحيته يتدثر بثيابٍ غريبة، وكان وجهه نحيلاً يشبه وجهِ القرد.. كان ذلك منزل الساحرة، وكان الموقف سيئاً ولكنه كان على الأقل يعرف الساحرة، أما الغرباء

الذين كانوا يطاردونه فلم يكن ليعلم عنهم شيئاً، ويقول لاهثاً:

- اخفنى.. اخفنى.. إن النخاسين يقتفون أثرى.

ودون أن تقول الساحرة كلمة واحدة تلقى فوقه جاداً وتجلس بحيث كانت تخفى جسمه الصغير ويدخل الرجال مندفعين وحين يرون الساحرة يتوقفون فى يأس وقنوط لأنهم كانوا يخشونها كما فعل آبو.

وتسألهم الساحرة فى صوت خشن غريب:

- ما هذا.. ولماذا أتيتم إلى دارى؟

وتستبد بقائد الجماعة رعدة فيقول:

- إننا نبحث عن صبى جرى على هذا الطريق.

وتقول الساحرة:

- اذهبوا وأدوا عملكم.. إن الذين يدخلون هذه الدار عليهم أن يتحملوا وزر ما يفعلون.

ويتمتم الرجال فيما بينهم وينسحبون، وتسعى الساحرة متعثرة إلى ثقب صغير فى الحائط فترقب وتتسمع وتقول لآبو:

- تستطيع أن تجرى.. لقد ابتعدوا داخل الغابة.

ويرد آبو فى أسى وقد ألقى الجلد جانباً:

- ولكنهم سوف يعودون.

- هذا صحيح.. ولكن لن يأتوا إلى هنا.. ماذا أنت فاعل؟

ويتنهد آبو:

- لا أعلم.. إن أبى قد قتل فى الحرب وأمى قد أسرت.. سأحاول أن ألحق بها إلى حيث يأخذونها وإلا سوف لا أعلم أين ذهبت.. وسوف لا أراها مرة أخرى.

- وكيف ترجو أن تلحق بجماعة العبيد الأرقاء دون أن يأسروك أو يهلكوك أو يتركوك من خلفهم؟

ويقول آبو وقد غمرته التعاسة:

- لا أعرف.

وشرع يفكر فى أمور كان قد سمع بها عن الساحرة وظل يرتجف خوفاً وفزعاً من فكرة ارتآها ثم يقترح عليها:

- أليس فى وسعك أن تساعدينى.. لقد سمعت أنك تستطعين أن تغيرى الناس إلى حيوانات.. أريد منك أن تحولينى إلى شىء آخر حتى أستطيع اللحاق بأمى.

وترمقه الساحرة بنظرة غريبة وتسأله:

- ألست خائفاً؟

- وهل ستصير الأمور إلى أسوأ مما هى الآن؟

وتجيب الساحرة:

- لا أظن.. وأى نوع من الحيوانات تريد أن تكون؟

وينظر آبو متأملاً.. إن الأمر عسير، لا يسعنى أن أكون تمساحاً لأننى لا أستطيع أن أقتفى أثرهم على الأرض، ولو أننى أصبحت أسداً لقتلونى.. فمهما يكن من أمر فالأسد يمكن أن يرهب أمى.. فإن أصبحت زرافاً فسوف أكون شيئاً ملحوظاً فإن صرت غزالاً فمن المحتمل أن أهاجم فتقتلنى الأسود، فإن كنت حيواناً بشع المنظر مثل خنزير الغابة فسوف أرعب أمى كما لو كنت أسداً.. آه يا عزيزتى إن الأمر عسير.

- أنصحك أن تتحول إلى شىء صغير ملحوظ ولكنه فى نفس الوقت لطيف لا يخيف أمك حين تكتشف أمرك، كذلك أقترح أن تكون حيواناً من حيوانات الليل بمعنى أن تنام وقتاً طويلاً إبان النهار وترتحل ليلاً وذلك ما يفعل النخاسون تماماً.

ويوافق آيو على الرأى:

- يبدو هذا رأياً سديداً.. ولكن ماذا سأكون؟

- أعتقد أن من الخير أن تكون طفل الغابة، إنه صغير جداً ليس أكبر حجماً من السنجاب، أنه يتنقل على قمم الأشجار أو يجرى على الأرض فى يسر متعادل ولا يمكن أن يلحظه أحد وستكون فى أمن تماماً.

ويصفق آبو بيديه طرباً ويصيح:

- أشكرك كثيراً.

ولكن الساحرة تضيق به:

- اجلس واهدأ لدى كثير مما سأقوم به.

وينتظر آبو محملقاً بعينيه بينما كانت الساحرة تعد ترتيبات غريبة غامضة، لقد وضعت قدراً ضخماً على النار وراحت تلقى فيه بأشياء غريبة الشكل كريهة الرائحة، وفى الحال تنبعث منه أبخرة كثيرة ودخان كثيف يطغى على الهواء بينما بدأت الساحرة تتمتم بتعاويذ جعلت آبو يرتعد منها خوفاً وفرقاً وتصمت الساحرة وتصب قدراً من الشراب فى كأس وتقدمه إلى آبو وتأمره:

- اشرب.

وبينما يوشك أن يرفع الشراب إلى شفتيه إذا بفكرة مخيفة ترد على خاطره:

- لقد نسيت.. لا أريد أن أصبح طفل غابة إلى الأبد.. إنك ستعيديننى إلى ما كنت عليه مرة أخرى أليس كذلك؟

وترد عليه الساحرة:

- عليك أن ترجع إلى إن أردت أن تسترد شكلك الطبيعى وأنا أبدلك.

وحين ينظر آبو إلى عينيها الشريرتين الضاحكتين يحس أنه مريض بالريبة هل يستطيع أن يثق بها؟ لا يدرى وعليه أن يبوء بالوزر ويغامر.

ويرفع آيو الكأس إلى شفتيه فكانت شديدة المرارة، ولكنه أخذ يتجرعها

حتى منتهاها، وفى الحال تتتابه أغرب المشاعر فيحس كما لو كان يذوب تدريجياً وأنه يغرق فى الأرض ضعفاً وفرقاً وإذا بكل شىء حوله يدور، وإذا به يستسلم وقد صار شيئاً وينتهى الدوار ويفتح آبو عينيه فيرى الساحرة تجثم فوقه وترتعد فرائصه فيقول:

- كيف كبرت.

وهنا يصدر من المرأة العجوز نقيق مخيف:

- انظر إلى نفسك.

ويمد آبو ذراعه- أو ما كان من قبل ذراعه- وقد صار كفاً صغيرة رقيقة يغطيها فراء جميل وينتهى بمخلب غريب يشبه الأصابع، وينظر بعد إلى رجليه لقد اختفيتا تقريباً، لقد وجد نفسه حيواناً صغيراً ليس أكبر من السنجاب، ويشعر بفزع جديد ينتابه لحظات من الزمن ويتحرك فى حذر ثم لا يلبث بعد ذلك أن يتسلق الجدار ويجد نفسه متدلياً من السقف ولو أنه لا يدرى لماذا فعل هذا الأمر الغريب وتقول له الساحرة:

- حسن.. لقد أصبحت بحق طفل الغابة.

ويرد عليها آبو وقد وجد أن صوته قد استحال صريراً عالياً حاداً، كان يبدو أن الساحرة تفهمه:

- إننى بالتأكيد شىء عجيب.

وتقول له الساحرة:

- والآن انطلق مسرعاً.. إن هؤلاء الناس لو رجعوا وارتابوا فى شىء فسوف يقتلونك.

ويخرج آبو من الدار مسرعاً.. ويعجب إذ يتكشف له أنه يستطيع أن يرى جيداً رغم الظلام، لقد كان غريباً حقاً أن يرحل من مكان إلى آخر بطريقة جديدة، لقد وجد نفسه يقفز فوق الأشجار وأسفلها بدلاً من أن يجرى على الأرض وأن يتدلى من غصن إلى غصن وهكذا استطاع الوصول إلى القرية بهذه

الطريقة بسرعة تامة.

ويخيم على المكان الهدوء الآن.. كان المنتصرون يغطون فى نومهم فيما عدا بعض الحراس، أما الأسرى فكانوا يرقدون على الأرض كما سبق أن شاهدهم يبذلون غاية جهدهم أن يناموا كذلك، ويتساءل آبو إذا كان ينبغى عليه أن يذهب إلى أمه لكنه قدر ما فى ذلك من خطورة، إن من الخير عليه أن يراقب وينتظر.

وتصحو القرية قبل طلوع الفجر ومع أغباش الصباح وكان الأسرى يتحركون صفاً طويلاً ويسيرون تاركين القرية قفراً خاوية إلا من قليل من الناس يبكون صغارهم المفقودين.

وكلما طلعت الشمس قلَّ تعلق آبو بالرحلة شيئاً فشيئاً، لقد كان يحس بالراحة والرضا فى ظلام الليل أكثر مما كان يحسه فى وضح النهار، فكانت عيناه تختلجان من ضعف، لقد عانى وقتاً ثقيلاً حتى توقف الركب ليستريح.

وتطوف بذهنه فكرة فيدنو من لفافة كبيرة، لقد كان يحملها أحد الخدم، وكانت اللفافة لينة قاتم لونها من الداخل فيطوى نفسه فيها فى استرخاء ويغفو ساعات طويلة من النهار حتى إذا ما استيقظ يدرك أن الذين فى الركب لابد وأن يكونوا قد أسلموا أنفسهم للنوم طيلة اليوم وأنهم يسرون ليلاً، ومن أجل هذا لم يعد ممكناً أن يدنو من أمه ويتوالى إلى هذا البرنامج أياماً وليالى أربعاً، يسير من فى الركب ليلاً وينامون نهاراً، وأصبح من العسير على آبو أن يرى أمه. لقد استبشر- رغم ذلك- حين رأى أن الأشداء والشباب من الأسرى تجمعهم حلقة واحدة فى الركب وأنهم يستمتعون بوقت أوفر حظاً من أولئك الذين هم أضعف منهم قوة وأطول عمراً، فإن أصابهم إعياء أو خارت قواهم فسقطوا فإنهم يضربون، وإن لم يستطيعوا السير أكثر مما فعلوا تركوهم من خلفهم وهم يرتحلون.

وما يكاد اليوم الرابع يقترب من نهايته حتى يدرك آبو أنهم يدنون من إحدى المدن وإذا بالناس يخرجون للقائهم، وإذا بالجيش الظافر يلقى فى الديار

تعظيماً وترحيباً، وإذا بمظاهر الفرح والبهجة تبدو فى كل مكان، ذلك أنهم قد جلبوا معهم عديداً من الأرقاء. وكان الأرقاء العبيد يسيرون فى جمع كبير ولأول مرة تنزع عنهم الأصفاد ويقسمون أصنافاً وينقلون إلى أكواخ متناثرة ويبقى آبو مترقباً مشوقاً حتى يعلم إلى أين أخذت أمه، فيدلف إليها فى كوخها ويربض فى ركن منه حتى تأخذ القوم سنة من النوم، هنالك يزحف إليها ويضع كفيه على ذراعيها محدثاً نقيقاً.

لم يحسب للنتيجة حساباً ذلك أن أمه قد ظنته فأراً فقامت من نومها مذعورة وألقت به بعيداً وحملقت فيه بعينين زائغتين ويجلس آبو ودموعه تنحدر على خديه: هل تذهب جهوده هباء وهل تظل أمه إلى الأبد لا تعرف من هو؟

ويستدير آبو المسكين ثم يطير ويجرى بعيداً عن الركب إلى الغابة ويستقر به المقام على غصن شجرة ثم يأخذ فى البكاء فى تحسر وفى صوت حاد نحيل كان صداه يتردد وكأنه عويل طفل وإذا بصوت شبيه بصوته يقول: ما بك؟ ويرنو آبو ببصره فيرى طفل غابة آخر يرمقه فى تطلع ويفضى إليه آبو بقصته الحزينة ويبدو طفل الغابة الآخر غير مصدق كلمة مما يقول فيسأله:

- أتعنى أنك فى حقيقة الأمر صبى بشر؟

- إننى كذلك.

ويسخر منه:

- أضغاث أحلام.

ويرد عليه مغضباً وفى نقيق:

- إنها ليست كذلك.. لقد جئت إلى الحياة منذ ست سنوات مضت وقتل أبى فى الحرب، أما أمى فأسيرة فى ذلك المعسكر.. وهى ترتدى ثوباً قرمزياً تجمله أزهار صفراء وتدعى ابنة الحداد.

ويرتاع طفل الغابة ويقول فى صوته النحيل:

- أو.. أو.. أعتقد أنك تقول الحق.

ويشهق آبو:

- أرجوك.. لا ترحل.. لا تذرنى.. إن أمى تخشانى لأنى حيوان وأنت الآن تخشانى لأننى فى الحقيقة إنسان.

ويتخذ طفل الغابة مجلسه فى مكان قصى أمين ويقول آمراً:

- والآن قص على قصتك منذ بدايتها حتى منتهاها وامض فى كلامك وئيداً.

وما يكاد آبو ينتهى من قصته حتى يخبط طفل الغابة أنفه فى عصبية وينظر إليه من خلال عينيه القريبتين الرقيقتين:

- أظن أنك تقص على الحق، ولكنه شىء عجيب، ويبدو أنك فى محنة.. ماذا أنت فاعل؟

- أعتقد أن فى وسعك أن تساعدنى.

ويقفز الحيوان الصغير:

- أنا.. كيف أستطيع مساعدتك؟

- هل يوجد فى هذا المكان من الغابة عدد وفير منكم؟

- ليس قريباً من هنا.. ولكنهم متناثرون حول هذا المكان حيث يوجد آلاف منا كما أتوقع.

-إذن اصغ لى.

ويشرع آبو فى تحديد خطته ويرتجف طفل الغابة بادئ الأمر هلعاً وخوفاً، ولكنه فى قرارة نفسه كان مشفقاً عليه رحيماً به فأغراه آبو بأن يحاول تنفيذ مخططه ويعده قائلاً:

- سأبذل قصارى جهدى، ولكن ذلك سيحتاج إلى أسبوع على الأقل للإعداد له.

ويرتحل بعد أن يقول ذلك وكان على آبو أن يبقى فى مكانه معانياً مرارة

الانتظار، وفى نفس الوقت لم يكن ليحاول الدنو من أمه مرة أخرى، لقد كان ذلك أمراً خطيراً أو عديم الجدوى أيضاً.

ويعود طفل الغابة فى الليلة السادسة ويقول لآبو:

- إن الخطة قد تم إعدادها.. إن آلافاً منا ينتظرون.. إنه ليسعدنا أن نكون نحن الصيادين بدلاً من أن نصطاد.

وتمضى نصف ساعة ويفرك أحد حراس القافلة عينيه ويظن أن كابوساً قد حل به، وتتقاطر الحيوانات الصغيرة فوق كل جدار، ومن خلال كل باب و تمرق فوق الحارس كالموج فتذره راقداً على الأرض يرتجف فرقاً وتمتلئ بها الأكواخ التى يبيت فيها الأسرى فيهبون من النوم صائحين مذعورين ويتفرقون فى كل اتجاه.

ولم يكن الحراس أقل هلعاً وخوفاً من غيرهم ولم يعد فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئاً وتنطلق أم آبو مسرعة يتبعها مئات الحيوانات الصغيرة وتظن أنها قصدت القضاء عليها، ورغم أنها قد جرت حتى لهثت فقد طاردتها الحيوانات التى كان يقودها صغير منها وكأنها تقتفى أثرها إلى النهاية.. وأخيراً لا يسعها الجرى أكثر مما فعلت فتسقط على الأرض وتنزوى وراء غصن وتغلق عينيها وتنتظر مصيرها.

إن شيئاً ما لم يحدث لها وحين تفتح عينيها من جديد لا تجد أمامها شيئاً من الحيوانات وتستجمع قواها وتدرك أنها على مقربة من الطريق الذى كانت قافلة الأسرى قد سلكته من قبل، وتزحف داخل الغابة مستسلمة للنوم.

وتفيق من نومها مع مطلع الفجر وفى هذه اللحظة فحسب يقرع ذهنها المتبلد حقيقة الموقف: إنها قد فرت. وتنتصب واقفة على قدميها متحاشيَة الطريق وتنطلق مسرعة ما وسعها الجهد.. متخذة مسالك صغيرة فى الغابة وما تكاد تقطع مسافة يسيرة حتى تسمع من خلفها صليلاً فتلتفت مذعورة: إنه طفل الغابة.. لقد عرفته شبيهاً بذلك الذى قاد الغزاة فى الليلة السابقة وتجمع إزارها وتجرى، ويستوقفها شىء يشبه أن يكون صراخاً حزيناً صادراً من طفل وتلتفت فى عجلة فترى حيواناً صغيراً يتوسط الطريق ويبكى فى تحسر.. كان

بكاؤه شيئاً لا يقدر أحد على مقاومته، وتستدير الأم خائفة تترقب وتمشى متجهة إلى الصغير وتضع يدها عليه، ولشد ما كانت دهشتها حين تراه يدنو منها ويستكين لديها ويقفز على كتفها وتقول له:

- حسن إنك شىء صغير غريب.. ولكنك قد أنجيتنى الليلة الماضية هل تريد الذهاب معى؟

لقد بدا أن طفل الغابة قد فهم ما تقول لأنه هزَّ رأسه ودنا منها شيئاً فشيئاً وقد أخفى عينيه الكليلتين من وهج الضياء.

وتمضى الأم وطفل الغابة هذا اليوم والأيام الأخرى فى التنقل فى الغابة حتى يصلا القرية.. وفى هذه الأثناء كانت الأم وثيقة الصلة بطفل الغابة فكانت تقول له:

- سأقدمك إلى ابنى الصغير حين ألقاه.

كانت هذه الكلمات كفيلة أن تثير فى طفل الغابة عاطفة جياشة، ولكن الأم المسكينة لم تكن تعلم لها سبباً، من أجل ذلك أصابت الأم خيبة أمل حين وصلت مشارف القرية، وحين ألقى بنفسه من فوق كتفها واندفع مسرعاً كأنما يسعى إلى أمر خطير يخصه.. وتضطرب أشد الاضطراب حين تسمع من أهل القرية أن ابنها لم يعد منذ أن أسرت فلم تفكر فى طفل الغابة.

وفى نفس الوقت يندفع آبو إلى دار الساحرة ويخترق الباب ويرسل نقيقاً عاصفاً منادياً عليها، وكانت تربض حول نار ترسل دخاناً كما تعودت أن تفعل.

- هكذا قد رجعت، هل شاهدت أمك؟

ويستمر آبو فى نقيقه ورقصه متلهفاً ويقص عليها قصته:

- والآن أعيدينى.. أعيدينى سريعاً.

ويتضرع إلى الساحرة التى كانت تتيه بما يقول فرحاً وطرباً.

وتنظر الساحرة إليه فى ريبة كأنما تحاول أن تبرم أمراً.. ويذكرها:

- لقد وعدت.. لقد وعدت.

وتهز الساحرة رأسها: صبراً اذهب وابق هناك وانتظر.

ولكن آبو لم يستطع إلا أن يجلس بالطريقة التى يجلس أطفال الغابة متدلياً من السقف وأخذ يفعل ذلك ويراقب الساحرة بعينين متلهفتين.

ومرة أخرى تقوم الساحرة بإعداد أخلاط غريبة تنبعث منها رائحة كريهة فتجعل منها شراباً، وكان عليها أن تمسك الكأس بيدها بينما شرع آبو يلعق ما فيها، وما يكاد ينتهى من ذلك حتى يحس أن أطرافه تنتفخ وأنه يندفع فى كل اتجاه، ومرة أخرى تبدو الغرفة وكأنها تهتز من حوله ثم تستقر وتسكن ولا تبدو الساحرة أمامه ضخمة ولكنها تعود امرأة نحيلة ضئيلة ويحملق آبو فى نفسه فى لهفة- لقد بدأ الفراء ينضو عن جسمه- وعاد إلى نفسه مرة أخرى.

وترتاح نفس آبو، ويبلغ سروره حداً كبيراً ويطوق بذراعيه الساحرة ويحتضنها: إن أحداً لم يفعل معها ذلك من قبل.. لقد دهشت أشد الدهشة فانعقد لسانها ولم تنطق بكلمة وإذا بآبو يندفع نحو باب الكوخ ليخرج.

وينطلق فى كل مكان عائداً إلى القرية حيث يجد أمه تنوح على باب داره. فتطرب أشد الطرب حين تراه وكذلك كان شعور من بقى فى القرية من القوم.

وفى أطراف الغابة حين يحل الظلام تقف أطفال الغابة وكثير منهم ممن شارك فى الإنقاذ يرقبون المنظر، لقد كانوا يستشعرون الغبطة لإسهامهم فى الإنقاذ، وفى ذلك الصنيع الذى يعتبر أهم دور أدوه فى حياتهم وكانوا يحسون بقية حياتهم بشئ من العزة والفخر، فقد اكتسبوا بالإضافة إلى ما فعلوا حيلة جديدة، لقد أصبحوا يصيحون كما يفعل الأطفال وكما سمعوا آبو يصيح حين كان واحداً منهم.. ومنذ ذلك الوقت وهم يحتفظون بهذه الصيحة.

ومن أجل هذا فإن قدر لك أن تجوس خلال الغابة فى جنح الظلام وأن تستمع إلى ما يشبه بكاء طفل ينوح فى حزن فلا تبتئس.. إنه طفل الغابة فحسب.. إنه فى الواقع ليس حيواناً حزيناً إطلاقاً.

كيف جاءت الكلاب؟

منذ عهود سحيقة لم تكن حيوانات مستأنسة، فجميعها كانت ضارية وجميعها كانت عدواً للإنسان.. كانت تخافه ويخافها إلا إذا كانت ضئيلة جداً لا تسبب له أذى، ولم تكن ثم كلاب كما نعرفها اليوم ولكن الحيوانات التى كانت تجوب الغابة كانت خليطاً من الذئب والضبع وابن آوى ولم تكن هذه المخلوقات على صداقة مع غيرها من الحيوانات فكانت تقتل غيرها من صغار الحيوانات وضعافها التماساً للطعام ثم تجرى لتختفى إذا ما ظهرت الحيوانات الكبيرة فإذا جرح حيوان أو ترك ليموت انقضت عليه لتلتهمه.

وفى بعض الأحيان حين كانت تجوب الغابة كانت ترقب الإنسان فى استغراب كانت ترى أن يستمتع بالمأوى والدفء، وأنه يسعى للقنص التماساً للطعام وأنه لا يخرج للقنص إلا فى جماعات فكانت ترمقه بنظرات الازدراء والحسد، ويحدث أن تأتى أيام مجدية يعز فيها الطعام وتحاول الكلاب الضارية أن تصطاد أكثر مما كانت تظفر به من قبل.

وفى ذات يوم تركت كلبة صغارها لتبحث عن طعامها، ويحدث ذلك فى وقت ارتحلت من وطأة الجدب أسرة كبيرة إلى بقعة جديدة كما يفعل الناس غالباً فى إفريقية لسبب أو لأكثر، وبينما هم يستظلون من هجير اليوم إذا بغلام صغير يتجول وحده ويقترب الغلام من كن الجراء الصغير الرقيقة إذ أثارت تطلع الولد إليها ويمسك بواحد منها ويصمم على الاحتفاظ به ويضعه فى لفافة وينطلق عائداً به.. لقد كان مشوقاً أن يكون له هذا المخلوق ولكنه كان يخشى ألا تسمح له أمه بذلك فكان يخفيه عن أعين الناس لكيلا يعلم أحد عنه شيئاً حتى جاءت ليلة ارتحالهم بعيداً عن هذا المكان، وكان الولد يقدم للجرو بعضاً من عشائه فتكشف الأم أخيراً وجود الحيوان فتسأله:

– ماذا أنت فاعل بهذا؟ إنه ليس فى مقدورك الآن أن تصطاد طعامك بنفسك.

ويقول الغلام:

– إنه ليس للطعام.. إننى أريد الاحتفاظ به.

وتسأل الأم:

– من الذى يريد الاحتفاظ بحيوان؟ إنه يصبح لزاماً عليك أن تطعمه.. والطعام عزيز نادر.

ويقول الغلام:

– إننى أعلم ذلك.. إننى سأعطيه بعضاً من طعامى فليس لى أخوة أو أخوات يقاسموننى نصيبى.

ولم تجادل الأم ابنها أكثر مما فعلت.. ذلك أنها كانت تحبه فأذنت له بالاحتفاظ بالجرو الذى بدأ يشعر بالسعادة لأنه أصبح يحصل على طعام أكثر مما كان يجد.. وإلى الاطمئنان أكثر مما كان يحس من قبل.. كان يشارك الصبى طعامه وينام ليله إلى جواره وفى نفس الوقت تفتقد الكلبة وليدها وتغضب لضياعه، لقد كان الإنسان عدواً لها وفى استطاعتها أن تشم رائحته من حول الكن.. لقد تأكدت أن وليدها قد اختطف منها والتهم، لذلك فقد استقر عزمها على أن تنتقم له فهى لهذا تقتفى أثر السارق.

وتقضى زمناً طويلاً فى السفر قبل أن تلتقى بالقوم الذين قد استقر بهم المقام فى بقعة جديدة، وتصل إلى قريتهم بعد الظهر فى وقت كانوا ينالون قسطهم من الراحة فيأخذها الدهش حين تجد وليدها نائماً تحت شجرة وبين أحضانه طفل، وتوشك أن تهجم على الطفل لولا- لحسن الحظ- أن الجرو كان قد اشتم رائحتها فيسرع بالقفز عليها وتلتقط الأم وليدها فى زمجرة رقيقة من عنقه وتجره إلى الغابة وتضعه بجوارها وتقول له لاهثة:

– لقد وجدتك أخيراً.. وأنجيتك يا بنى المسكين.

ويقول الجرو:

إنك لم تتجينى، لقد كنت ألقى عناية فائقة وكنت أنعم بوقت جميل، كنت أعيش كما يعيش الإنسان الذى يعيش أفضل منا.

ولكن الأم تقول له:

- أيها الطفل الغبى المسكين.. ألا تعلم أن الإنسان عدو لنا.

ويقول الجرو:

- لا أصدق ذلك.. لقد كان كل واحد منهم عطوفاً على.

وترد عليه فى سخرية:

- كن عاقلاً.. إنهم يطعمونك حتى تسمن فيقتلوك ويلتهموك.

ويقول الجرو:

- لا أصدق.. كان الطفل يحبنى.

وتقول الأم:

- إنك لا تعرف معنى لما تقول.. إننى لست راضية عنك.. تعال معى الآن ولا تذكر تلك الآراء السخيفة مرة أخرى.

ويفتح الجرو فمه لينبح ولكنها تمسكه من عنقه مرة أخرى بطريقة تجعل من العسير عليه أن يصرخ وتهرول به راجعة إلى الكن.

وتمر الأيام ولكن الجرو لا يستشعر السعادة، لقد غاب عنه الطعام وغاب عنه الغلام ولم يعد شيئاً مذكوراً، ولكنه أصبح واحداً من تلك الجراء التى ترقد فى الكن ولم يعد يحب لنفسه ذلك.

وتمتد الأيام إلى الأسابيع ويكبر الجرو ويشتد ساعده ولكنه لا يستطيع أن ينسى الوقت الجميل الذى قضاه مع الإنسان.. ويخرج فى إحدى الليالى يشم بأنفه ويقص الأثر بحثاً عن القرية- لقد كان مشوقاً إلى الوصول إليها حتى إنه ليأتى من الأعمال ما لا تفعله الحيوانات الضارية وإن كانت تفعله الكلاب الآن.

لم يقف ليأكل أو يشرب أو يستريح حتى يصل فى صباح ذات يوم إلى القرية مكدوداً ظمآن جائعاً، لقد كان الغلام الذى افتقد الكلب من قبل يرتع ويلعب وحده خارج الدار، وإذا به يسمع فجأة صرخات تنبعث من القوم فينظر حوله فيرى حيواناً يقفز تجاهه فيتصايحون عليه.

- اسرع.. اسرع.. ستقتل.

وما يكاد الحيوان يقترب من الصبى حتى يقفز عليه بدلاً من أن يهاجمه وأخذ يلعقه ويهز ذيله فى هوس ويصيح الصبى:

- إنه كلبى الصغير.. لقد عاد إلى.

ثم يطوق رقبة الكلب بذراعيه ويحضنه، ويستغرب أهل القرية ذلك.. لقد كانوا يخافون من الجرو بعد أن كبر ولكن الصبى يقدم له الماء والطعام ثم ينامان سوياً ويحتضن كل منهما الآخر.

وتعود الكلبة الأم إلى الغابة بعد أن افتقدت ابنها عازمة على اقتفاء أثره، وفى هذه المرة تأخذ معها بقية الجراء بعد أن كبرت وأصبحت قادرة على السير وتشتم بأنوفها آثار أخيها وتجرى فى أعقابه، لقد كانت الأم غاضبة، قد برحها الشوق إلى استرجاع ابنها حتى إن الأم وأبناءها ظلوا يسيرون دون توقف حتى إذا بلغوا مدخل القرية وجدوا أخاهم يلعب مع الصبى الصغير وكان الصبى يرمى عصا للجرو الذى كان يعيدها إليه ليرميها إليه مرة أخرى وظل الاثنان يستمتعان بلهوهما.

وتصرخ الأم:

انظروا إلى أخيكم الأحمق المسكين.. انظروا إليه وهو يأتى ألعاباً وحيلاً.

وتنظر الجراء إلى أخيها ويقول أكبرهم:

- لا أظن أن هذا حمق منه.. إننى أعتقد أنه مزاح.

وتقول الأم:

- لن يصبح مزاحاً إذا ما قتل وأكل.

وفى هذه الأثناء يمر رجل بيده جيفة وأخذ يقطعها إرباً ويلقى بقطع منها للجرو ولكن أخاه الذى كان يرقب ذلك حاسداً يقول:

- انظر.. لا يبدو أنه سوف يقتل أو يؤكل.

ولكن الأم تصيح فى وجهه:

- لا تكن غبياً.. أليس الإنسان عدواً لنا؟

- حسنٌ ولكن ليس عدواً لأخينا.. كم أتمنى أن أكون معه.

ويزعج الأم قوله.. فتصفح ولدها وتطرحه أرضاً ثم تقول مزمجرة:

- لا تعارض أمك.

وينفلت الجرو فى هذه الأثناء بعيداً عن الصبى ويقترب فى اتجاه جماعته، وما يكاد يراهم حتى يشعر بسرور، ويجرى إليهم يشمهم وينبح:

- مرحى بالأخوة.. يجب أن تأتوا لمقابلة أصدقائى.

وتصيح الأم:

- لا تمزح.. إن إخوتك لن يكونوا فى مثل غبائك.. عد إلى دارك فى الحال.

وينكر الجرو من أمه ذلك، لأنه قد كبر بحيث لا ينبغى له أن يتلقى منها أمراً فيقول:

- لن أذهب.. إن الإنسان صديق لى.. لقد أصبحت أعيش حياة أفضل مما كنت أعيش فى الغابة سأمكث هنا.

وحين تسمع الأم منه ذلك تثور محتجة فى عنف:

- حسنٌ ولكنك لن تجترئ على أن تعود إلينا بعد إذا ما انقلب عليك الإنسان.. تعالوا يا أطفالى.. وهيا نعود.

ولم يكن الآخرون براغبين فى العودة ولكنهم كانوا يخشون أمهم.. لذلك فقد

تبعوها تاركين من خلفهم الجرو.

ويقفز الجرو عائداً إلى صديقه ويواصل اللعب معه من جديد، لقد كان يشعر بحزن على فقد قومه ولكنه كان يحس فى الواقع تعلقه بالصبى الذى رباه صغيراً.. لذلك فهو يظل فى القرية ويكبر شيئاً فشيئاً ويخرج مع الناس للصيد والصبى يرافقهم، وكان إذا قتل الكلب حيواناً أو طائراً جاء به إلى الصبى لأنه كان يعلم أن له نصيباً منه.

وينمو الجرو فيصير كلباً كبيراً ويخرج يوماً فيلقى كلبة صغيرة متوحشة، فيقف متحدثاً إليها ويتسامع فى هذا الوقت عدد كبير من الكلاب الضارية بأخيهم العجيب الذى يعيش مع الإنسان فتسرع الكلبة الصغيرة فى استجوابه فينبئها بمعيشته ويقترح عليها أن تزور القرية وتقف بنفسها على ما تشاء وتذهب الكلبة الصغيرة معه إلى القرية خائفة تترقب.. ولكن فى جرأة كاملة لقد كانت خجلة وجلة أن تظهر صداقتها بادئ الأمر، ولكنها تقاسم الكلب طعامه ولم تلبث أن تجىء إليه كل يوم، وينتهى الأمر عندما تصبح زوجاً للكلب وتلد له جراء صغاراً ويأتى الصبى ليراها.. وعندما تستطيع الجراء أن تمشى تسير فى القرية من خلف أبيها متعثرة فتخاف الأم عليها بادئ الأمر وتعيدها من رقبتها إلى مكانها واحدة بعد أخرى، ولكنها بعد أن تحررت بعض الشىء تسعى بخطى وئيدة فى القرية مرة أخرى، وفى النهاية تسمح لها الأم بذلك ثم تأتى لتعيش معهم فى القرية.

وتكبر الجراء بدورها وتتوثق صلتها بأصحابها وتخرج معهم للقنص، أما الغرباء عن القرية الذين يقصدونها فكان يأخذهم العجب من هذا الأمر ويبحثون عن الجراء فى أكنانها ويجيئون بها إلى القرى.

إن الجراء التى نشأت مع الإنسان بدأت تغير مشاعرها وطباعها.. لقد أصبحت على علاقة من الصداقة مع أصحابها دون غيرهم من سائر الناس، لقد اعتادت صيد الحيوانات الضارية أو مطاردتها إذا ما اقتربت من القرى

واستحالت فى الواقع إلى ذلك النوع من الكلاب الذى نعرفه اليوم، فإذا ما تاهت أحست بشعور من عدم الرضا حتى تعود إلى أصحابها.

وكلما تقدمت الأيام استحالت هذه الكلاب الأليفة إلى شىء يختلف فى مظهره أيضاً، ولم تعد تشبه ابن آوى أو الضبع كما كانت من قبل.

لقد أصبح لكل قرية كلاب خاصة بها ليست فى إفريقية وحدها، بل فى جميع أنحاء العالم ولكن الكلاب الضارية بقيت كما هى مخلوقات سيئة الطباع لا تحب كثيراً غيرها من الحيوانات ولا يحب بعضها بعضاً.



كيف تصنع الأعداء؟

إن أشد ما يقع فى الغابة شناعة ورهبة النار، ذلك أنه ليس ثمة طريقة لإخمادها فكل شىء فيها يفنى، فالحيوانات التى لا تستطيع الفرار سريعاً يغلبها الدخان فتحترق أو تختنق.

وفى ذات يوم تجتاح الغابة نيران شديدة يفر من هولها الحيوانات تجاه الشاطئ ويستطيع معظمها السباحة فتصل إلى الشاطئ الآخر فى أمان.

أما تلك التى لا تعرف السباحة كالقردة فقد تتعلق بغيرها من كبار الحيوانات فتحملها على الماء، والأرنب مثله كمثل القردة لم يكن قادراً على السباحة ولكنه يختلف عنها فى أن أحداً يستطيع أن يحمله ولكن أحداً لم يكن راغباً فى حمله إلى الشاطئ الآخر لأنه حيوان ماكر يعرف كيف يفيد من كثير من البسطاء.. لذلك فهو يذرع شاطئ النهر ذهاباً وجيئة ضارعاً إلى عديد من الحيوانات أن تعبر به النهر، ويطلب أول الأمر من الأسد الذى يزمجر بعد أن يلقى بنفسه فى الماء قائلاً:

- اغرب عن طريقى.

ثم يحاول مع الفيل لكن الفيل وقد تعلقت به مجموعة من القردة يهز خرطومه مستأنفاً المسير ويقترب الأرنب من الفهد الذى يرد عليه مزمجراً ويقذف بنفسه فى الماء، وأخيراً يقترب من كلب متوحش ولكنه يتجاهله وينأى عنه لأن الأرنب كان قد خدعه من قبل.

وأخيراً يرى الأرنب قارباً صغيراً يرسو قريباً من شاطئ النهر، لقد كان أمله الوحيد فى النجاة أن يجد شخصاً يفر من النار عن طريق هذا القارب.. لذلك فهو يزحف مختفياً تحت لفافات الحصير الملقاة فى قاع القارب، ويرقد ساكناً بينما تقترب منه النيران شيئاً فشيئاً، ويحس الأرنب قصيف اللهيب فى اللحظة

التى يستسلم فيها للهلاك.. ويسمع وقع أقدام مسرعة ويندفع رجل وزوجته من بين الأشجار نحو القارب ويلقى كل منهما بنفسه فيه، وفى لحظة كانا يجدفان فى قوة عارمة نحو الشاطئ المقابل ويلتقط الأرنب أنفاسه مطمئناً حتى إذا وصل القارب إلى الشاطئ يقفز منه هارباً.

ومع ذلك فالأرنب ليس بالذى ينسى الأذى، لقد أقسم أن ينتقم من أولئك الذين أبوا أن يحملوه إلى الشاطئ الآخر، فلذلك فهو ينطلق باحثاً عن الأسد فيلقاه مستقراً فى كهفه غير راض عن نفسه فى مسكنه الجديد فيقول له:

- إننى فى الواقع مسرور إذ أراك وقد نجوت فى سلام من النيران.

ويزمجر الأسد إذ يستشعر شيئاً من الاضطراب حين يرى الأرنب يشير إلى هذا الأمر.. ويقول:

«شكراً لك».

ويواصل الأرنب الحديث:

- لقد هربت فى شىء كثير من الدعة والاطمئنان.. إن رجلاً كريماً حملنى فى قاربه.. إنه بالطبع لعسير أن يستقر بالمرء المقام فى مكان جديد، ولكن ماذا يفعل؟ إن النار إن لم تكن قد أتت على الدار القديمة فإن اللصوص لابد آخذون كل شىء فيها.

ويزمجر الأسدك أريد أن أرى لصاً يسرق شيئاً من متاعى.

ويرد الأرنب فى دهشة: ولكن واحداً فعل ذلك أفلا تعلم؟

- ماذا تعنى؟

- لقد مررت بالكهف القديم الذى كنت تأوى إليه والذى تركته فى اليوم الذى اندلعت فيه النيران فوجدت الفيل قد دمره تدميراً كاملاً.

وتميد الأرض تحت أقدام الأسد من زئيره.

- حسن.. آسف إذ أسبب لك هذا الاضطراب.. إننى واثق مما أقول لو كنت

مثلك ما فكرت فى الأمر أكثر من ذلك.. ومع ذلك فليس فى وسعك أن تفعل شيئاً.

- ها.. صحيح لا شىء؟

ويجلس الأسد مفكراً بينما يسر الأرنب سروراً شديداً من نفسه.. ثم ينطلق باحثاً عن الفيل فيجده تحت شجرة ضخمة ظليلة فيعلق قائلاً:

- ها.. هكذا لم تتحرك.

ويتساءل الفيل ماذا تعنى من كلمة «تتحرك» إننى هنا من أيام ومنذ شبت النيران.

فيقول الأرنب:

- أعلم.. لكننى سمعت الفهد يقول إنه ليس من الإنصاف أن تتخذ لنفسك هذه الشجرة مكاناً تنام تحته لأنها المكان الملائم الذى يريده هو وأنه إذا حاول النوم من فوق رأسك فإن شخيرك سوف يسهده.. لقد فهمت أنه سوف يطلب منك أن تترك المكان له.

ويدق الفيل المكان دقاً شديداً ثم يقول:

- حقاً.. يا للقحة بالتأكيد سوف لا أتركه.

وينطلق الأرنب باحثاً عن الفهد.

- أخشى أنك تعيش وقتاً حرجاً هنا.

ويرد الفهد موافقاً:

- إن الصيد هنا ليس جيداً وإننى أتوقع أن يظل كذلك لأن المكان جديد بالنسبة لى فإن تعودت عليه فقد تتحسن الأمور.

ويقول الأرنب فى شىء من العطف الظاهر:

- أخشى ألا يكون كذلك.. أعرف أن الكلب المتوحش مصمم على أن يقتلك جوعاً فيخلو له المكان.. إنه يفزع جميع الحيوانات التى لا يصطادها لنفسه..

لقد شاهدته هذا الصباح يطارد قطيعاً من الغزلان.

ويشتد غضب الفهد حين يسمع ذلك فيقول متحدياً:

- سوف أعلمه.. انتظر لترى ما أنا فاعل به.

وفى نهاية اليوم تنشب المعارك.. فالأسد يبحث عن الفيل وينقض عليه ويوشك الفيل أن يخنق الأسد وينطلق باحثاً عن الفهد ويوشك أن يخنقه أيضاً ويهرب الفهد فيقابل الكلب الوحشى فينقض عليه ويوشك أن يقتله.

من هذا اليوم فإن كل حيوان - بسبب خبث الأرنب وسوء طويته - لم يعد على وئام مع غيره من سائر الحيوانات، فالفيلة تعرف دائماً الوقت الذى يكون فيه الأسد مقيماً فى الأماكن المجاورة لها فتحس شيئاً من عدم الطمأنينة وتهاجم الفهود والفيلة أو أى حيوان آخر لهذا السبب، ويخشى الكلب الوحشى أن يهاجمه حيوان أكبر منه حجماً فهو لا يثق بأحد.

إن الأرنب وهو وحده الذى يعرف حقيقة الأمر مازال يتظاهر بأنه صديق للجميع.



ثعبان الغابة

فى كل قرية من قرى غربى إفريقية تقريباً قصة تتصل ببعض الحيوانات أو الزواحف أو الطير التى تعيش فى الأصقاع المجاورة زمناً طويلاً كالتمساح أو السلحفاة أو الثعبان، ذلك أن هذه المخلوقات تبقى على قيد الحياة دهوراً حتى تدركها الشيخوخة.

وهذه قصة ثعبان عاش دهراً طويلاً حتى إن أحداً لا يكاد يذكر متى ظهر أول مرة فى حياته، ولأن هذا الثعبان كان عجوزاً ماكراً ضخما فقد نسجت من حوله ألوان شتى من القصص، كان كثير من الناس يخشونه إلى حد كبير، ورغم هذا يبدو أن شيئاً كثيراً من هذه القصص كان مبالغاً فيه، ذلك أنه ليس ثم دليل واقعى على أنه قد أصاب أحداً بمكروه وفى الواقع كان غالباً ما يرد الجميل إلى الناس كما سنرى من قصة «يير والثعبان».

كانت «يير» فتاة جميلة وكان يعتقد كل إنسان أن الزواج منها لابد وأن يكون موفقاً ناجحاً حتى إذا جاء الوقت المناسب تزوجت من «ساكو»، ذلك الشاب القوى الوسيم الطلعة والعامل البارع، وكان الأمل قوياً أن يصبح الزواج سعيداً موفقاً مباركاً فيه، إلا أنه مع الأسف لم يكن كذلك، فلم يكد ينقضى عام حتى تأتى فتاة أخرى تدعى «تينو» لتعيش فى القرية مع عمتها، كانت «تينو» على جانب خارق من الجمال والمكر والكسل، ولقد عزمت على أن يكون زواجها موفقاً.. ولكنها رأت أن أكثر أهل القرية حسناً وسحراً هو ذلك الرجل الذى قد تزوج فعلاً وهو «ساكو» الذى كانت تريده لنفسها.

لقد كان مما ألف الناس من عادات فى بعض أصقاع إفريقية أن يقترن الرجل بزوجات كثيرات إذا كان أهلاً للاحتفاظ بهن لذلك قررت «تينو» أن تغرى «ساكو» باختيارها زوجة ثانية، كانت «تينو» الشريرة تنتهز الفرصة كل يوم

لتتحدث مع «ساكو» حتى أصبحت تربطهما شيئاً فشيئاً علاقة من المودة والصداقة وحتى إن «ساكو» قد صمم بعد شهور أن يقترن بـ«تينو»، لقد ضاقت «بير» بهذه العلاقة ضيقاً شديداً حتى إذا تم الزواج أحست أنه قد أصبح بالنسبة إليها شيئاً مكروهاً.. ذلك أن «تينو» قد راحت تفيد من مكرها لتحيل حياة «بير» تعاسة وبؤساً ولكى تتخلص منها.

إن «ساكو» لم يكن على بينة بحقيقة الأمور، ذلك أنه كان دائماً مشغولاً بعمله شغوفاً بـ«تينو» وكان يعتقد أن «بير» إنما تزيد الأمور سوءاً أكثر مما ينبغى لها أن تكون، واستطاعت «تينو» شيئاً فشيئاً أن تسمم عقله حتى أن «بير» أحست أن منزلتها فى نفسه أسوأ من منزلة العبيد الأرقاء، لذلك فقد ظلت فى دارها تنوح وتبكى بينما كانت «تينو» تشارك زوجها «ساكو» حفلات الأعياد والرقص، كانت كل الأشياء الطيبة تنفرد بها «تينو» دون بير كالطعام الشهى والملابس الفاخرة والجواهر والطرف التى كانت لها وحدها دون غيرها.

أصبحت «بير» كالمنبوذة فكانت تقضى معظم وقتها متجولة فى الغابة باكية، وفى ذات يوم كانت تحس شيئًا من التعاسة فى نفسها حين أقبل عليها عيد كبير ولم تملك شيئاً من الملابس الجديدة، لذلك فقد رأت أن من الخير لها أن تختفى عن الناس عن أن تبدو فى ثيابها القديمة بينما تفاخر «تينو» بتفوقها عليها، وتسرع بير لتدفن أحزانها فى الغابة المنعزلة فتجلس إلى جذع شجرة تبكى وتشهق، وإذا بها تسمع صوت رجل عجوز خشن النبرات يقول:

– لم تبكين؟

وتنظر «بير» من حولها فلا ترى أحداً ولكنها تنظر إلى أسفل قدميها فتلمح ثعباناً ضخماً يرمقها بعينين لامعتين فاحصتين كما لو كانا يعرفان كل شىء، وتحكى «بير» من خلال دموعها المنهمرة للثعبان الطريقة القاسية التى عوملت بها من كل من «تينو» و«ساكو» ثم تنهى قصتها بقولها:

– والآن أن جميع جيرانى يعرفون عن أمرى كل شىء وسوف أذهب إلى

الحفل بثيابى القديمة التى أخجل أن يلقانى بها أحد.

ويسأل الثعبان:

- وهل لا يمكنك الحصول على ثياب جديدة؟

- لا إن «تينو» تأخذ كل شىء أنها تدعى أننى دائمة عبوسة لا آلف الناس وأننى أريد ثياباً جديدة.

- لماذا لا تشرحين ذلك لزوجك؟

- لأن لى بعض الكبرياء.. لقد حاولت أن أشرح له ولكن دون جدوى.. إنه يظن أننى أغار.

- أعتقد أنك تغارين.

- بالطبع إننى كذلك.. ومن منا لا يكون غيوراً؟ فلو أنه عاملنى معاملة أكثر إنصافاً لصبرت، إنه القانون الذى يتيح للرجل أن تكون له زوجتان ولكنه ليس من القانون فى شىء أن يجعل من إحداهما ملكة ومن الأخرى أمة.

ويهز الثعبان نفسه فى قلق، وكانت هزته كحفيف أوراق الشجر الجافة التى تجرى على الأرض ثم يقول لـ«بير»:

- إنكم معشر الإنس يمكن أن تكونوا أغبياء قساة.. إن هذه الأمور لا تحدث فى عالم الثعابين.

- أصدق أنها لا تحدث.. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ إننى لست حية.

- لعل ذلك أسوأ مما تظنين.

ويطرق الثعبان مفكراً:

- ماذا تريدين أن تفعلى؟ اذهبى إلى الحفل فى ثوب جميل يثير لدى «تينو» شعور الغيرة حتى المرض وحاولى أن تجعلى زوجك يتودد إليك ويحبك من جديد.

وتومئ «بير» برأسها ثم تقول:

- هذا ما أريد أن أفعله، ولكنى لست أملك ثوباً فلذلك لا أستطيع.

- تعالى معى.

يقول الثعبان ذلك فى صوت بلغ من ثباته وقوته حداً لم تسطع «بير» معه إلا أن تتبعه وهو ينساب بين الأعشاب حتى إذا سار مسافة قصيرة يبدأ الثعبان فى الاختفاء فجأة برأسه، فجسمه ثم بطرف ذيله وتحملق «بير» على آثاره وتسأل نفسها كيف أنها كانت من الغباء بحيث تصدق ثعباناً وكل إنسان يعرف أن الثعابين ليست خليقة بالثقة.. وتتحدر الدموع على خديها مرة أخرى، ولكن الصوت الأجش ينادى: تعالى.. تعالى لا تمكثى هنا تبكين.. انحنى ثم عرجى.

وتنظر «بير» فترى غصناً صغيراً قد انحنى إلى الأرض من وقع جسم ثقيل مر عليه وتجد من خلف الغصن حجراً بين الصخور، كان هذا الحجر كبيراً بحيث يسمح لها أن تعرج فيه فتنزل فى ظلماته شيئاً فشيئاً، ثم تسأل نفسها إذا كان الثعبان قد خدعها بهذا النزول وفجأة يشرق النور مرة أخرى وتجد نفسها فى كهف كبير تضيئه فجوة من بين الصخور الشاهقة.

وتحملق «بير» حولها فى استغراب، إن جدران الكهف تبدو لها وكأنها قد اكتست بقماش لامع متعدد الأشكال بلون قوس قزح، وتنظر إلى هذه القطع الجميلة من الأردية اللامعة وتتساءل.. فيقول الثعبان:

- جميلة جداً أليس كذلك؟ إنها ثيابى القديمة.. إنها أجمل من ثيابك أليس كذلك؟

- رائعة.. إنها أروع ما شهدت من قبل.

- بالطبع إنها كذلك اختارى ما تشاءين.. خذى ثوباً واحداً تلبسينه فى الحفل.

- تعنى أنك سوف تعطينى واحداً؟

ويهز الثعبان رأسه:

- إنه ربما يسبب لك بعض المتاعب فى النهاية.. سوف أعيرك ثوباً.

وتنتحب «بير» قائلة:

- آه.. شكراً لك.. شكراً لك.

- إنك تسدين ثناء على أكثر لو كفكفت دمعك وظهرت جميلة ضاحكة وبهذا تسدين إلى ثيابى جمالاً وتقضين وقتاً طيباً فى الحفل.. والآن أى الثياب تختارين؟

وتمشى «يير» بين الثياب تتحسس بإصبعها جلود الثعبان الجميلة وتختار واحداً منها يحمل بين طياته جميع ألوان الشمس الغاربة.

- هذا الثوب من فضلك.. متى أرده إليك؟

- رديه فى غروب الشمس بعد ثلاثة أيام، فإن كان فى حالة جيدة فسيكون لك أن تقترضيه مرة أخرى فيما بعد أو غيره من بين الآخرين.

ويغلبها حسن الصنيع فتقول:

- شكراً.. شكراً إنك أسديت إلى جميلاً.

- لا أحب أن ينوح الناس من حولى فى الغابة فيقلقوننى فى ساعة غفوتى بعد الظهيرة إنه لشىء مقلق لى.. إن رأيت أن فى ارتداءك جلداً جديداً من ثيابى ما يغير سير الأمور تغييراً أفضل مما كانت عليه فسوف أنعم بإغفاءة هادئة.

- أؤكد أنك ستنعم بها.. سوف أرعى جلدك رعاية كاملة.

وينتفخ الثعبان قليلاً:

- أفضل ذلك.. إنك إن لم تفعلى فسوف أكون عليك ضداً.. إننى لم أقرض أحداً شيئاً من متاعى من قبل.

وتمر «يير» فى الغابة كما لو كانت تسير فى الهواء، لقد جاءها العون بلا شك من مكان لم تتوقعه، لقد جمعت مالها فى فكرة واحدة.. لو أن زوجها رآها كما تعود أن ينظر إليها فاتنة ساحرة مرحة، فإنه سوف ينتهى عن هجرها.

ومن جهة أخرى فإن «يير» تشعر أنها حين تأخذ جلد الثعبان إنما تقوم بمخاطرة كذلك، فمنذ كانت طفلة كانت تسمع عن ذلك الثعبان العتيد الخفى

ما فى صورة «يير» حتى إذا كان قد حدق النظر إليها- الأمر الذى لم يفعله- وكان يصدق حتى هذه الآونة كل ما كانت توجهه «تينو» إلى «يير» من نقد، وكان يعتقد أنها غيور عابثة، وأنه قد أخطأ أول الأمر حين تزوجها.

وينتهى وقت العشاء وتسعى «يير» إلى كوخها تترقب أن يذهب الآخرون إلى الحفل ثم تستمع إلى حديثهم وهم يمرون فيقول «ساكو» لـ«تينو»:

- أين «يير»؟.. أليست قادمة؟

- لقد قالت إنها لا ترغب فى المجىء.

ثم تكذب قائلة: إنها تشعر بعدم الرضا عن هذا الحفل.. ومن الخير أن تبقى فى الدار مادامت تحس بعدم الرضا.

ويقترح «ساكو»:

- ربما أجد أن من الخير أن أذهب للتحدث معها.

وتتساءل «تينو» فى عجب:

- لماذا تهتم بها؟ دعنا ننسى كل شىء عنها ونسعد بمن حولنا، إنك تعلم أنها تسبب لنا تعاسة ونكداً.

وتمسك «تينو» بيده وتجره فى الطريق إلى الحفل وتنهمر الدموع من عينى «يير» ولكنها تقاومها وتستحم وتصفف شعرها وتتزين بما تركت «تينو» من حلى ثم ترتدى جلد الثعبان وتنطلق إلى الحفل وقد بلغ فى هذه الأثناء أوج روعته، كانت «تينو» تشعر برضا تام عن نفسها وأنها أروع النساء فتنة وجمالاً، وكانت النساء يحسدنها ولا يتحدثن عن «يير»، ويبدو كذلك أن «ساكو» قد نسى كل شىء عن زوجته الأولى حتى أن «تينو» تردد فى نفسها وفى شىء من الشعور بالظفر فتقول:

- إن «يير» ربما لا تبقى على قيد الحياة.

ويسود المكان صمت وتلتفت «تينو» من حولها لتعرف ما حدث، وإذا بامرأة

تتصدر المكان وسط وهج النار وإذا هى تفرض على كل حاضر، الحفل أن يحملق فيها لاهثاً من فرط فتنتها، لقد كانت ترتدى من الملابس ما لم يعهده أحد من قبل.. كان الثوب الذى ترتديه يعكس فى وهج النار ألواناً متعددة فبدت كأنما زينت بالجواهر.

وتهمس «تينو» فى دهشة:

- إنها «بير».

وتستبد الدهشة بـ«ساكو» فيقف على قدميه ويتجه نحوها، الأمر الذى يثير حفيظة «تينو»، ويلتف الجميع حول «بير» متزاحمين متحدثين معها عن جمالها وعن سرورهم بالالتقاء بها مرة أخرى، ويقودونها إلى النار بين تساؤل الناس. ويمضى على ذلك وقت تمتلئ فيه «تينو» غيظاً وغضباً وتهجم على «بير» وتصيح:

- من أين لك بهذا الثوب؟ هل سرقته؟ أم سرقت شيئاً من مال زوجى لتحصلى عليه؟ إنه لمن الخجل أن تلبس زوجة فلاح مثل هذه الملابس.

وتجيب «بير» فى هدوء:

- لقد حصلت على هذا الثوب بأمانة وشرف.. إن «ساكو» لم يدفع له ثمناً من ماله.

وتصرخ «تينو»:

- لا أصدقك.. ساكو.. ابعث بها إلى الدار إنها تكذب.

وهنا يبدأ الناس يتخافتون فى حديثهم لأنهم كانوا يعرفون «بير» طيلة حياتهم ولأنهم لا يصدقون أن تأتى أمراً يشين سمعتها، فضلاً عن أنهم لا يؤثرون مواقف النزاع فى الحفل.

وتقول امرأة عجوز:

- إننا لا نرغب أن تتصرف «بير».. إن لم يكن فى وسعك يا «تينو» أن تكبحى جماح غضبك فمن الخير أن تنصرفى.

وتقول «تينو» فى ثورة:

- حسن.. تعال يا «ساكو».

ولكن «ساكو» يسوءه ما بدا من «تينو» من تصرف مشين فيقول:

- سأجىء فى الوقت المناسب.. أعتقد أن من الأفضل أن تتصرفى الآن.

ويمشى «ساكو» مبتعداً عن تينو التى لا تجد شيئاً تفعله سوى أن تعود إلى الدار وحدها، وما تكاد تتصرف حتى يتخذ «ساكو» مجلسه بجوار «يير»، لقد وجدها فاتنة تحلو معاشرتها.. لقد بدأ يحس أنه قد أساء الحكم عليها وأنه قد أذن لـ«تينو» أن تؤثر عليه تأثيراً لم يكن يحس به من قبل ولكنه لأول مرة منذ عرف «تينو» يتخلص من سحرها.. ويحاول «ساكو» فى نبرات متعثرة أن يبدى لها أسفه على الطريقة التى كانت تعامل بها من جانبه، لقد شعر جيرانهم بأنهم قد أهملوا «يير» أخيراً فحاولوا أن يكفروا عن خطاياهم.. ويستمر الحفل فى شىء من البهجة والسرور فيأكلون ويشربون ويرقصون ويستمتعون بكل ما يحلو لهم.

ويعود «ساكو» و«يير» بعد الحفل إلى الدار ويبذل لها الوعد أن يعاملها مستقبلاً بوصفها الزوجة الأولى، وإنها إذا لم تلق التوقير من «تينو» فسوف يعيدها إلى أسرتها، وهكذا يبدو أن الخطة التى رسمتها «يير» لاسترجاع مكانتها فى قلب «ساكو» قد صادفت نجاحاً كاملاً.. لقد كانت «يير» رحيمة رقيقة، لذلك فإنها تقول لـ«ساكو» إنها على يقين بأن الزوجة الثانية لم تكن لتتعمد القسوة وأنه ينبغى عليهم جميعاً أن يحاولوا العيش فى هناء.

ورغم ذلك فإن «تينو» لم تكن لتشاركها هذه الرغبة، ذلك أنها ما كانت تصل إلى الدار فى سورة من الغضب الجامح حتى راحت تمزق كل شىء تصل يدها إليه وتحطم جميع أوانى المطبخ، ثم تلقى بنفسها فى غضب تعض أناملها، لقد كانت تأمل أولاً أن يصحبها «ساكو»، ولكنها حين رأته يسير إلى جوار «يير» عائداً بها إلى الدار، كان غضبها عنيفاً لا يقف عند حد، وقررت الانتقام من «يير» مهما كلفها ذلك.. وتستيقظ من نومها فى هدوء وتصغى إلى «ساكو» وهو يتحدث مع «يير»:

- ربما أجد أن من الخير أن أقول لك من أين جئت بهذا الثوب الجميل.

وتقص «بير» عليه قصة الثعبان بأكملها.. وما تكاد «تينو» تسمع الحديث حتى تدرك أن الفرصة التى تتمناها قد سنحت لها.

إن الثعبان العتيد معروف للجميع، لقد كان يخشاه كل إنسان ويوقره، لقد اعتاد الناس أن يقدموا له فى الغابة الهبات والقربات إلا «تينو» فما كانت لتفعل مثلهم لأنها كانت جشعة إلى حد كبير، وكانت على قدر من الجبن فلم تجترئ على الاقتراب منه، ولم يكن هذا فى الواقع غريباً منها ذلك أن كثيراً من الناس قد حاولوا التسلل إلى كن الثعبان وسرقوا جلوده ولكنهم هلكوا.

إن «تينو» تعلم عن بينة أنها لو استطاعت أن تحطم الجلد فإن «بير» لا محالة هالكة، وتنتظر «تينو» حتى تنام «بير» ثم تسعى إلى الكوخ فتأخذ الفأس وجلد الثعبان ثم تتنحى مكاناً قصياً فى الغابة وتشطر الجلد إرباً وتدرك فى نفسها أن «بير» سوف يصيبها الرعب فلا تعيد الجلد إلى الثعبان قطعاً متناثرة وأن الثعبان بدوره سوف ينتقم من القرية كلها، وهى بهذا سوف تعمل على ألا تبقى فيها عندما يأتى الثعبان إليها، فتجمع متاعها حتى إذا استيقظ «ساكو» من نومه كان كل شىء قد أعد للرحيل فتقول له:

- إننى ذاهبة لزيارة عمى.. إنه قد أصابنى ما أكره.. وأسىء إلى بما حدث الليلة المنصرمة وأفضل أن أترك الدار فترة من الوقت.

لقد توقعت أن يحاول «ساكو» أن يثنيها عن عزمها ولكنه كان راضياً تمام الرضا عن هذا الحل المؤقت لمشكلة قائمة بين زوجتين.. وزاد فى إزعاجها قوله لها إن زيارتها لعمها تبدو فكرة سليمة.. إن «تينو» لم تكن راضية عن هذا التصرف ولكنها لا تجد شيئاً فى وسعها أن تفعله لذلك فهى تتصرف.

وتصحو «بير» من نومها مملوءة أملاً وهناء، وتبدأ فى إعداد الطعام لزوجها، وما تكاد تنتهى من تنظيم الكوخ حتى تأخذ فى البحث عن جلد الأفعى، فتكتشف أنه قد ضاع فتندفع فى يأس إلى خارج الكوخ، وهناك تجد الجلد

ويصيح آخر:

- دعوا «تينو» تعيده، إنها هى التى حطمته، إنها هى التى أثارت المتاعب.. أين هى؟

ويرد «ساكو»:

- انصرفت.. انصرفت لتزور عمها.

- الخائنة.. لقد ظننت أن الثعبان سوف ينتقم منا جميعاً.

وبينما الناس يتحدثون إذا بـ«بير» تجمع شتات الجلد بين ذراعيها وتعود إلى الغابة، ويصرخ «ساكو»:

- قفى يجب ألا تذهبى.

- إننى أعلم أن تينو ملومة على ما فعلت وأعلم كذلك أن بعض اللوم يقع عليك، ولكننى أشعر أن معظم اللوم يقع علىَّ، كان يجب علىَّ أول الأمر ألا أقترض الجلد، فإن شاء الثعبان أن يقتلنى فلا تثريب عليه.

ويحتج الزوج:

- لا يسعنى أن أسمح لك بالذهاب.

- يجب عليك أن تدعنى أذهب.

- لا.. إننى ذاهب أيضاً.

ويصيح الرجل العجوز:

- لا نستطيع أن ندع أصدقاءنا يذهبون وحدهم، هيا نذهب جميعاً.

ويتشكل منهم جميعاً موكب كئيب وينطلقون إلى الغابة حتى إذا بلغوا شقاً بين الصخور تأتى «بير» فى عنف أن تسمح لهم بالتقدم إلى أبعد من هذا المكان.. وتقول:

- إنكم قد أدخلتم السعادة على نفسى.. وكذلك فعلت أنت يا «ساكو» ولكنها الآن مهمتى وعلى أن أضطلع بها بنفسى.. ومهما حدث فلن أشعر أننى غير سعيدة لأننى أعلم مقدار حبك لى وثقتك بى.

وما تكاد تنتهى من هذا الحديث حتى تتحدر إلى الفجوة بين الصخور وتختفى، وينقلب «ساكو» وأهل القرية على وجوههم يبكون.

وتسير «بير» فى النفق المظلم حتى ترى النور فتنادى:

- هل أتقدم؟

يرد الثعبان فى دهشة:

- بالطبع.

وينظر إلى «بير» فى شىء من الدهشة.. بينما تتلعثم وتنتحب وتقص عليه ما وقع وتريه الجلد الممزق وتنهى حديثها معه قائلة:

- لا أظن أنك ستصدقنى.. أعتقد أنك ستنسب إلىَّ الإهمال، وأننى قد تركت الجلد حتى استطاعت «تينو» أن تصل إليه فى يسر.. ولكننى لم أفعل.. والآن افعل ما يحلو لك واقتلنى إن شئت.. ولكن لا تؤذى «ساكو» أو قومه.

وبينما كانت «بير» تتكلم كان الثعبان ينتفخ ويكبر شيئاً فشيئاً.. وكانت عيناه تلمعان بشرر أحمر حنقاً وغيظاً ويقف فى صمت كما لو كان منقوشاً على صخر، لقد اعتقدت «بير» أن منظره أروع شىء صادفها فى حياتها وتخفى عينيها وتستسلم لمصرعها، كان قلبها يدق عالياً حتى لقد كان عسيراً عليها أن تسمع الثعبان حين راح يتكلم:

- أصدقك.. أصدقك.. لأن قليلاً مما حدث لا أعلم عنه شيئاً، إن «تينو» كانت جشعة راغبة فى الانتقام.. إنك لتعلمين أنها لم تقدم لى مرة قرباناً، وأعتقد أنها ستدفع الثمن غالياً الآن.

وتتنهد «بير» وهى تقول:

- هل أنت فاعل شيئاً لتقتلها؟

- لن أقتلها إن ظلت كما هى الآن.. إنها لن ترضى بما هى عليه، ولكنها إن حاولت فى يوم ما أن تعود إلى هذه البقاع مرة أخرى فسأقتلها بالتأكيد.

- وماذا عنى؟ إننى على استعداد لتقبل اللوم.. ولكن أرجو أن تعفو عن زوجى وقومى.

- وما ظنك بى.. إنسان حى؟.. هل بلغ بى الغباء بحيث أحب أن أعاقب زوجك وقومك؟

- شكراً لك.. شكراً لك.. افعل بى ما تشاء.

ويرد الثعبان:

- إننى الآن فى سبيل إلى أن أصبح شيخاً عجوزاً كسولاً.. وأحب أن تقدم لى أحياناً القرابين.. إننى أعهد إليك أن تراقبى وصولها إلى.

وتستغرب يير منه ذلك فتقول له:

- تعنى أنك ستأذن لى بالانصراف؟

- أجل إنك لست ملومة على ضياع جلدى، لقد كان على كل حال واحداً من أضل الجلدين اللذين أملكهما.

وتقفز «يير» على قدميها فى نشوة:

- إنك مدهش.. إننى سعيدة.. إننى أسعد إنسان فى الوجود إننى مدينة لكل بكل شىء.

وتكسو الثعبان من فكيه حتى طرف ذيله حمرة غامرة من الحيرة والاضطراب وتحملق يير فيه بدهشة.. ويقول لها فى خشونة:

- حسن لقد كانت هذه متعتى.. أخبرينى إن أردت فى وقت ما أن تقترضى ثوباً آخر ولكن عليك ألا تمزقيه.

وتستدير «يير» إلى النفق بعد أن أعربت للثعبان عن شكرها وتمضى مسرعة بكل قواها وتخرج فتجد «ساكو» وقومه على الأرض يبكون وتضحك «يير» ويصرخ القوم فتخبرهم بما حدث لها. فيهللون شاكرين للثعبان وينقلبون

إلى القرية فى نشوة غامرة حتى إذا ما تاهت صيحاتهم يعود الثعبان إلى ما كان عليه ملتفاً حول نفسه فى طمأنينة وتذوى عن فكيه وجسده احمرارهما حتى ترف فى ذيله آخر ومضة منه، لقد أصبح لونه مخضراً ثم فى لون الذهب بعد ذلك، لقد بدأ يحس بالرضا والاطمئنان ثم يخطو لينام ولكنه تذكر أن يقول شيئاً لـ«يير» عندما يراها مرة أخرى وهو أن جميع الثعابين ليست مثله، وأنه ليس من الخير أن يصبح الإنسان على صداقة وثيقة بالثعابين.



ليس للفهد أصدقاء

إن السلحفاة ماهرة وماكرة.. كانت سلحفاة تدعى «باسو» تعيش على مقربة من شواطئ نهر بينو وكانت فى الواقع ماهرة إلى حد كبير، ففى الموسم حين يكثر السمك كانت تسعى للصيد كل يوم، وكانت تعود بحمل ثقيل منه، وكانت تحرص على ألا يشاركها أحد فى صيدها من جيرانها وعلى الأخص الفهد صاحب الشهية العظيمة. فكانت ترى ألا يكون له حظ منها. لذلك فهى حين تظفر بصيدها تخفى نصيبها من الصيد وتعود إلى دارها حاملة على ظهرها سلة مغطاة كبيرة من السمك مثل حجمها، كانت ترى الفهد دائماً على بعد منها وهى تعود إلى دارها، ويظل الفهد عدة أيام ينظر إلى السلة فى تطلع ولكنه لم يقترب منها.. وكانت السلحفاة تتظاهر بأنها لا تراه ورغم ذلك يثور فى الفهد حب الاستطلاع فيوقف السلحفاة متسائلاً فى أدب جم وقد اهتزت شواربه الفاخرة من فرط اضطرابه.

- هل لى أن أساعدك فيما تحملين؟

وتهز السلحفاة رأسها:

- لا شكراً لك.. إننى أستطيع أن أعالجه بنفسى.

- ولكننى فى الواقع أحب أن أساعدك.. ألاحظ أنك تحملين هذه الأثقال وحدك فى أغلب الأحيان وأشعر.. بأن أحداً لابد أن يمد إليك يد المساعدة.. دعينى أحمله منك مسافة ما.

وتحتج السلحفاة قائلة:

- لا.. إننى فى الواقع لا أفكر فى ذلك.

ويقول الفهد فى إصرار:

- ولكننى أصر.. ينبغى أن نكون جيراناً أوفياء.

وتحزن السلحفاة وإذا بدمعتين كبيرتين تتهمران من عينيها وتهز رأسها مرة أخرى:

- إننى فى الواقع لا أستطيع أن آذن لك بذلك.. إنك ترى أن لى قريباً هنا.. قريباً ميتاً.. أوشك أن أدفنه.

ويصاب الفهد بصدمة:

- يا عزيزى.. آسف كم يكون ذلك مؤلماً لك.. أرجو ألا يكون قريباً وثيق الصلة بك.

وتقول السلحفاة فى صوت محتبس:

- ابن عمى.

ويتساءل الفهد:

- وهل حدثت وفاته فجأة؟

فترد السلحفاة: «نعم».

ويبدو الفهد عطوفاً ثم مرتاعاً:

- أقول إنك لا تقصدين إفهامى أنك فى كل مرة أراك تحملين هذه السلة الكبيرة تدفنين قريباً لك فى التراب؟

وتومئ السلحفاة برأسها وقد أطلقت انتحابة فى وقتها:

- أخشى أن يكون كذلك.. إن أسرتى المنكوبة تبدو سيئة الطالع.

ويستغرب الفهد ذلك فيقول:

- وإننى رأيتك أمس والثلاثاء الماضى ومرتين فى الأسبوع المنصرم.

وتبدو السلحفاة كمن أصيب بطعنة نافذة.. إذ كانت كذلك فى الواقع حين أدركت أن الفهد كان يراقبها عن كثب.

- صحيح.. الوالدان، عمى، عمتى.. والآن ابن عمى وكلهم قضوا نحبهم.

ويتراجع الفهد إلى الوراء قليلاً:

- أقول إنها ليست عدوى، أليس كذلك؟ أعنى أنه إن كانت عدوى فإنك أنت أو أى فرد منا كان يمكن أن يصاب بها.

وترتاع السلحفاة.. فليس من الخير أن يجبر على النزوح من مكان يكثر فيه صيد السمك وتقول فى عجلة:

- لا.. ليست هناك عدوى.. إنه شىء متصل بالأسرة.. إننا نموت كما تذبل أوراق الشجر فى الفصول العجاف من العام.. كالأوراق تماماً.. آه.. ما ينبغى لى أن أشق عليك بمتاعبى.. لذلك فسوف أنصرف.

ولكن الفهد يعترض طريقها.

- لا يا عزيزتى.. لا.. إنك احتملت هذا الأسى وحدك ولم يساعدك أحد منا.. اعطنى السلطة أحملها عنك مسافة قليلة.

وقبل أن تستطيع السلحفاة منعه كان الفهد قد حملها على كتفه ثم سألها:

- إلى أين المسير؟

وتقوده إلى الطريق وقد استشاطت غيظاً وقد قدمت بين يديه كل حجة يمكن أن تخطر لها على بال.. لكى تغريه بالابتعاد عن السلة، ولكنها كلما احتجت ازداد الفهد إصراراً وعناداً، وإذا السلحفاة تضطرب أشد الاضطراب وتجد نفسها دون أن تدرى تقود الفهد إلى نفس الدائرة وتعود به إلى البقعة التى التقت به عندها أول مرة.

ويرتاب الفهد:

- بالتأكيد إن هذا لأمر عجيب.. هل تقصدين أن تورى ابن عمك التراب هنا.

- أجل.

وترد السلحفاة فى قنوط وقلب كسير حين ترد على خاطرها فكرة السمكة الجميلة التى ستغيب فى باطن الأرض الصلدة.

ويجيب الفهد:

«حسن».

ثم يلقى بالسلة على الأرض ويشرع بمخالبه الضخمة فى حفر قبر ثم يسحب السلة تجاه الحفرة، لقد كان هذا شيئاً خطيراً بالنسبة للسلحفاة الجشعة فتصرخ فى ولولة.

- قف.. قف..

ويتساءل الفهد:

ما وراءك؟

وتبدو الكآبة على السلحفاة فتقول:

- سأقص عليك الحق.. إن ابن عمى ليس فى السلة.

- ابن عمك لم يمت إذن.

- لا أدرى.. إننى لم أره من عشرين سنة مضت.

- أو عمك.. أو عمتك؟

- لا .. لقد ذهبا إلى النيجر انتجاعاً للراحة وتغيير الهواء.

ووالداك؟

- لقد احتفلا فى الأسبوع المنصرم بعيد زواجهما الماسى.

وما فى السلة إذن؟

- سمكة.. سمكة خاصة جداً.. إنك ترى أننى قد أعددت طعامى من السمك.

ويرد الفهد فى عبوس:

- تعنين أنك قد أعددت لنفسك وجبة من السمك.

- أجل ولم لا؟ إنه غذاء مفيد للعقل.. إن صيد السمك ليس عملاً هيناً.. إنه يحتاج إلى صبر وجلد.

- قررت ألا يشاركك أحد من جيرانك فى هذا السمك؟

وتنظر السلحفاة وتقول فى منطق سليم:

- ولم أشاركهم؟.. إن أكثرهم كسالى ولست أرى أن من حقهم على إطعامهم، أما فيما يختص بك أنت فالأمر مختلف بالطبع.. لقد كنت كريماً معى إلى حد بعيد إذ تقدمت لمساعدتى كما فعلت ويسعدنى أن أقتسم السمكة معك.

ويرد الفهد فى خشونة:

- إنه كرم منك.

- عفواً.. إنه ليسرنى ذلك غاية السرور.. انتظر حتى تذوق السمكة مطهوة.

ويسأل الفهد:

- وما وجه التخصص فيها؟

- التوابل والأعشاب يا عزيزى.. والآن انظر سآخذ السمكة إلى دارى وأعدها وعليك أنت أن تذهب لإحضار بعض الأعشاب التى تكسب الطعام نكهة ومذاقاً، إن أجودها ما يجلب من تلك الأرض المشمسة التى تقع وراء القرية، وبعدها سنسعد بطعام شهى.

ويرتاب الفهد فى حديثها.. ولكنه ينطلق لأنه يعرف أين يجد السلحفاة إن حاولت أن تخدعه، وأن يحطمها كما يحطم الذبابة، لقد هنأ نفسه على ذكائه ومهارته، لقد كان يشك فى أن السلحفاة تنوى أمراً ترتب له وها هو الآن قد جعلها تعمل بأمره وسلطانه.

وتتنفس السلحفاة الصعداء حين ترى الفهد يخطر فى مشيته.. إن ما

أشارت به عن الأعشاب الخاصة بالطبع لم يكن إلا هراء لا معنى له.. ولكن الأعشاب لن تحدث ضراراً إنها تنمو فى الواقع، حيث أشارت على الفهد أن يذهب، وبينما هو يسعى بعيداً عنها، كان لدى السلحفاة متسع من الوقت لتدبر أمراً جديداً تحول به بين الفهد وبين اقتسامه السمكة معها.

وإذ يعود الفهد حاملاً الأعشاب كانت السلحفاة قد أعدت قدراً كبيراً يهدج على النار فتنبعث منه رائحة السمك الزكية وتنفجر السلحفاة قائلة:

- آه.. الأعشاب.. ؟ ما أروعها وما أعظمها وليمة تلك التى سنقيمها.

ثم تلقى فى مرح بنتف صغيرة من العشب فى القدر وتستنشق بخار الطعام المتصاعد منه كما لو كان عبيراً مؤرجاً.

ويسترخى الفهد مقرقراً وقانعاً.. إن فكرة وجبة السمك شىء عظيم؟ إن السلحفاة ستسعى كل يوم لصيد السمك فى المستقبل ولكن ليس لنفسها فحسب.

ويؤكد لنفسه: سيكون لى وجبة خاصة من السمك وسيكون للسلحفاة ما يفضل منها.

ولكن السلحفاة كانت تطيل التفكير فى سورة من الغضب حتى استقر رأيها على أمر فتقترح على الفهد:

- انظر.. لماذا لا نتمشى قبل الغداء؟ إن ذلك يثير فينا شهية للأكل.

- لم لا؟

ويرحب الفهد بالفكرة وينطلق متجولاً فى الغابة.. وتسأل السلحفاة بعد برهة:

- هل لعبت لعبة الأسود هو الأبيض؟

ويرمقها الفهد فى تطلع:

- لا.. لم أسمع بها من قبل.

- حسن.. إن أحكام اللعبة بسيطة، إن الشىء الذى تتذكره هو أنه إذا قيل

لك شيء فإنك فى الواقع تفعل عكسه.. هب أنك شددت وثاقى إلى شجرة وناديتك: شد بقوة أكثر.. أكثر.. فإنك سترخى فى الواقع وثاقى.. وإن ناديتك: ارخ.. ارخ.. فإنك تجيب بكلمة ارخ ولكنك ستشد وثاقى بقوة أعظم.

ويقول الفهد:

- يبدو ذلك بلهاً.. إنه أمر بسيط للغاية.

وتؤكد السلحفاة:

- يبدو ذلك شيئاً بسيطاً.. إنها فى الواقع لعبة تحتاج إلى ذكاء.. إن مثار الدهشة هو فيما تقوم به وقت أن يصيبك الاضطراب.

- هراء.. إننى واثق من أننى أستطيع القيام بهذه اللعبة ساعات دون أن أخطئ.

- حسن.. فلنجرب.. هذه شجرة.. وهذه النباتات المعروشة عليها الآن.. عليها أن تجذبها من الشجرة وسأسمح لك أن توثقنى بها.

- جنون.. ويهدر الفهد ثم يشرع فى جذب حبال النباتات ويوثق السلحفاة إلى الشجرة ثم تناديه:

- ارخ قليلاً.. قليلاً.

ولكن الفهد يتكلف المزاح ثم يشد الوثاق أقوى مما كان.

وتزعق السلحفاة:

- اشدد بقوة.. اشدد بقوة.

ويزمجر الفهد.. اشدد بقوة، ولكنه يرخى الحبال.

وتعلق السلحفاة على ما حدث قائلة:

- جميل جداً.

وتنقضى دقائق عشر دون أن يخطئ الفهد مرة واحدة ولو أنه ظل يلهث ويقول:

- لعبة طفل.

وتقترح عليه السلحفاة:

- والآن سنرى إن كنت أنا مثلك فى حسن المعاملة.

- يجب أن تكونى كذلك.

ويتكئ الفهد على شجرة كبيرة وتشرع السلحفاة توثقه بالحبال بأسلوب الواثق المطمئن حتى لم يعد قادراً على التقاط أنفاسه.

- ارخ قليلاً.. ارخ قليلاً.. ثم يلهث ناسياً أحكام المباراة.

وتصيح السلحفاة:

- ارخ قليلاً.. ارخ قليلاً.. ولكنها تشد الحبال بقوة حتى إن الفهد لم يقو على الحراك.. وتدنو منه وتقول مازحة:

- لقد خسرت المباراة وخسرت العشاء.

- آه.. إن العشاء لا يعنينى.. اطلقى سراحى من هنا.

- أعتقد أنه خير لك أن تبقى حيث أنت.. أستودعك الله.

- ارجعى.. ارجعى.. كفى عن هذا المزاح.. إنك لا تستطيعين أن تتركينى هنا.

- أو لا أستطيع؟

ويشتد صراخ الفهد:

- سأموت جوعاً وعطشاً.

- محتمل.

وتستدير السلحفاة وتعود إلى أعشابها إلى أكبر عشاء وأزكاه، لم تأكل مثله طيلة حياتها.. وتقول فى سخرية وهى تفكر فى الفهد الموثوق إلى الشجرة.

- الأمخاخ قبل عظام الرأس.

وفى الغابة يزمجر الفهد أول الأمر فى وحشية ويصارع فى جنون، ولما لم يجد ذلك.. راح يستغيث مستعطفاً.. ويقبل جميع من فى الغابة من الحيوانات عليه مذعورين يرمقونه فى حذر وحرص ليروا ما وراء هذه الصرخات.

وينادى الفهد ظبياً:

اطلق سراحى.. اطلق سراحى.

ولكن الظبى يطلق ساقيه للريح وليس ثم من يغريه بالدنو من الفهد عدوه الأزلى المبين.

ويستعطف الفهد الحمار الوحشى:

«اقرض الحبال بنابك.. سأموت ظمأ».

ولكن الحمار الوحشى يهز رأسه وينطلق راكضاً إنه يعرف الفهد من عهود.. وكذلك كان الحال مع خنازير الغابة التى كانت ترتع مزقزقة ومع البقر الوحشى.. ذلك الحيوان الضارى التى طالما التقى مع الفهد فى قتال قبل الآن وحتى الخفافيش الفارعة.. إن الفهد لم يعد له أصدقاء.

وفى ظلمة الليل يسمع الفهد صريراً نحيلاً قريباً من قدميه هو صوت القنقجو، ذلك الحيوان الضئيل الذى يسرح فى الغابة ليلاً:

- ماذا أصابك؟

- ألا ترى أننى موثوق إلى الشجرة هنا أموت جوعاً وظمأ.

ثم يقول فى لهجة آمره: «فك وثاقى».

- إن فعلت ذلك فستقتلنى.

- لن أفعل.. لن أفعل.. إننى أقطع على نفسى عهداً مقدساً.

وإذا القنقجو لا يرد عليه، وإذا الفهد يبذل العهود ويزجى الاحتجاج، فيقرر القنقجو الذى عرف بطهارة القلب أن يمد له يد المساعدة، ويأخذ فى نقب

حفرات عميقة من حوله ويزمجر الفهد:

- ماذا أنت فاعل الآن؟ لماذا تنفق وقتك هباء.

- إننى أصنع حفراً عديدة حتى أستطيع الفرار فى اللحظة التى أطلق فيها سراحك.. لست أثق بك.

ويتأوه الفهد ملقياً مزيداً من الحجج والأعذار الزائفة ذلك أنه سيموت جوعاً، وقد يصبح لقمة سائغة وما كان الحيوان الصغير يعد حفر الهروب حتى بدأ يقرض بأسنانه قيود الفهد.. لقد أخذ ذلك وقتاً طويلاً بينما كان الفهد يرقبه فى حرص، وقد استعد للانقضاض عليه، وتسقط القيود إلى جانبه وفى لحظة كان الفهد يهيم بالانقضاض عليه بعد أن يصبح طليقاً.. لكن القنقجو كان أسرع منه فيركض هارباً بعد أن ترك الفهد آثار مخالبه الأربعة على ظهر الحيوان المسكين.. وبينما كان يندفع داخل حجره يقرر بينه وبين نفسه ألا يثق بأحد بعد، وأن يخبر أبناءه من بعده بألا يفعلوا ذلك.. ومن هذا الوقت وأحفاده لم يعودوا يثقون بأحد حتى بأكثرهم عطفاً من البشر وأن ظهورهم الآن لتحمل علامات أربع تشبه آثار مخالب الفهد.

وينطلق الفهد فى طريقه إلى البركة التى منها يشربون ثم راح يبحث عن السلحفاة الماكرة ولكنه لم يجدها، ذلك أن السلحفاة حين سمعت بما حدث انطلقت تلحق بأقربائها على شاطئ النيجر وينقل القنقجو الصغير إلى كل فرد كيف أن الفهد قد حاول قتله، وإذا جميع الحيوانات فى الغابة تتحاشى الفهد أكثر مما كانت تفعل من قبل، ومنذ ذلك الوقت والفهد لا يجد له بين الحيوانات صديقاً.



النحل والجاموس

إن الجاموس واحد من أكثر حيوانات الأجمة فى إفريقية خطورة ونفوراً، فإذا تسللت واحدة منها إلى محاصيل الغلال أو الحدائق داستها بأقدامها، وإن ظنت أن أحداً عدو لها طاردته فى حذر وذهاء ثم هاجمته من الخلف، وإن شرعت فى التجول قريباً من القرية أثار هذا كثيراً من المتاعب.

زعموا أن فصيلة قوية من هذه الحيوانات كانت قد ملت الحياة فى مكانها فهجرته إلى مكان آخر فيه غابات وأنهار وقرى وفيرة المحاصيل، كانت الوحوش فى هذه المنطقة تعيش هانئة لا تشكو نقصاً فى الطعام، وكانت الحياة فيها رغدة إلى حد كبير.

كانت السلحفاة تأخذ مكانها على شاطئ النهر وكانت الغزلان تجوب الغابة والأرانب تقرض شيئاً من الغلال وكان الخير عميقاً حتى إن أحداً لم يكن ليعبأ بشىء، كانت ثم أخطار بطبيعة الحال كالتى تقع غالباً فى الأجمة. فكان الناس يحذرون الثعابين ولم يكن ليجترئ على الاقتراب من الأسد أيضاً ولكن أغلب الوحوش كانت على علاقة طيبة ببعضهم بعضاً.

ويتسلل الجاموس، فإذا بالمتاعب تبدأ فى الحال، فتدوس بحوافرها محاصيل الغلال وتطأ بأقدامها صغار الحيوانات دون أن تحس بها وتتمرغ فى الطين على شاطئ النهر وتفر أسرة السلحفاة بحياتها ولا ينجيها من الهلاك إلا أصدافها السميكة.

كانت قطعان الجاموس فى هذا الوقت يحكمها زعيم، وكان قائداً كبيراً ماكراً عجوزاً ولكنه كان مستبداً بشكل رتيب. فما كادوا يحلون بالمكان ردحاً من الزمن حتى وقعت خسائر بلغت فداحتها حداً جعل الوحوش الأخرى تعقد اجتماعاً فجلسوا جميعاً يحاولون أن يقرروا ما يفعلون. أما السلحفاة التى كانت

مثلاً فى الهدوء فقد اقترحت أن يتحدثوا إلى زعيم الجاموس مبينين له مدى الخسائر التى نجمت عنه وعن أسرته، وينظروا إذا كان يمكن إقناعهم أن يكونوا أكثر رعاية لغيرهم، وينطلقون باحثين عن الزعيم العجوز فيجدونه فى إغفاءته فيقول الغزال:

- إننا إن أيقظناه فقد يحدث ذلك عكس ما نرجو، أعتقد أن من الخير أن نؤجل الأمر.

ولكن الأسد يقول:

- هراء.. إننا بعد أن قطعنا هذا الطريق نقول ما نقول الآن.

ويزأر الأسد منادياً:

- أيها الجاموس.

فيهب الجاموس من نومه مذعوراً ويرمق الوحوش القادمة إليه مغضباً ويقول:

- ماذا تقصدون من إيقاظى؟

- يؤسفنا كل الأسف أن قد أيقظناك من نومك.. لكننا قد جئنا من أقصى أطراف الغابة للتحدث معك.

- ماذا تريدون منى؟

وتقول السلحفاة:

- نطلب منك أن تكون أكثر رعاية لنا، يحتمل أنك لا تدرى كما سببت لنا من المتاعب دون قصد ولا شك.

وهنا يزمجر الأسد الذى لم يكن مستعداً لأن يكون فى كلامه دبلوماسياً، ولكن السلحفاة تمضى فى حديثها فى دعة:

- لقد وطأت بأقدامك عدداً من الطيور والحيوانات الصغيرة فقتلتها، لقد دست بحوافرك على أيضاً وعلى بعض من بنى جلدتى فنجونا بأنفسنا وحياتنا، بسبب أصدافنا السميكة، وأنكى من هذا أنك قد ركلت الغلال فى المزارع، الأمر

الذى أغضب الإنسان وسوف يخرج للإيقاع بك.. وما دام قد شرع يصطاد فلن يعرف أحد منا متى ينتهى عن صيده وسنعانى جميعاً المتاعب.. لقد جئنا إليك ضارعين أن تبتعد عن الغلال وأن تترك شاطئ النهر لى ولأسرتى ولفصائل السلحفاة التى تعيش هناك أيضاً.

ويصيح الأرنب:

- وأن تكون أكثر عناية حين تمشى.

ويهز الجاموس ذيله مغضباً:

- إننى أعيش كما كنت أعيش دائماً.. إننا سادة الغابة ولا يعنينا هذا التافه من القول الذى يصدر عن أقوام أقل منا منزلة، عليكم أنفسكم وأموركم وعلينا أنفسنا وأمورنا، فإن تدخل أحد فى شؤوننا فالويل له.

ويغضب الأسد فى الواقع أشد الغضب حين يسمع حديثه ويزأر:

- هكذا تظن أنك سيد الغابة أيها المستبد الغبى الكبير، إن كل فرد يعلم أن الأسود ملوك فى عالم الحيوان، تقدم وحاول أن تختبر نزعة المباهاة فيك.. تقدم وقاتل.

ويهجم الأسد على الجاموس ولكن السلحفاة تنادى:

- أرجوكم.. أرجوكم أيها السادة.. هذا لا يتأتى أبداً.

ويُلقى بها جانباً، ويقفز المتصارعان على بعضهما ويتكون من الوحوش الأخرى حلقة وأخذوا يراقبون فى شىء عظيم من القلق، كانوا يعرفون أن الأسد قد سلخ نصف عمره ولم يقاتل منذ أمد بعيد، فكانوا يخشون أن تحيق به الهزيمة.

ويدركون آخر الأمر أن مخاوفهم السيئة كانت حقاً، كان الجاموس يبدو غير عابئ بمخالب الأسد رغم أنه أصيب بأذى بالغ، ولم تكد تمضى لحظات حتى ألقى بالأسد على الأرض فانكسر ظهره وفارق الحياة.

وتضطرب الحيوانات أشد الاضطراب حين ترى ذلك، إنهم لم يكونوا على

صلة بالأسد، ولكنهم كانوا يعرفونه من سنين مضت وقد اعتادوا أن يلقوه، لقد كان التنين أشدهم غضباً، لأنه كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه أشد من الأسد قوة وأنه لو كان قد هاجم الجاموس لانتصر عليه.

وينفض الجاموس نفسه ثم يحملق فيمن حوله ويزمجر:

- أرجو أن تكون هذه المعركة قد قررت من يكون سيد المكان.. هل يريد أحد منكم أن يتصارع؟

ويصدر عن التنين فحيح ويتجه نحو الجاموس قائلاً:

- أجل.

ويهمس الأرنب:

- عزيزى.. عزيزى.. إنه أمر بالغ الخطورة.

كان الأمر بالغ الخطورة حقاً.. ذلك إنه قد أصبح جلياً أن التنين يغامر فى أسوأ الظروف ولكنه يختلف عن الأسد فى أنه يعرف متى ينهزم فليس فى نيته أن يقاتل حتى الموت وينسحب التنين من المعركة وقد تمزقت أوصاله وسالت دماؤه تاركاً الجاموس منتصراً وتتبع الحيوانات الأخرى التنين وتعينه على الذهاب إلى داره، وينوح الأرنب قائلاً:

- ما كان أجدرنا ألا نقترب من هذا المخلوق، كان حرياً بنا أن نجرب معه طرقاً أخرى.

وتقول السلحفاة:

- إننى أتفق معك هذه المرة فحسب. كان حرياً بنا أن نعتمد على عقولنا لا على عضلاتنا.

ويتساءل الغزال:

- ماذا ترون أن نفعل؟

وترد السلحفاة:

- أود أن أفكر قليلاً.. إن بقى الأرنب معى فإنه يستطيع أن يحمل رسالة فيما بعد، إننى أنصح لكم جميعاً أن تذهبوا إلى منازلكم فترقدوا.

ويقول الأرنب بينما ينصرف الآخرون:

- الموقف سيئ كما ترين.. لقد ذهبت إلى المزارع هذا الصباح التماساً لبعض الغلال، فسمعت الناس ينذرون بأنهم سوف يجيئون لصيد الجاموس ومادامو قد بدأوا فإن أحداً لا يأمن على نفسه، حتى نالوا منه مأربهم إن قدر لهم أن يصلوا إليه.

وتقول السلحفاة:

- أظن أن فى وسعهم ذلك ولو قدمنا لهم المعونة.. اذهب وأت بملكة النحل إلى هنا وكذلك بالقرد.

وينطلق الأرنب فيأتى بملكة النحل والقرد.

- هل لك يا ملكة النحل أن تؤدى لنا جميلاً فتعطينا خلية نستطيع بها أن نقتص الجاموس الذى سبب لنا متاعب كثيرة؟

ويصدر عن ملكة النحل طنين فتقول:

- إنها تضحية كبيرة منى أن أعطيكم خلية، ولكن إن رأيتم أن فى ذلك عوناً لكم فأظن أننى أوافق.

- أرجو أن يسمح لقردين فى حملها.

وتقول ملكة النحل بينما هى تطير:

- جميل.. عليكم بالحضور فى مدى ساعة من الزمن فسوف تجدونها.

وتطلب السلحفاة من الأرنب:

- والآن اذهب إلى الخنازير البرية فادعوها إلى هنا.

وينطلق الأرنب باحثاً عن الخنازير البرية، لقد وجدها - كما اعتادت - تنقب الأرض ولكنه تمكن من أن يغرى بعضها بمصاحبته.. وتقول لها السلحفاة:

- أريد أن تنقبوا حفرة عميقة تحت هذه الشجرة.

ويتساءل خنزير:

- وماذا سنأخذ مقابل ما نفعل؟

- لا شىء. إلا أنكم سوف تتخلصون من الجاموس إن كان هذا فى صالحكم.

ويقول الخنزير:

- بالتأكيد هو فى صالحنا.. إن جميع الفطريات التى تنمو فى هذا المكان من الغابة سيقضى عليها إذا لم يوقف هذا الوحش الرذل عند حده.

وتقول السلحفاة:

- سيوضع فى مكانه المناسب.

وتشرع الخنازير فى نقب حفرة كبيرة وتطلب السلحفاة من القردة أن تغطيها بأوراق الشجر وأغصانها «مصيدة.. مصيدة» وتأخذ فى عملها فى عزم، ذلك إنها لا تستمتع بشىء قدر استمتاعها باصطناع المكايد والحيل، وإن مكيدة تستهدف اقتناص الجاموس شىء خليق أن تضطلع به، لقد أخفت الفخ فى شىء من الدهاء حتى أن أحداً لا يستطيع التكهن بموضعه.

وما يكاد يتم ذلك حتى تصدر السلحفاة للقردة أمراً.. أن تحضر من خلية النحل وأن تضعها على الجانب الآخر من الفخ، وما تكاد القردة تفعل ذلك حتى تجذب السلحفاة إحداها جانباً، وتفضى إليها فى أذنه أمراً.. ويومئ القرد برأسه فى شىء من الحماس وعيناه تلمعان فى ترقب وينطلق ملتمساً زعيم الجاموس فيجده يتمرغ دون قصد فى الطين، ويجلس القرد على شاطئ النهر يبكى فى صوت حاد مدو ويطلخ نفسه بالطين.

ويرعد الجاموس قائلاً:

- بريك ما بك؟

ويشهق القرد:

- لقد أصابنى حادث أشد نكراً.. لقد كنت أحاول الحصول على قليل من العمل هذا الصباح فاصطدمت صدفة بخلية نحل فعادت النحل تحمل على فى قسوة بالغة، لقد لدغتنى فى كل مكان من جسدى.. وها هو العسل الشهى وأشعر أن العلة تمنعنى من أن آكل شيئاً منه.

ويسأل الجاموس:

- وأين هو؟

ويجيب القرد:

- بأسفل هذه الشجرة الكبيرة هناك.. آه يا عزيزى.. أظن أننى سأرقد هنا فى الطى لأرى إذا كان ذلك مجدياً على.

ويرقد القرد ويغطى عينيه بكفيه ويتظاهر بالتألم بينما كان يراقب الجاموس وهو يسير متئداً إلى الشجرة من طريق دائرى.

ويزعق الأرنب الذى كان يقوم بدور الكشاف:

- ها هو قد أتى.

وترد السلحفاة عليه:

- سأنطلق معك وأترقب.. إنه مخلوق ماكر أشد المكر.

ويمكثان على بعد آمنين حتى يأتى الجاموس إلى المكان فى هدوء يتحسس طريقه إلى خلية النحل ويتجه نحوها.. وإذا بصوت ارتطام عنيف وإذا بالجاموس يستقر فى الحفرة وإذا بزئيره يهز جنبات المكان وأرضه هزاً إيجابياً.. ويجرى الأرنب ويرقص من الفرح ثم يزعق:

- لقد ظفرنا به.. ظفرنا به.

وتقول السلحفاة:

- إننا لم ننته من المهمة بعد الآن.. اذهب إلى القرية واقفز فى أرجائها حتى تراك الكلاب فإن طاردتك فأت بها إلى هنا.

وينطلق الأرنب إلى القرية يقفز فى أرجائها حتى يراه كلب فيرسل نباحه فى الحال ويأخذ فى مطاردته.. وإذا بجمع من الكلام فى القرية تشاركه النباح والمطاردة فتجرى فى أعقاب الأرنب، لقد كانت تطارده من قبل وكانت تعلم- كما يعلم الأرنب- أنه لا أمل لها فى اقتناصه ولكنه على أية حال ضرب من المزاح المستحب، ويقودهم الأرنب إلى المصيدة فإذا بالجاموس يزأر وما يكاد يصل إلى المكان حتى يقفز فوق المصيدة ويجرى فى سلام، أما الكلاب التى انتفض شعرها من الثورة والهياج فقد وقفت على حافة الحفرة تنبح فى جنون.

وفى القرية يجذب الهرج المريع الذى أحدثته الكلاب أنظار الناس فيتساءلون فيما بينهم ويقترح عليهم عجوز:

- إلى أين تتجه الكلاب؟ لا شك إنها قد أحاطت بفريسة.. هنا نذهب فترى.

ويجتمع شملهم ويشقون طريقهم فى الغابة حتى يبلغوا المكان الذى وقع الجاموس فى حبائله.. وما يكاد القوم يرون ما حدث حتى يصرخوا فرحين:

- إنه الجاموس الذى كان يطأ بحوافره محاصيلنا سنقتله ونقيم من بعده عيداً لنا.

ويذبحون الجاموس ويسحبونه إلى مكان بعيد ويوقدون ناراً كبيرة ويقيمون حفلاً رائعاً ويأكل القوم لحم الجاموس وكذلك الكلاب، أما فصائل الجاموس فى الغابة بعد أن فقدت قائدها فترى أن من الخير لها أن تلتمس مكاناً آخر أكثر أمناً وطمأنينة، لذلك فهى تنزوى بعيداً داخل الأجمة ولم ترجع بها.

أما السلحفاة والأرنب والقرد فيهنئ بعضهم بعضاً من أعماق القلوب ويداوى الثعبان جراحه ويبقى قانعاً راضياً بمآله.



السلحفاة الظافرة

إن السلحفاة مخلوق ذكى، إن عليها أن تفيد من ذكائها حتى تنجح فى الحياة.. ذلك إنها لا تملك قوة الأسد أو سرعة الأرنب.. ورغم ذلك فإن هذا الذكاء لا يجعل منها مخلوقاً يألفه الناس ويرجع سبب ذلك إلى أنها تميل إلى الاعتزاز بنفسها شيئاً قليلاً.

ولفترة طويلة كانت قد استثارت الفيل فأصابه الانزعاج وفقد أعصابه يوماً ما فصاح:

- هل تظنين أنك غاية فى البراعة؟.. إن كان الأمر قتالاً منصفاً بينى وبينك فإننى سأنتصر فى كل مرة.

وتسخر منه:

- هل تعتقد ذلك؟

ويقول الفيل:

- أعلم ذلك..

ثم ينتزع بخرطومه جذع شجرة ويحطمه كما لو كان عود ثقاب ليبين لها ما يستطيع أن يفعل، وتبتعد السلحفاة قليلاً وترقب هذا الأداء المسرحى ولكنها لم تتأثر كثيراً بما فعل فتقول له فى هدوء:

- أعتقد أنك سوف تجد نفسك مخطئاً.. ومع ذلك إن شئت فلنحاول.

ويقول الفيل:

- تعنين أنك سوف تنازليننى؟

- بالضبط.. وموعدنا باكر فجراً وعلى شاطئ النهر.

ويسأل الفيل فى ارتياب:

- ولم يكون شاطئ النهر؟

- لأن الأرض هناك مهداً وقريبة من المكان الذى أعيش فيه، ولأنك أنت البادئ بالأمر فإن من حقى- على الأقل- أن أختار المكان.

ويوافق الفيل على الرأى قائلاً:

- إن النهر مكان خليق بالراحة التى ينشدها الجسم.

وتعلق السلحفاة على قوله:

- أرجو ألا يغلق جسمك النهر.

ويدير الفيل رأسه ويمضى محدثاً دوياً عالياً ويهتز جسمه من فرط الضحك حى تسيل دموعه على خديه ويشهق أخيراً:

- آه.. انصرفى قبل أن أموت من الضحك.

وتتحرك السلحفاة بخطوات وئيدة كما تعودت وتقول مذعورة:

- سنضحك يا بنى وأنت على الجانب الآخر من وجهك.

وبينما هى تسير إذا بها تلحظ بسمات ترتسم على وجوه بعض الحيوانات التى كانت تستمع إلى حديث لقائها مع الفيل، لكنها كانت تنظر إليها فى ازدراء.. ذلك التعبير ألذى كان من اليسير أن تنتحل وهو أمر فى الغالب ملحوظ بالنسبة للسلحفاة.. وتتخذ طريقها إلى شاطئ النهر فترى فرس البحر يتمرغ مسترخياً فى الطين، إن فرس البحر حيوان غير ألوف إن تركه الناس وحده فهو يتركهم وحدهم وإن كان ثمة محاولة لاستثارته انقلب- فى الواقع- حيواناً سيئ الطباع.

وتقول السلحفاة فى خنخنة:

- كيف تتحمل التمرغ فى مثل هذا الطين القذر الكريه الرائحة.

ويزمجر فرس البحر:

- أحبه.. أن أسرتى اعتادت أن تأخذ دائماً حمامات الطين.

وتقول السلحفاة:

- أعتقد أنها عادة قذرة تماماً.

ويصيح الفرس:

- إن أحداً لم يسألك ماذا تعتقدين وأن أحداً لم يطلب إليك المجىء إلى هنا أيضاً.

- إن من حقى المجىء إلى هنا كما تفعل أنت.

- إذن صه واحفظى عليك لسانك ساكناً فى حلقك.

- أنت تعلم أن أخلاقك تحتاج إلى مزيد من الصقل.. إنه لمن المؤسف أنك جوهرة فجة.. وسأحاول فى الواقع أن أصنع منها شيئاً.

وينتفض فرس البحر من الطين فى قومة جبارة ويرد عليها وعيناه تلمعان غضباً وحنقاً:

- أحق ما تقولين؟ إننى لا أرى أنك على خلق.. فى الواقع أريد أن ألقنك درساً أو درسين.

وتتساءل السلحفاة فى هدوء:

- أتتوعدنى؟

ويرد فرس البحر وقد استعد أن يخوض فى الطين حتى يصل إليها:

- ثمة ما تشاءين.. إننى قادم لألقنك درساً.

- قف.. إننى لا أؤمن بعمل فيه خشونة وتهور، إن أردت قتالاً فليكن ذلك بطريقة لائقة.. سألقاك هنا مع مطلع فجر اليوم التالى وسترى أينا أقوى رجلاً.

ويطلق فرس البحر ضحكة مريرة:

- ممتاز.. ليس شيئاً أليق لي من هذا.. إنه وقت جميل ورطب لا تنسى أن تأتى.

- بالتأكيد لن أنسى.

وتسعى السلحفاة وقد ارتسمت على وجهها دلائل الرضا الشديد كما ينبغى فى الواقع أن تكون ذلك، إن المؤامرة التى دبرتها كانت محبوكة تماماً.

وتستشرى أنباء الصراع القائم بين الفيل والسلحفاة ولكن أحداً لا يعلم ما أعد من ترتيبات للمعركة الثانية.. ذلك أن فرس البحر كان لا يألف أحداً ولا يتحدث مع غيره، وكانت السلحفاة على بينة من هذه الحقيقة تماماً. لقد كانت هذه الحقيقة جزءاً مهماً فى مؤامرتها.

وقبل مطلع الفجر بقليل تصحو السلحفاة من نومها على شاطئ النهر، وتسعى وسط الضباب فتشاهد الفيل أمامها يسير متثاقلاً وقد ضربت من حوله حلقة كبيرة من أصحابه الذين جاءوا لمشاهدة المعركة.

وتنظر السلحفاة فى النهر فترى فرس البحر وقد استلقى مترقباً وحين يسمع أصوات الجمع المقترب ينتصب واقفاً ساكناً بحيث يتعذر على أحد أن يكتشف مكانه وسط الضباب- لقد كانت هذه هى الطريقة التى أرادت السلحفاة للأمور أن تسير عليها.. وتتحرك فى حذر متحصنة بين الأعشاب وترقب حتى يقترب الفيل من الشاطئ ويقهقه:

- ها.. هكذا لم يصل صديقى المقدام حتى الآن.. إننى لأتساءل إذا كان قد تدبر الأمر جيداً.

وفى اللحظة التى يجتاز الفيل البقعة التى كانت السلحفاة قد اختفت تماماً تمسك بطرف خرطومه.. ويدهش الفيل أشد الدهشة، ويتألم أشد الألم حتى يصبح فى الحال عاجزاً.. وفى هذه اللحظة الدقيقة الحرجة تقذف السلحفاة بنفسها على شاطئ النهر فى اتجاه فرس البحر الذى كان طبيعياً أن يحاول

الإمساك بعدوه المهاجم إلا أنّ يقبض فى اضطراب على خرطوم الفيل بينما تتلوى السلحفاة منطلقة ثم ترتمى فى الطين.

ويسحب فرس البحر الفيل على الشاطئ فى جذبة خشنة وراح الاثنان يدق أحدهما عنق الآخر ويقف الجمع الذى لا يدرك ما حدث مشدوهاً لتلك القوة الخارقة التى تقمصت السلحفاة والتى كانت فى الواقع تتخذ مكانها آمنة مطمئنة على مسافة من الشاطئ ترقب الصراع الجبار بين الفيل وفرس البحر، وقد أصيبا إصابات بالغة وظلا يتصارعان حتى النهاية قبل أن يكتشفا ما قد وقع، وينسحبا إلى الشاطئ مضرجين بالدماء وقد أنهكهما التعب ويتساءل الفيل:

- بربك قل لى ما حدا بك على أن تهاجمنى؟

ويحاول فرس البحر أن يشرح له ما قد حدث ويثور أشد الثورة، ويدرك الفيل وفرس البحر فى غمرة من الشرح المستفيض المضطرب- وبينما كان كل متفرج قد اشتبك فى صراع مع غيره- أن السلحفاة قد اصطنعت حيلة ماكرة للوقيعة بينهما.

ويعتذر كل منهما للآخر ويتفرقان بعد أن تعهدا ألا يتورطا مع السلحفاة المخادعة فى جدال مرة أخرى، وينتهى المتفرجون إلى نفس النتيجة، ومن أجل هذا فقد تركت السلحفاة فى عزلة قاسية لا يجرؤ حيوان على مهاجمتها، بل إنهم ليحرصون جميعاً أشد الحرص على العيش معها فى وئام وسلام.



لماذا تحفر الخنازير؟!

إنك قد تلحظ أن الخنازير حيثما ذهبت، تبدو وكأنها تقضى وقت فراغها تحفر أو تشم بأنوفها الأرض كلما انطلقت سائرة وكأنما هى تبحث عن شىء، لقد بدأ ذلك منذ عهد سحيق من تلك الأيام الخوالى السعيدة، حينما كان فى مقدور الوحوش أن يتحدث بعضها إلى بعضها.

زعموا أن سلحفاة كانت مدينة بدين ثقيل لخنزير، وكانت دائماً تزجى إليه المعاذير من عدم استطاعتها الوفاء بالدين، وذات يوم يحس الخنزير أن الدين قد طال أمده ويعلن أنه قد عقد العزم على أن يزور السلحفاة فى دارها ليجمع ماله، ولا يكاد الخنزير يصل إلى الدار حتى يجد المكان عامراً بالصخب والضجيج والسلحفاة جالسة أمام الدار تولول فى صوت مدو فيسأل الخنزير الساذج:

- ما أصابك أيتها العجوز؟

وتبكى السلحفاة:

- وأأسفاه.. لقد مات أبى المسكين.. لقد كان رجلاً عجوزاً طيباً فأصابنى الحزن عليه.

ثم تبكى فى شهقات تمس شغاف القلب ويحس الخنزير نحوها بشىء كبير من العطف والإشفاق فيقول:

- حسن.. لن أشق عليك الآن بشؤون المعاملة.. سأعود إليك صباح اليوم التالى.

ويعود الخنزير إلى داره ويقص على أصدقائه ما وقع ولكنه فى اليوم التالى يساوره شىء من الحذر الطبيعى الذى يتصف الخنزير به فيقرر أن يصطحب معه هذه المرة صديقاً يكون شاهداً على ما تقدم السلحفاة من تعلات حتى إذا

ما أتيا دار السلحفاة وجدا أن كل شىء فيها يبدو هادئاً للغاية فى واقع الأمر.. كل إنسان فيه اتخذ مكانه وكأنما لا يجد شيئاً يفعله ولا يدرى أين يذهب.

فيقول الخنزير للسلحفاة:

- إننى مسرور أن أجد كل واحد منكم يبدو أكثر هدوءاً اليوم مما كان بالأمس والآن، قد يكون فى وسعنا التحدث فى هدوء فتقولين لى كم من الدين ستدفعين.

وتهز السلحفاة رأسها فى أسى:

- إننى فى حزن عميق حتى إننى لا أستطيع سداد شىء اليوم، ذلك إنه بعد أن انصرفت بالأمس جاءتنى أنباء وفاة والدة.زوجى، وقد أنفقت ما كان لدى من المال للنائحين فى جنازته ولم يعد معى شىء.. كل ما نستطيع أن نفعله أن نقعد هنا ثم ننظر إذا كانت تتحسن الأمور غداً.

ويبدأ الخنزير يحس الريبة لحرمانه من حقوقه، لكنه يقرر أن يعطى السلحفاة فرصة أخرى فيصيح:

- حسن جداً.. أرجو أن تتحسن الأمور غداً عندما أعود.. إننى فى الواقع ألح فى أن يسدد إلى بعض الدين.

ويعود الخنزير فى اليوم التالى ويصطحب معه اثنين من الخنازير.. فيجد كل شىء هادئاً إلى حدٍّ يثير الريبة.. وتبدأ السلحفاة فى الحديث قدل أن ينطق الخنزير فتقول:

- عزيزى صدقنى إننى راغبة أشد الرغبة فى أن أؤدى لك الدين، ولكن يبدو أن الأمور تتعاقب فى هذا الأسبوع فيمسك بعضها ببعض، لقد تلقيت أمس بعد انصرافك رسالة تقول: إن اليوم هى الذكرى المئوية لميلاد جدتى، ولقد أخذوا ما لدى من الطعام والمال احتفالاً بهذه المناسبة، إنها فى الواقع مناسبة مهمة، والعادة تدعو أن أقدم كل ما أملك.. ينبغى أن أشخص إلى الحفل الآن، ولكننى انتظرت حتى تأتى لأوضح لك الأمور، علينا أن نلتقى بعد ولكن يجب أن

أنصرف الآن.

- إذن سأعود غداً.

ويصرخ الخنزير غاضباً أشد الغضب ويدير ظهره يتبعه الصديقان وينصرف.

إن السلحفاة قد أصبحت فى مأزق رهيب، إن الأعذار التى تتذرع بها قد أصبحت واهية، ولكنها كانت تكره فكرة سداد الدين، وتفكر أخيراً فى خطة ترجئ بها الأمور بعض الوقت فتقول لأكبر أبنائها.

- عليك أن تتظاهر بأنك طبيب فتقول إن وعكة قد ألمت به إثر المتاعب التى صادفتنى أخيراً، وإنك قد أمرتنى أن أبدل المكان وإن الخنزير لن يجديه نفعاً أن يتردد يوماً بعد يوم لأننى لن أكون هنا.

ويتساءل الابن:

- وأين ستكونين؟

- سأكون هنا بطبيعة الحال ولكن الخنزير يجب ألا يعرف، وقبل أن يأتى عليك أن تقلبنى ثم تضع من فوق الأعشاب متظاهراً أننى حجر طاحونة، هنالك يأتى الخنزير وأصدقاؤه يبحثون عنى فى أرجاء المكان فلن يجدونى وبذلك ينصرفون.

ويقول الابن:

- إننى لا أحب هذا الخداع.. ينبغى أن تدفعى له بعض الدين عاجلاً أو آجلاً.

- وليكن ذلك آجلاً.. آجلاً كثيراً.

ويصل الخنزير إلى المكان ويجد أقرباء السلحفاة يعملون ويجد أصغر أبنائها يطحن الأعشاب فى طاحونة عتيقة ولا يلحظ أثراً للسلحفاة فيسأله:

- أين أمك؟

ويتمتم الصغير:

- هذه رسالة إليك.

ويخرج أكبر الأبناء ويخبر الخنزير- الذى كان قد جاء بثلاثة أصدقاء معه هذه المرة- أن السلحفاة تشكو علة انتابتها من الحزن-، وأنها قد رحلت عن هذا المكان التماساً للراحة وتغيير الهواء.

وبينما هو يقص هذه القصة إذا بالابن الصغير الذى وجد أن من العسير عليه البقاء هادئاً والتظاهر بطحن الأعشاب- يخرج من الدار ويذر الطاحونة- أمام الخنزير دون أن يتعهدها وتظل السلحفاة الماكرة ساكنة لا تريم، لقد كانت واثقة تمام الثقة أن الصورة التى تنكرت فيها وقاية كاملة لها وتبقى ثابتة تستمع إلى أكبر أبنائها يروى القصة كما رسمتها له، ويتساءل الخنزير وقد خنقه الغيظ فى نهاية القصة:

- ومتى تعود السلحفاة؟

ويرد الطبيب فى رقة:

- أؤكد إننى لا أستطيع القول.

ويندفع الخنزير وقد امتلأ غضباً نحو أول شىء وقع نظره عليه وهو حجر الطاحونة ويمسك به ويقذفه إلى الغابة ويجلس مزمجراً:

- سأمكث هنا حتى تعود.. وكذلك سيفعل أصدقائى، إن أعذارها قد بلغت حداً لا يطاق.. إن السلحفاة قد عاملتنى كغبى أبله.

وفى نفس الوقت تنتفض السلحفاة خارجة من الغابة وتدلف إلى دارها من باب خلفى ويدب الرعب فى أصغر أبنائها فتقول له:

- لا تنزعج.. إننى أفكر فى طريق للخروج أخيراً.. ناد أخاك.

ولا يكاد أكبر أبنائها يدخل عليها حتى تهمس إليها قائلة: إن لديها الآن خطة ستضع الأمور فى نصابها، وإن عليهم أن يتبعوها حيث تقودهم، وأن يساندوها فى كل شىء تفعله، ثم تخرج من الغابة وتتخذ سبيلها إلى الطريق محدثة ما شاءت من الضجيج وتناديه كلما تقدمت حتى إذا كانت تواجه الدار

صاح أكبر أبنائها:

- إنها أمى قد رجعت.

ويتمتم الخنزير:

- والآن ما وراءها؟

وتقول السلحفاة موجهة حديثها إلى الخنزير:

- كان لزاماً على أن أعود لقد أصابتنى وعكة الليلة المنصرمة فنسيت موعدى معك ولكننى تذكرته صباح اليوم.. فعدت إليك أشعر بأن شيئاً ينبغى أن أرده إليك.

ويجيب الخنزير:

- حسن.. اعطنى ما عليك من دين ودعينى أرحل، هذا كل ما أطلبه.

وتقول السلحفاة:

- أجل.. أجل.. سأدعوا أبنائى وسترى ما نستطيع أن نفعل.

ثم توجه الحديث إلى أصغر أبنائها:

- ماذا كنت تفعل صباح اليوم؟ أرجو أن تكون قد أكرمت وفادة الطبيب كما ينبغى أن يكون.. هل قمت بطحن العشب فصنعت له طعاماً؟

ويرد أصغر الأبناء:

- كنت أقوم بالطحن حتى جاءنى الخنزير.

وتسأل السلحفاة:

- دعنى أنظر إن كنت قد طحنت طحناً تاماً.. أين الطاحونة؟

ويجيب أصغر الأبناء:

- لقد كان الخنزير ثائراً قليلاً فألقى بها فى الغابة.

وتأمره السلحفاة قائلة:

- احضرها فى الحال.

ويقول الخنزير وقد أحس شيئاً من الحمق:

- احضرها.

ويقفز مسرعاً فى الغابة متجهاً فى البقعة التى ظن أن حجر الطاحونة قد هوى فيها وبالطبع لم يجده هناك.

وتهتف به قائلة:

- هل وجدت حجر الطاحونة؟

- لا.. لعله قد تدحرج بعيداً.

وتنبعث من السلحفاة صرخة:

- آه يا عزيزى.. إنه حجر له قيمة كبيرة، كان حجراً لجدى لقد بقى ميراثاً فى الأسرة مئات السنين، إنه لا يقدر بثمن أرجو أن تبحث عنه فى الحال.

ويصيح أصدقاء الخنزير.

- سنساعدك.

وينطلقون جميعاً يبحثون فى الغابة، ولكنهم لم يجدوا حجر الطاحونة، وفى هذه الأثناء التى كانوا يبحثون فيها كانت آلام السلحفاة تزداد شيئاً فشيئاً، فكانت تصرخ مولولة.

- لقد هوى الحجر فى حفرة عميقة أو لعله قد سرق.

وتستمر الخنازير فى بحثها فى شىء من الهوس، ولكنها تكف عنه بعد وقت وتعود إلى السلحفاة مقرة بذنبها.

وتجلس السلحفاة أمام الدار تنوح:

- انظروا إلى ما حدث الآن من جراء هذا الدين التافه الذى كنت أستطيع أداءه فى أى وقت لقد أضعتم حجر طاحونتى الثمين الذى يساوى ثمنه مئات المرات قيمة دينى، يجب أن تعثروا عليه، لا يعنينى كم من الزمن تنفقون فى البحث عنه، ولكن يجب أن تعثروا على حجر طاحونتى، إننى أرفض أداء شىء حتى تجدوه.

ويدرك الخنزير أنه قد أضحى فى موقف لا أمل فى الخروج منه إلا أن يعثر على حجر الطاحونة لذلك فهو يقرر أن يدعو جميع أصدقائه ليعينوه فى البحث، ويبعث برسائله إلى كافة الخنازير فى أرجاء العالم كله لكى يجدوا حجر الطاحونة المفقود أو المسروق، ويعود إلى ما كان عليه يشم بأنفه الأرض ويحفر فيها بنفسه:

وفى اليوم التالى تبدو الخنازير فى الغابة وقد دأبت على عمل شاق، وكلما تكررت النداءات ازداد عدد الخنازير التى شاركت فى البحث، وغنى عن القول أنها مازالت تبحث منذ هذا الوقت فى أرجاء العالم حتى الآن ولكنها لم تعثر بعد على حجر الطاحونة.



النمل الطموح

إن النمل من أكثر المخلوقات دأباً على العمل فى العالم، إن لكل نملة عملاً يستغرق كل وقتها دون أن يكون لها حظ من إجازة كاملة أو عمل لنصف اليوم فقط، إن النمل يحب العمل ولا يحب شيئاً غيره، إن أكبر النمل حجماً وأقواها تبنى لنفسها مدناً كاملة مزودة بأقسام تصلح أن تكون مأوى تأوى إليها إن حاول الأعداء أن يحطموا المدينة من أعلاها، فى هذه المدن مخازن كبيرة يصون النمل فيها طعامه وغرفاً لتربية صغاره ورعايتها.

هل رأيت جماعة النمل وهى تعمل؟ إنها تعمل فى جماعات كبيرة وإن النملة الواحدة أو الاثنتين لا تستطيعان العمل بمفردهما، فإن قدر لهما الانفلات من الجيش العادى من النمل فإنهما تمرقان فى كل مكان فى حزن شديد؛ حتى يتعرفا على طريقهما بين الجمع من جديد، وما يكادان ينتظمان مكانهما حتى تعود كل منهما إلى ما كانت عليه جنوداً فى الجيش ثم تعمل فى جلد مضطلعة بواجباتها.

وليست هذه فى الغالب الطريقة التى يعمل بها النمل.. زعموا أن نملتين كانتا تثقان برأيهما فيما تفعلان، كانتا تعتقدان أن فى وسعهما أن يشقا نفقاً فى الأرض يستطيعان من خلاله أن يعبرا الدنيا بأكملها وبهذه الطريقة سوف يصدع بأمرهما شيئاً فشيئاً كل من على الأرض من مخلوقات.

وتقرر النملتان أن خير وسيلة للبدء فى هذا النفق أن يحفرا فى اتجاهين مختلفين فيستطيعا أن تلتقى أحداهما بالأخرى عند النهاية، وتبدأ كل منهما فى الحفر دائبتين على العمل ولكنهما لم يدركا فى الواقع أن عملهما على هذه الوتيرة وفى خط مستقيم لا يمكن أن يؤدى بهما فى النهاية إلى الالتقاء، وتمضى الأيام وهما يحفران وليس ثم دليل على الالتقاء وأخيراً ترى النملة الأولى أن خطأ لابد وأن يكون قد وقع وأن شريكتها البلهاء، قد سلكت طريقاً

غير سليم، لذلك فهى تستدير وتقفل راجعة وتمضى فى رحلة طويلة مجهدة داخل السرداب الذى اصطنعته حتى تعود تارة أخرى إلى مكان البداية الفسيح، هنالك تجد كل شىء كما اعتادت أن تراه.. ملايين من النمل تنطلق مسرعة منكبة على أعمالها التى اعتادت أن تؤديها وقد تملكتها سرعة رهيبة.

وتلتقى بنملة صغيرة تحمل على ظهرها ورقة كبيرة من أوراق الشجر فتسألها:

- هل شاهدت أو سمعت عن صديقتى التى تحفر سرداباً حول الأرض؟

وتجيبها النملة الصغيرة:

- لا.. لم أسمع.. ولكننى رأيت فعلاً نملة محمولة على نقالة.. لعلها أن تكون صاحبتك.

وتفزع النملة لهذا الخبر أشد الفزع وتسرع إلى المستشفى وتقوم بتحريات مضطربة ولكنها لم تجد بين جميع النمل الذى جىء به إليها فى خلال الأيام المنصرمة صديقتها.. ومع ذلك فإن النملة التى كانت تحرس الباب قد حملت إليها نبأ.

- لقد سمعت فى الحقيقة عن نملة تريد أن تطوف بالعالم عن طريق سرداب تحفره.. لقد جىء بها منذ أيام مضت وقد أصيبت إصابات بالغة فقضت نحبها.

وتضطرب نملتنا أشد الاضطراب حين تسمع النبأ وتنطلق إلى مكتب تسجيل المواليد والوفيات وتقوم بتحريات عن الذين دفنوا خلال الأيام المنقضية.. ويقول لها الموظف المختص:

- إننى لم أر اسم صديقتك.. ما يجعلك تظنين أنها قد ماتت؟

- كانت تساعدنى فى صنع سرداب حول العالم.. وأنه لعمل بالغ الخطورة.

ويضحك الموظف:

- آه.. هل هى واحدة منهم؟ إن ثم أناساً مفتونين يعتنقون دائماً الرأى الذى

يقـول بإمـكان ذلك مـثلهم فى هـذا مـثل الذين يظنون أنهم نابليـون أو يوليـوس قـيصـر وينتهى بمعظمهم الأمـر إلى مـسـتـشـفى الأمـراض العـقلية، لو إننى فى موقفك لذهبت إلى هناك.

وتعـود نملتنا من حـيث أتت مـضطربة أشـد الاضـطراب مـعللة النفس بتلك الحقيقة التى تقول إن عظماء القوم لا يفهمهم من يعيشون بينهم من الناس، وتتمتم:

- لقد قالوا عن كرستوفر كولومبس إنه مجنون أيضاً.

وتقفل راجعة إلى السـرداب وتقرر أن تبـذل جهداً للاضطلاع بـالعمل بيدها وحدها، وفى نفس الوقت تمضى النملة الثـانيـة منقبـة.. منقبة حتى تخور قواها دون أن تحس شيئاً عن مقدم صاحبتها من الطرف الآخر وتقـرر العودة محاولة الوقوف على ما حدث لها وتخرج بعد رحلة شاقة طويلة إلى وضح النهار فتجد كل واحداً منكبـاً على عمله كما اعتاد أن يفعل، إن أحداً لم يلحظ وجودها سوى النسـر، ولما كـانت النسور ترى فى الغـالب كل شىء فقـد سـألت النمـلة النسـر إن كانت صاحبتها قد مرت به:

- لست متـأكداً إن كانت هى.. ولكننـى رأيت بالأمس من يدعـو إلى اجتمـاع وبدا لى أن شيئاً عجيباً قد يحدث.

ويرمق النسـر النملة بنظرة ماكرة فليس ثمـة شىء أدعى إلى إدخـال السـرور على قلب النسـر من معـركـة.. ذلك أن ضحـاياها تكون فى النهـاية من نصيبـه لذلك فهو لا يترك فرصة دون أن يثير بعض المتاعب.

وتسأل النملة:

- ولكن لماذا تدعو إلى عقد اجتماع؟

ويقترح النسر:

- قد تدعى أنها قد دارت حول الأرض بمفـردها فتتقدم إلى مـعشـر النمل مطالبة بالزعامة عليها ثم تقهر العالم بأسره آخر الأمر.

– ليس فى وسعها أن تفعل ذلك.. إننى قد أديت من العمل قدر ما فعلت.

ويقول النسر فى مكر:

– ويحتمل أنها لم تفعل شيئاً من هذا النوع.. أنه مجرد رأى خطر لى.. انسيه.

وتمضى النملة فى طريقها وقد انتابها شعور كامل من الحيرة والاضطراب كانت تقول نفسها وقد نسيت أن ما ساقه النسر ليس له ظل من دليل يسند رأيه السقيم، إنك حين تضع ثقتك فى شخص ما فإن ما حدث سوف يقع.

وتقول النملة لنفسها:

– هنالك شىء واحد ينبغى عمله.. أن أجمع الناس إلى جانبى.. على أن أقنعهم أننى على صواب.

من أجل هذا تدلف إلى الساحة العامة فى المدينة ترفرف بعنف بقرنيها ولكن عامة النمل تعكف كما تعودت على أعمالها ولم يلحظ أحد شيئاً مما أحدثت من حركات بهلوانية وتزيح أخيراً حجراً كبيراً فيسقط وسط صفوف لا تنتهى من جموع النمل، فيقع الاضطراب بينها ويدفعها ذلك إلى الإصغاء إليها.

وينكر الجميع عليها أنها قد قامت فعلاً بحفر مثل هذا السرداب الطويل كما تدعى ويقرعون حباههم بأيديهم ويقررون أن ثم أناساً آخرين بينهم لهم من الآراء السقيمة الفجة التى تستهدف قهر العالم قد اضطلعوا بهذا العمل.

وتتوسل إليهم النملة:

– امنحونى فرصة منصفة تعالوا وانظروا ما فعلت وبعدها ستصدقوننى.

وفى غضب أكثر من إشفاق يطلب أحد القادة من عصبة من عمال النمل، أشداء أقوياء أن يصطحبوها وينطلقون إلى السرداب ويدخلون فيه ويسيرون، ويسيرون أميالاً ويتأثرون بعض التأثر بما يرون ويعتقدون أن ثم شيئاً من الحق فى هذا الادعاء المذهل.

وتؤكد لهم النملة:

- أعلم أنه ينبغى أن أدور حول الأرض وأن شيئاً يسيراً من العمل سوف يحقق ذلك.. تعالوا وساعدوننى فى الحفر.

ويأخذ الجمع فى مساعدتها ويحفرون ثم يحفرون حتى يصيبهم الجهد والنصب وينادون.. وينادون محاولين تحديد موقع من يظن أنه قائم بالحفر من الناحية الأخرى ولكن أحداً لا يجيب ويضطرون آخر الأمر إلى الاستسلام.

وفى نفس الوقت تعيد النملة الأخرى المشهد الذى قامت به صاحبتها التى كانت تعتقد أنها قد خانتها فتدعو إلى اجتماع وتجند فريقاً لمساعدتها فيستأنفون الحفر فى السرداب ولكن دون أن يصلوا إلى نتيجة، أن الوحيد الذى كان مسروراً بما يرى هو النسر ذلك أنه كان يستطيع أن يستشف بعض التطورات المفيدة من وجهة نظره شخصياً.

وينقضى وقت طويل ويستسلم الفريقان من العاملين فى السرداب ويتخذون طريقهم عائدين حتى يلتقوا وجهاً لوجه ويتقدم كلا الزعيمين فى اتجاه بعضهما غاضبين ويلقى كل منهما تهمة الخيانة على الآخر بينما يعتلى النسر المتربص شجرة يترقب أن يظفر بأكلة ضخمة من النمل المذبوح.

ومع ذلك فليس كل النمل مما يتصف بالحدة والحماس فى التفكير، فبينما كان كل فريق ينصت لحجة الآخر إذ يتضح لكل منهما أن الخطأ مرده إلى تلك الفكرة الرئيسية فى أن النملتين وهما تحفران فى اتجاه معارض لبعضهما حول العالم لا يمكن أن يلتقيا عند الطرف الآخر.

وتنتهى المجادلة بينهما حين يشير كل منهما بذلك لزعمائهم وتعلق نملة عجوز على ما وقع- ولو أن أحداً لم يسألها التعليق- قائلة:

- إن سألتمونى فإننى أقول إن المتاعب مصدرها أنكما قد حاولتما القيام بالعمل كل على طريقته الخاصة، فلو أنكم أديتما العمل متعاونين مع جيش منظم وفقاً للطريقة التى تعودنا أن نعمل بها لكان ذلك أجدى علينا وأنجح لنا، وأعتقد أن قراراً ينبغى أن يتخذ متضمناً أن كافة النمل مستقبلاً وفى كل مكان

لا ينبغى أن تعمل بمفردها ولكن ينبغى أن تعمل فى جماعات كبيرة.

ولم يكن لدى القائمين الأصليين شىء يقولانه عن هذا المشروع، ذلك أنهما كانا يشعران أكثر من غيرهما أنهما كانتا مخدوعتين، ومن أجل هذا فقد أخذ القرار بإجماع الآراء.

ومن هذا اليوم حتى الآن لا تعمل نملة بمفردها وإن أردت أن تشاهد ذلك بنفسك فعليك أن تسعى إلى الحديقة وتراقب لترى النمل فى عملها.

أما فيما يختص بفكرة تسلطها على العالم، فإن ذلك لم يأتى بتيجة، فإلى جانب ما يعترض الرأى من صعاب فإنه لا توجد جيوش من النمل كفيلة بالقيام بهذا العمل، صحيح إن ثم بلايين وبلايين منها ولكنها ليست كافية للاطلاع بالمهمة.



التى لا تغضب

قليل جداً منا من يبدو هادئ الطبع كما ينبغى أن يكون رغم أننا نأمل فى الغالب أن نكون كذلك ومن ناحية أخرى فإن الإنسان الهادئ الطبع دائماً كثير المتاعب أيضاً.

زعموا أن فتاة كانت معروفة لدى كل إنسان بهدوء طبعها فمنذ كانت طفلة صغيرة لم تكن تحب الصخب أو الضجر وقل أن تصرخ أو تبكى، لقد أكسبها ذلك لقب الفتاة «التى لا تغضب» ولم يحدث أن نادها أحد بغير هذا اللقب.

وتشب الطفلة ولكنها لم تقاتل أحداً أو تتشاجر معه كما يفعل الأطفال الآخرون، ويعلم أصدقاؤها ذلك عنها فيقدرون هذه الخصلة فيها حق قدرها.. صحيح أنها بادئ الأمر قد راحوا يستثيرونها ليروا إذا كانت تخرج عن صوابها، ولكنهم لم يفلحوا لذلك، فقد انتهوا عن هذه الإثارة وحاولوا فى بعض الأحيان أن يحذوا حذوها ولكنهم لم يفلحوا، وقد يحدث للمرء فى بعض الأحيان من الأمور ما يفقده صوابه، وكذلك كل إنسان ولكن الفتاة «لا تغضب» لم تكن من هذا الطراز.

إن ثم سبباً واحداً جعل الفتاة «لا تغضب» من هذا الطراز، كانت أمها حادة الطبع، وقد جعل ذلك حياتها شقاء وجعل الفتاة «لا تغضب» تصمم فى تشدد على ألا تسبب لنفسها ولغيرها الغم، والشفاء عن طريق حدة الطبع والغضب، وكلما شبت الفتاة وبلغت أشدها كان سلوكها أبعد من أن يعجب أمها، بل كان حافزاً لاستثارتها لأنها كانت تبدو مصدر لوم دائم لها.

وتقول لابنتها فى لهجة عاصفة:

– لم لا تستطيعين أن تكونى كبقية الناس؟ إنك تتعمدين التظاهر برقة

الطبع لكى تظهرى أنك خير من غيرك.

وترد الفتاة «التى لا تغضب» فى شىء من التعقل:

- لكننى لا أستشعر الغضب. فلماذا أدعى؟

- كان لابد لك أن تستشعرى الغضب لو أن فى حياتك عنفاً وشدة مثل حياتى، ها أنت طفلة كبيرة ومن السهل أن يكون مزاجك رائقاً «شفافاً» فلا تؤرقك الهموم.

- ربما يكون ذلك.

وتأخذ الفتاة فى ترتيب الدار، ذلك أن الأم فى الواقع كانت واحدة من أولئك الذين يضطربون أشد الاضطراب بهموم الحياة التافهة والخيالات العقيمة والأمراض المتوهمة حتى صار المنزل كماً مهملاً.

وكلما انقضت السنون جعلت الأم حياة الفتاة أكثر عسراً وتعقيداً، فهى لا تنى سراً عن أن تجهد نفسها لتقلب هدوء الفتاة هماً ونكداً، تستهزئ بها وتردد الإشارات التى كان ينبغى أن يقدمها أصدقاؤها وتتعمد أن تلصق بها شتى ألوان المتاعب التافهة والإزعاج الخفيف، ولكن ذلك كان عديم الجدوى، ذلك أن الفتاة «لا تغضب» سارت فى سبيلها هادئة وكانت تنظر فى بعض الأوقات إلى أمها مشفقة عليها آسفة لما يحدث منها.

لم تكن هى فى الواقع غير سعيدة، رغم أنه ينبغى أن تكون كذلك لأن حياتها فى المنزل كانت غير موفقة، ورغم كونها فتاة رائعة الجمال إلا أنها لم تكن تملك الأشياء البسيطة التى تجعل أترابها يظهرن بمظهر مقبول جميل، كانت ثيابها غاية فى البساطة ولم تكن أمها لتقدم إليها شيئاً من الهدايا.

وتشعر الأم يوماً من الأيام أنه ليس فى مقدورها أن تقاوم هدوء ابنتها بعد، كانت صديقة أمها تعيش على مقربة منهما، وكانت تقرض الأسرة أحياناً شيئاً من المال، لقد كانت الأم تقوم بعملية الاقتراض بنفسها ولكنها رأت هذه المرة أن

ترسل ابنتها.

كانت الرحلة إلى صديقة أمها طويلة.. شاقة خطيرة.. وتقول الأم لنفسها:

«هيا نرى إن كانت تحتفظ بهدوئها حين تجد نفسها وحدها فى الغابة تعانى لسعات الذباب وحين تحاول عبور المستنقع».

وترسل الأم الفتاة فى اليوم التالى وتجهزها بطعام قليل وبتعليمات ألا تعود دون مال.

إن الفتاة التى «لا تغضب» كانت تكره كثيراً أن تذهب فى مثل هذه المهمة ولكنها كما تعودت تظل رزينة هادئة الطبع فتنطلق لأداء الرسالة.

ولما كانت الفتاة لا تريد أن تغضب فهى لا تريد كذلك أن تسىء إلى أحد لذلك فهى لا تعتقد أن أحداً سوف يرضى أن يسىء إليها، فما كادت ترى شمبانزياً كبيراً يتوسط الطريق حتى مرت بجواره وتسأله فى أدب جم إن كان يأذن لها بالمرور.

إن الشمبانزى الذى كان مصدر الرعب والفزع فى هذا المكان من الغابة التى يعيش فيها قد أزعجه أن الفتاة لا تخافه، لقد اعتاد أن يرى الناس ينظرون إليه ثم يولون الأدبار، ولكن حقيقة هذه الفتاة التى لا تفعل كما يفعل الناس كانت مبعث قلق واضطراب له ويزمجر:

- من أنت؟

وتجيب الفتاة:

- اسمى «التى لا تغضب».

- إنه اسم سخيف.. لماذا يطلقون عليك هذا الاسم؟

- لأننى لا أغضب.

- وهل يجدى ذلك؟

- لست أدرى.. ولكن إذا لم أكن أشعر بالغضب فلماذا أدعى ذلك؟

- لأنك إن لم تغضبى فسوف يفرض عليك الغضب فرضاً.. على كل حال إلى أين تقصدين؟

وتخبره الفتاة عن وجهتها فى الرحلة التى أرسلتها أمها إليها.

- هه.. هه.. ألم أقل لك إنه سوف يفرض عليك ذلك فرضاً، إنك على درجة من الغفلة كما ترين.. ألست خائفة؟

وتسأل الفتاة:

- مما؟

- مما قد يحدث منى مثلاً.

وتجيبه الفتاة فى شىء من رباطة الجأش:

- لماذا.. لا.. لماذا أخشاك.. إننى لن أضرك فلماذا أنت تضرنى.

ويهدر الشمبانزى ضاحكاً حتى تسيل دموعه على خديه:

- إذن فلن تؤذيننى.. هذا رأى جميل.

ويتساءل وهو يمسح عينيه:

- ألم تغضبى مرة؟

- لا.

ويرمقها الشمبانزى فى مكر ودهاء ويبدأ فى معاكسة الفتاة وينصب لها شراكاً ليستثير غضبها ولكن دون جدوى، لقد عاشت مع أمها زمناً طويلاً فهى لا تعلم جميع حركات المباراة لذلك فهى ترد على هجماته فى إجابات هادئة رزينة حتى يكف عن الكلام ويستسلم ويقول القرد أخيراً:

- جميل.. إنك بالتأكيد تستحقين اسمك.. من الخير أن تنطلقى فى حال سبيلك الآن وإلا فسوف تتأخرين.. أرجو لك حظاً سعيداً.

وتعرب الفتاة «التى لا تغضب» للقرد عن شكرها وتنطلق على الطريق فيلمحها أسد تقترب منه ويزعجه قربها ويقفز معترضاً سبيلها ليخيفها، فيهدر:

- من أنت؟

وتخبره الفتاة باسمها ويهدر الأسد مرة أخرى!

- الفتاة التى لا تغضب.. هراء.. سوف أثير حفيظتك.

ويمسك الأسد بها مداعباً ويدسها فى التراب ولكنها تصبر صامدة حتى ينتهى.. إنها تعلم أنه سوف لا يجد لذة فى أن يلهو مع إنسان لا يشاركه القتال.

وبعد لحظة أو أكثر يكف الأسد عن لهوه ثم ينظر إليها:

- حسن..

ويقول لها إنها تستحق اسمها.

- هنا.. انفضى عن نفسك التراب ورجلى شعرك بطرف ذيلى وامسحى وجهك بمعرفتى.. هذا حق والآن من الخير أن تنطلقى فى حال سبيلك تلحظك دعواتى.. كم أتمنى أن يكون جميع البشر أمثالك.

وتنطلق الفتاة «التى لا تغضب» فى حال سبيلها حتى تأتى على مكان تضيق فيه المسالك فتجد فيه تنيناً كبيراً ملفوفاً حول نفسه يرمقها بنظرات مليئة بالشر فتسأله:

- من فضلك.. هل لى أن أمر؟

ويصاب التنين بخرس لحظة من الزمن، ذلك أنه لم يصادف من قبل بشراً يتحدثون إليه فى تأدب ودون أن يبدو أثراً من الغضب أو الخوف ويتعلثم التنين أخيراً:

- من أنت؟ وماذا أنت فاعلة هنا؟ ليس من حقك أن تجتازى هذه البقعة من الأرض- إنها لى.

- إننى الفتاة التى «لا تغضب».

- لا يعنينى أنك الفتاة التى لا تغضب أو لست هى: إننى أسأل عن اسمك وإلى أين تذهبين.

- اسمى التى لا تغضب.

- يا لك من بلهاء.. إننى لم أعرف مثلك بلاهة فى حياتى.. كل إنسان يغضب أحياناً.. إننى شخصياً أغضب وأنا أمتاز بأننى ودود ألوف.

وترد الفتاة:

- إننى لا أغضب، بل لست أعرف معنى الشعور بالغضب.

- إذن لابد وأن يكون فى الأمر شىء يتعلق بك إن كنت تقولين الحق.. هيا نرى.. أليس كذلك؟

وهنا يطبق الثعبان عليها ويجعلها سجينة فى طياته ثم يقول:

- والآن سوف أستبقيك هنا فأرى كيف تشعرين وتتنهد الفتاة التى لا تغضب وتظل ثابتة لا تريم ولا تتململ إلى أن بدا للثعبان المشدوه أن يفك أسرها ويقول:

- حسن.. إننى أرى أنك تقولين الحق.. ولكننى أعتقد أنك بهذا توقعين بنفسك فى المتاعب.

وتسأله الفتاة فى هدوء:

- ولكن لماذا؟ أنك ثالث ثلاثة ألقاهم فى طريقى وفى كل مرة نفترق أصدقاء متحابين.

ويقول فى حقد مكظوم:

- حسن قد تكونين على حق، إن القرية ليست بعيدة عن هنا، ولك أن تتجهى إليها فى أمان وسلام، انطلقى تلحظك دعواتى.

وتحيى الفتاة التى لا تغضب التنين وتتخذ طريقها إلى القرية لتبحث عن صديقة أمها.

إن صديقة أمها- وذلك شىء لا تعرفه الفتاة عنها لم تكن امرأة طبيعية- تمتهن السحر وكانت فى بعض الأحيان تمارسه لتعاقب به الأشرار وفى البعض الآخر لتجازى به الأبرار، لقد سرها أن تسمع من الفتاة قصتها فتقول لها:

- لماذا لم تأت أمك إلى هنا بنفسها؟

وتخبرها الفتاة أن أمها تعتقد أنها تحتفظ برباطة جأشها لأنه من اليسير على المرء أن يظل هادئاً متى سارت الحياة من حوله هينة لينة وتسأل صديقة الأم الفتاة:

- وهل كان يسيراً عليك الوصول إلى هنا؟

وترد الفتاة:

- لقد كان فى الواقع أمراً يسيراً ذلك أننى لقيت فى سفرى أصدقاء أبراراً.

ثم راحت الفتاة تقص على المرأة قصتها مع الشمبانزى والأسد والثعبان.

وتدهش المرأة فى قرارة نفسها- حين تسمع قصتها وتتساءل إن كانت ما تقول حقاً واقعاً، ورغم ذلك لم توجه إلى الفتاة أسئلة ما وتقرر أن تستخلص منها الحقيقة بوسائلها الخاصة، فتأذن للفتاة فى الدخول إلى دارها وتستبقيها فيه عدة أيام كانت الفتاة خلالها وفى سرية كاملة هدفاً لعدة اختبارات فينكشف لها أن ما قالت حق وأن الفتاة «التى لا تغضب» ظلت فى جميع المحن والبلايا صامدة هادئة حكيمة.

وتستدعى المرأة الفتاة آخر الأمر وتخبرها أن فى وسعها الآن أن تعود إلى دارها وتقول لها:

- لك منى تحياتى.. ودعواتى.. ذلك أننى رأيت أنك تحملين اسماً كريماً وأنك فتاة كريمة بارة، لا تخافى ولا تحزنى أثناء عودتك ولا تضطربى من

المستقبل ذلك أننى أعدك أن عودتك سوف تكون شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف عما سبق، سوف أردك إلى قريتك كما جئت وسأقيم لك حفلاً قبل عودتك، وسوف ترين كيف تصبحين جميلة فاتنة.

وتصفق المرأة بيديها وتقبل ثلاث نسوة فاتنات يأخذن الفتاة إلى حيث تستحم فى ماء معطر أرج حتى بدت متألقة الإهاب جميلة المحيا ويرجلن شعرها ويلبسنها ثياباً جميلة رائعة وتعود وقد أعددن لها حفلاً شائقاً لوداعها.

فإذا ما انتهى الحفل ترفع المرأة يديها ليصمت الناس وتقول:

- إننى سأعيد هذه الفتاة الجميلة إلى قريتها الآن.. فأى ريح يتطوع لحملها إلى دارها؟

وهنا تهب ريح صاخبة تكاد تنزع كل إنسان من قدميه وتصيح المرأة:

- لا.. لا.. إن الفتاة يجب أن تسافر على متن ريح رخاء.

وتخف حدة الريح العاتية وتهب مكانها ريح رخاء وتودع المرأة الفتاة التى لا تغضب وتضع فى يديها حقيبة صغيرة من المال وأخرى كبيرة مليئة بالثياب الجديدة، وتجد الفتاة نفسها سابحة فى رقة تاركة الأرض من تحتها وتمرق فى دعة فوق قمم الأشجار.

فإذا ما أحست بحرارة الشمس ألفت نفسها تحلق إلى أسفل حتى تمس صفحة النهر الجميل فتغتسل ثم تسبح بها الريح مرة أخرى إلى أعلى.

وفى المساء تجد الفتاة نفسها خارج القرية ثم تدلف إلى منزل أمها تشع وضاء وجمالاً حتى ليكاد كل فرد أن يستوقفها ليرمقها محملقاً.

وحين ترى الأم فتاتها جميلة متألقة فى هيئتها متأنقة فى ملبسها وقد برئت من أوضار الطريق ووعثاء السفر تدهش وتقدم الفتاة إلى أمها المال التى تتساءل:

- ومن أتى لك بهذه الملابس؟ وهل كنت تنفقين بعض المال على إصلاحها؟

لقد كلفتك كثيراً؟

وتوضح الفتاة الأمر، وتقول إن صديقة أمها قد خلعت عليها كل هذا المتاع.

وتستفهم الأم من ابنتها عما وقع لها فى سفرها وما حدث فى بيت صاحبتها وتقول لها فى مرارة:

- إننى واثقة أنك قد فقدت أعصابك مرات عديدة منذ أن ارتحلت عنا؟

وتقول الفتاة «التى لا تغضب» إنها لم تفقد هدوء طباعها وراحت تقص عليها كيف أنها وجدت من الجميع عطفاً وإشفاقاً وتدرك الأم- والفتاة تقص عليها قصتها- كيف كانت تعامل ابنتها معاملة غير كريمة، كانت تبدو وهى تستمع إلى صوت صديقتها يقرع أذنيها منبئاً إياها بأن مثلها خليق أن يعتبر موفور الحظ أن يكون له مثل هذه الطفلة الممتازة، وأنه ينبغى عليها أن ترعاها لا أن تشق عليها وتعاقبها.. وتقول الأم أخيراً:

- حسن فعلت، إننى فخورة بك، لقد بدأت أعتقد- فوق هذا- أنك على حق وسنسعى أن نحيا حياتك مستقبلاً.. سوف لا أغضب أبداً.

ولكن الأم لم تفلح فى الواقع فى الحفاظ على عهدها، لكنها تحاول أن تملك نفسها عند الغضب أكثر مما كانت تفعل من قبل، وأخيراً حين يحل وقت زواج ابنتها الجميلة كان يسيراً عليها أن تقدم على تزويجها.

أما الفتاة التى لا تغضب فقد ذاعت شهرتها فى أرجاء البلاد وغالباً ما كانت تستقدم لإسداء النصيحة للناس والفصل فى قضاياهم لأنها كانت تملك نفسها ولا تغضب أبداً ولا تخشى أحداً.

لقد سعى كثير من الناس أن يحذوا حذوها كما فعلت أمها فحالفهم التوفيق نوعاً ما وصارت المعارك والمنازعات فى البلاد أقل عدداً مما كانت من قبل، وأصبح كل فرد أكثر طمأنينة وأمناً وأكثر نجاحاً مما كان من قبل.

الحيوانات تسعى تحت الأرض

يحكى أن سلحفاة اشتد سأمها للحياة فى الغابة لكثرة ما مر بها من أحداث الجدب والنزاع والخصام منذ وعت ذاكرتها، وأخذت السلحفاة تتساءل: ألا يوجد مكان هادئ تهاجر إليه مع أسرتها، وكانت جالسة على شاطئ النهر حين أقبل الأرنب ثم وقف يتحدث:

- إننى لقيت فى يومى هذا تجربة عجيبة.

وتسأل السلحفاة:

- وماذا حدث لك؟

- لقد شهدت بأسفل هذه الشجرة الكبيرة.. حيث تنمو ثمار البندق حجراً نزلت إليه فألقيت نفسى فى نفق ظللت أسير فيه فلا أجد له نهاية فرأيت من من الخير أن أعود من حيث أتيت مادمت وحدى وإن كنت أعلم أن ذلك النفق لابد أن ينتهى إلى مكان ما.

وتقول السلحفاة:

- هذا شىء جميل.. إن شئت أن تعود لتكتشف الطريق فسوف أصاحبك.

ولكن الأرنب البرى بدا عليه شىء من الريبة، فليس له من سبيل للدفاع عن نفسه إلا أن يجرى بأقصى ما يستطيع إذا ألم به مكروه وأن السلحفاة لتستطيع- على العكس من ذلك- أن تحمى نفسها ولكنها لا تستطيع أن تحمى غيرها وقد يقع فى هذا النفق العجيب أمر ما، هنا تذكر الأرنب البرى النمس الذى ينفرد غالباً بمزاج رقيق لطيف، ولكنه فى نفس الوقت يدخل معركة حامية إذا ما استفزه أحد.. ويرد الأرنب عليها:

- سأعود فأدعو النمس ليصاحبنا فهو رفيق مفيد ساعة اليأس.

وتقول السلحفاة:

- حسناً اذهب وادعه وسوف ألقاكما تحت الشجرة.

وهنا تنطلق السلحفاة تتهادى فى خيلاء ويخطر الأرنب فى مشيته بين الشجر يبحث عن النمس، ومشى مسافة طويلة قبل أن يسمع صوت صديقه حاداً غريباً ذلك أن النمس وأنثاه كانا ينعمان بطعامهما من الموز- ويطلعهما الأرنب على اكتشافه الغريب ويشير على النمس أن يصاحبه ليكشف النفق.

وتقول أنثى النمس:

- إذا ذهبت فلابد أننى ذاهبة معك أيضاً.

ويقول الزوج:

- قد يكون الأمر خطيراً.

وتجيب أنثى النمس:

- لن أعبأ بذلك، فإنك لتعلم أننى أكره أن أبقى وحدى.

إن النمس ليعلم أن هذا حق لا مراء فيه.. ذلك أن أنثيات النمس تكره أن تعش فى عزلة فهن مخلوقات لطيفات يعشن فى جماعة وتضنيهن الوحشة.

- حسنا فهيا بنا، ولكن حذار أن تقولى إننى لم أنذرك من قبل إذا أصابنا ما نكره.

وينطلقون جميعاً، وكانا لا يجدان مشقة من متابعة الأرنب فى خطواته رغم قصر أرجلهما حتى إذا بلغوا مكان الشجرة فى الوقت الذى وصلت فيه السلحفاة إلى المكان يشير الأرنب إلى فتحة النفق.

ويتقدم النمس أولاً ثم يتبعه الأرنب من بعده ثم تتبعهما السلحفاة وكانت أنثى النمس فى المؤخرة، فلقد استقر الرأى على أن تستعمل أسنانها ومخالبها

إذا ما أصابهم فى السرداب ما يكرهون، ويستمرون فى النزول فيستشعرون شيئاً من الاضطراب ولكن أحداً منهم لم يرد أن يعترف بذلك وأخيراً ينحدر النفق بهم وتضيع آثار خطاهم ويأخذون فى التدحرج بعضهم فوق بعض حتى يستقر بهم المقام فى مكان يسطع النار فيه براقاً.

ويلقون أنفسهم فى وادٍ جميل تكسوه الأشجار ويجرى فيه نهر ولا تسمع فيه صوت كائن حى فيهرعون إلى ظل شجرة كبيرة ويتخذون مجلسهم تحت ظلالها.

وتقول أنثى النمس فى تعجب:

- يبدو أننا فى عالم آخر.

ويتساءل الأرنب:

- ولكن كيف يكون لنا أن ننتقل إلى عالم آخر ولم نمت بعد؟!.

وتهمس السلحفاة:

- تمسكوا بالعقل أيها الأصدقاء إنه فى بساطة، لوادٍ مهجور لم يكتشفه إنسان من قبل أو ربما يكون قد كشف.. ولكن ليس يعنى ذلك أن كائناً ما لا يعيش فيه لأننا لا نراهم معنا فى هذه اللحظة.

ويصيح الأرنب:

- الأرواح تقصدين؟

- بالطبع لا أعنى ذلك، ولكن إذا كان ثم أناس هنا، فإنهم يستمعون إلينا ونحن قادمون ويختبئون كما نفعل الآن، اذهب أيها الأرنب وتفقد المكان من حولنا بينما نبقى نحن هنا ثم عد إلينا لنعلم إذا كان هناك أحد غيرنا.

وينطلق الأرنب يجوب المكان ويتنقل من ظل إلى ظل يسترق السمع ويرقب فى حذر ولكنه لا يسمع شيئاً إلا حفيف أوراق الشجر وسوى الخرير الرقيق لمياه النهر ولم ير شيئاً غير الأشجار والأعشاب والنباتات التى يسيل لها لعابه، وبعد أن يطوف بالمكان طويلاً يرجع إلى أصحابه ثم يقول لهم:

- إن المكان ليبدو وكأنه حلم، ولكنه مكان مهجور كلية، فليس ثم حيوان أو طائر أو حتى حشرة.

وتتساءل أنثى النمس:

- ولا إنسان؟

- لا بالتأكيد.. ليس ثم إنسان فيه، وإلا كنت قد رأيته.

ويسود المكان بعد ذلك صمت طويل بينما يظل كل منهم يفكر.

وتقول السلحفاة أخيراً:

- إنكم لتعلمون أنه لمن العجيب أن تعثروا على هذا المكان اليوم لأننى كنت أفكر طول يومى كيف يكون جميلاً أن يسعى الواحد منا إلى مكان جميل هادئ ويبدو أن هذا المكان هو كذلك.

ويقول الأرنب:

- لم أر فى حياتى مكاناً مليئاً بالطعام كهذا.

وتصيح أنثى النمس فى نبرة حادة:

- إنه لمكان جميل يصلح لإقامة أسرة النمس.. إنه لأرحب وأفضل مما كنا فيه.

ويقول الأرنب:

- هل تقترحون أن نبقى هنا؟

وترد السلحفاة:

- أرى أن نحاول ذلك، قد يكون هناك بعض الخطر الذى لا نعلم بالطبع عنه شيئاً، ولكنه يستحق أن نتجشم فى سبيله المخاطر.

وتتساءل أنثى النمس:

- ألا تشعر بوحشة إذا ما عشنا نحن الأربعة فقط فى هذا المكان الفسيح؟

وتقول السلحفاة:

- سوف أحضر بالطبع أسرتى، أو بعضاً منهم على الأقل.

ويقول الأرنب:

- وكذلك سأفعل.

ويقول النمس:

- ولكن إذا سمحنا لأى أن ينفذ إلى المكان، أليس هذا كفيلاً أن يجعله مليئاً بالمتاعب مثله فى ذلك مثل العالم الذى تركناه من خلفنا، وإنكم لتعلمون أن فصائل النمس مزعجة مقلقة فى أغلب الأحيان.

وتذكره أنثى النمسك

- هناك أعداؤنا من الثعابين، إننى أجهد كثيراً فى عملية قتلهم ولكن الجميع يتوقعون منا ذلك، والآن إذا قدر لنا أن نعيش فى مكان خالٍ من الثعابين فإننى سوف أشعر بسعادة غامرة.

ويعلق الأرنب:

- إذا قدر لنا أن نعيش فى مكان يخلو من الشباك فلا شك أننى سأكون فى سعادة غامرة.

وتقول السلحفاة:

- دعنا نضع قائمة نحدد فيها الذين نسمح لهم بالقدوم إلى هذا المكان ولكن كيف نمنع الآخرين إذا ذاعت الأنباء؟

ويرد الأرنب:

- إن المكان مجهول تماماً وعلينا أن نعمل على ألا تذاع الأنباء من حولنا، سوف نطلع عليها من الناس من نثق بهم وسوف يرضون أن يصحبونا فى الحال، سوف لا ندع لهم فرصة التحدث غيرنا، سوف نقودهم إلى ذلك الممر العلوى

معصوبى الأعين ثم ندفع بهم إلى النفق- وبعد وصولهم لا رجعة لهم إن العالم من فوقهم.

وتهتف أنثى النمس:

- إننى لواثقة أنهم سوف لا يرغبون فى ذلك بعد- وأنا- كواحد منكم على استعداد أن أبقى هنا إلى الأبد.

وتقول السلحفاة:

- الآن أرى أن من الأفضل أن نقرر من يقيم هنا.

ويقول النمس:

- إننى لأشعر أن لقومى حقاً كبيراً فى هذا المكان، ذلك أننا- كما أذكر دائماً- كنا ومازلنا هدفاً للقنص والشراك التى ينصبها الإنسان لنا ومازال عددنا يتناقص سريعاً على ممر الزمن سوف نختفى من الوجود إذا لم يقلع الإنسان عن تلك العادة القبيحة فى اقتناصنا وتصيدنا- نحن قوم هادئون مسالمون لا نؤذى أحداً، إننا ننقض على الثعابين عندما تعترض طريقنا.

وتقول السلحفاة:

- هذا صحيح.. إننا نسلم أن لقومك حقاً كبيراً، إننى تاركة أمر اختيار أصلح العناصر التى تجىء إلى هنا لحكمتك.

ويقول الأرنب:

- إننى لأرى أنا لنا نحن معاشر الأرانب حقاً كبيراً كذلك.

وتقول السلحفاة:

- لست متأكدة مما تقول.. إنكم معشر الأرانب تنشئون أسراً كبيرة وتأكلون دون اكتراث- وهذا الوادى لا يتحمل عدداً كبيراً منكم حسبكم أن تحضروا عدداً قليلاً منكم على أن يكون واضحاً ألا تأكلون بدون ما اكتراث فإن شاءوا ألا

يفعلوا ذلك فعليهم أن يظلوا فى عالمهم العلوى.

ويؤمن الأرنب على قولها:

- هذا حق وسوف لا آتى إلا بأولئك الذين يظهرون استعداداً لتنفيذ الأوامر.

وتستأنف السلحفاة كلامها:

- أما قومى فليسوا ممن يتعلقون بالجديد من الأمور ولا يعبأون أن يتحركوا ويكفى أن يكون هنا من شبابهم المتوثب عديد قليل.

وتقول أنثى النمس:

- إننا نريد من الناس أكثر من ذلك، فمن غيرهم سوف نأتى بهم إلى هنا؟

ويقول الأرنب فى حزم:

- إننا لا نريد حيوانات تتقاتل ويأكل بعضها بعضاً ولا نريد أناساً تجيش مشاعرهم بحقد دفين.

ويقول النمس:

- إننى أوافقك على ذلك، أن الجاموس والأسود، والفهد والتمساح مستبعدون إطلاقاً.

ويقول الأرنب:

- إننى أوافقك.. وما الرأى فيما يتعلق بالخنازير البرية إن لهم حقوقاً كما تعلم.

وتزفر أنثى النمس:

- إنهم لا يعيشون فى جماعة ولا يألفون.

وتقترح السلحفاة:

- هب أننا تركناهم جانباً الآن فإننى أقترح أن نستقدم بعضاً من الغزلان.. بعضاً من كل فصيلة.

ويتقرر هذا الاقتراح بالإجماع.

ويعلق الأرنب:

- والحمير المخططة إننى أعلم أنها لا تحب الألفة كذلك، ولكن ليس ثمة من يفوقها فى تحسس الأخطار أو معرفة الدخلاء كما أنها لا تؤذى.

وتوافق أنثى النمس:

- لا بأس فى قليل من هذه الحمير المخططة.

ويقول النمس:

- وهذا ينطبق على الزراف أيضاً.

وبهذا تقرر أن يسمح لأسرة من الزراف أن تدخل:

ويقول الأرنب فى شىء من الحدة:

- ابن آوى أو الضباع أو النسور الجارحة لا تدخل.

ويوافق الجميع على ذلك:

وتتساءل أنثى النمس:

- ما هو الرأى فيما يتعلق بالطيور؟

وتقول السلحفاة:

- أفضل أن نضع قائمة مفصلة بها، إنها أنواع مختلفات.

ويوافق الجميع على ذلك.

ويتساءل النمس:

- ما هو الرأى فيما يتعلق بالقردة؟

وفى هذا يتحدث كل منهم فى الحال، ويقع بينهم انقسام خطير فى الرأى فيما يختص بالقردة، فالسلحفاة ترى أن من القردة ما هو طيب ومنها ما هو

شرير أو غير مكترث، أما النمس فهو يعتبرهم جميعاً خبثاء جشعين، لقد كانت لأنثى النمس فى بعض الفصائل من القردة أصدقاء ولكنها كانت تكرههم جميعاً على وجه التقريب، أما الأرنب فكان يرى أن القردة غير خليقة بالثقة. واستقر الرأى فى النهاية على إدخال قليل من القردة على علاتها.

وتنتهى هذه المناقشة المضنية ويتناول الأربعة طعامهم ثم يركنون إلى الراحة.

وتقول أنثى النمس:

- كم أتمنى يا عزيزتى ألا أبرح المكان فأعود ثانية من حيث أتينا.

وتقول السلحفاة:

- لا حاجة لك بذلك، تستطيعين وزوجك أن تبقيا هنا وعلى الأرنب أن يحمل رسائلكما فيأتيكما باكراً بالدفعة الأولى من أقاربكما.

ويقول النمس:

- هذا جميل منك، إنه ليسعدنا أن نبقى.

ويحذر الأرنب:

- كونا على حذر والزما الهدوء الكامل.

ويقول النمس:

- فى وسعكما أن تعتمدا علينا، سوف لا نتزحزح من هذا المكان حتى تعودا.

وهنا ينطلق الأرنب والسلحفاة إلى النفق صاعدين، ويسرع الأرنب حتى إذا بلغ فتحة المدخل؛ يتجول الأرنب فى المساء يتلقى عديداً من الرسائل، ويبدأ عالم الغابة فى التقاطر من كل حدب ليتحدثوا إلى السلحفاة.

إنه لمن المذهب أن يكون عدد الراغبين حقيقة فى الإقدام على هذه المغامرة إلى المكان الجديد قليلاً، فترضى الغزلان الطاعنة فى السن والحيوانات القوية أن تنتهز هذه الفرصة السانحة لها للرحيل كما تشاركها فى ذلك بعض أبنائها

الصغار إلا أن أنثى الغزال كانت فى حاجة إلى كثير من الإغراء والإقناع من جانب الأزواج والأبناء، أما فصائل النمس التى تنفرد بحب الاستطلاع فقد كانت راغبة فى ممارسة هذه التجربة إلا أن عدداً قليلاً من أنواع السلحفاة هو الذى رغب فى الانتقال.

ومع ذلك فتتألف منهم فئة قليلة ويلتقون فى الصباح الباكر فى الساحة بالقرب من الشجرة الكبيرة، وهنا يعصب الأرنب أعينهم جميعاً ويسير بهم إلى النفق يتقدمهم قطيع النمس، وما أن يصلوا إلى القاع حتى يرى النمسان ينتظران فى لهفة ويشاركان فى فك العصابة من أعين أقاربهما فى سيل جارف من الهتاف والتحيات والحماس المتبادل.

ويتساءل الأرنب:

– كيف أمضيتما الليلة؟

ويقول النمس:

– كان طبيعياً ألا ننام كثيراً، لقد ظللت أراقب وأتسمع طيلة الوقت ولكننى لم أحس أصواتا غريبة لقد أصبحت واثقاً من عدم وجود أحياء هنا.

ويقول الأرنب:

– حسن جداً، سأعود لأحضر أقواماً آخرين، عليكما برعاية أقاربكما وهيئا لهما أسباب الإقامة المريحة.

وينطلق عائلاً إلى الغزلان.

وكان طبيعياً أن يحدث اختفاء نفر من عالم الغابة مزيداً من التساؤل، لقد كادت القردة– على الأخص– أن تفقد عقولها يدفعها إلى ذلك حبها للاستطلاع، وتقرر السلحفاة فى شىء من التعقل أن تجعل– حتى من القردة التى ستنزل– آخر من يعلم حتى لا يغريها ذلك بالثرثرة وكان الفهد أيضاً قد أثار لهم المتاعب لأنه كان دائم التجوال نهاراً وليلاً وكان كثير الحركة دون جلبة، وكان ماكراً وكانت

هناك فى كثير من الأحيان جماعات من النواع المختارة من الحيوان تعود إلى أوكارها لأنها كانت تخشى أن يقتفى الفهد آثارها. لقد تناهى إلى التمساح أيضاً ذلك الأمر العجيب فانطلق إلى السلحفاة محاولاً أن يظفر منها بخبر فيقول:

- يبدو أنك مشغولة جداً وقل أن أجدك دائماً فى المأوى؟

وتجيب السلحفاة:

- إنه الوقت من العام الذى أعمل فيه.

ويتساءل التمساح:

- أصحيح هذا؟ إننى لأتساءل ألا تفكرين فى الانتقال؟

وتجيب السلحفاة:

- ربما، وسوف أكون مسرورة إذا ما غيرت مكانى.

ويقول التمساحك

- فى الواقع.. وإلى أين تفكرين فى الترحال؟

وترد السلحفاة:

- على قيد مسافة من هنا.

ويقول التمساح:

- إنك لتعرفين أنك إذا رحلت عنى فسوف أشعر بفراغ، لقد عشنا متجاورين عدة سنين، إننى لأفكر فى اصطحابك.

وتقول له السلحفاة:

- لا أظن أنك سوف تحب ذلك، إن المكان الذى عزمت على الرحيل إليه يمتاز بالاستقرار ونحن جميعاً ممن يأكلون العشب وقد يتخمك هذا النوع من الطعام فى المكان الجديد.

ويرد التمساح:

- لست أدرى وإن كنت أرجو أن ألتمس هناك شيئاً من اللحم.

وتقول السلحفاة:

- هذا ما أخشاه.

ويتساءل التمساح «وهد هز ذيله»:

- وماذا تريدين؟

وتقول السلحفاة فى أناة:

- لا شىء إطلاقاً.

وبهذا تغلق السلحفاة عينيها وتتظاهر بالنعاس، لقد كانت هذه حيلة قديمة كثيراً ما أثارت التمساح الذى يطبق فكيه فى غضب ويتمنى ألف مرة ألا تكون للسلحفاة قوقعة حتى يستطيع أن يلتهمها.

وأخيراً يترك القافلة من الحيوانات الذين تقررت هجرتهم إلى مقرهم الجديد، ويلاحظ الأرنب:

- من العجيب أن الذين جاءوا فى الواقع قلة رغم أن كثيراً منهم اعتادوا أن يجأروا بالشكوى من حياتهم فى الغابة.

وتذكره السلحفاة:

- تلك طبيعتهم، أن أغلب المخلوقات يتذمرون، ولكن قليلاً منهم يجرؤ على أن يبذل حياته.

ويتساءل الأرنب:

- هل يسمح لآخرين فى النزول إلى السكان فى المستقبل القريب؟

وتقول السلحفاة:

- لعدد قليل من غير العاديين وعليهم أن ينتظروا حتى نطلب منهم ذلك.

ويتساءل الأرنب:

- وماذا لو حدث أن نزل أحدهم عرضاً.

وترد السلحفاة:

- سوف لا نسمح بالبقاء إلا لمن تعرف أو نشاهد بصلاحيته، إن هذا المكان شديد الإغراء ولن يكون هناك نظام أو قانون إذا سمح للمعوج من المخلوقات بالبقاء فيه.

ويتساءل الأرنب:

- متى سترحلين؟

وتتنهد السلحفاة فى تحسر:

-لست متأكدة من أننى سأرحل بصفة دائمة، إنك لتعلم أن كثيراً من قومى بلهاء، وأعتقد أن من واجبى أن أبقى لأراقبهم، لست أدرى ماذا يحدث لو أن التمساح والفهد قد سلكا طريقاً معوجاً.

ويصيح الأرنب فى نبرة حادة:

- لا أكاد أفهم أن يهتم المرء بغيره.

وترد السلحفاة:

- إننى لا أستشعر الراحة إن لم أفعل ذلك، إن المحظوظين أمثالنا فى هذا المكان الأرضى ينبغى ألا ينسوا الآخرين فى ذلك العالم من فوقنا.

ويسخر الأرنب منها قائلاً:

- سوف نزجى إليك كثيراً من آيات الحمد والثناء.

وتقول السلحفاة:

- لا يعنينى ذلك، ثم تستدير وتسير فى بطء نحو النفق.

وتنقضى السنون والسلحفاة تقسم وقتها بين عالميها العلوى والسفلى، ففى العالم السفلى كل شىء ينعم بالسلام والهدوء ويحصل كل فرد على قدر يكفيه من الغذاء ولم يعد بين تلك الأجناس المختارة من الحيوانات فى عالمها السفلى الطموح الموجود بين غيرهم فى العالم العلوى، حيث يزمجر الأسد بين الأشجار مدعياً أنه الملك وحين يرعد الفهد منذراً بأنه سيد المنطقة وحيث يسفك التمساح الدماء بلا رحمة ليثير جواً من الفزع، وحيث ترهب الحيوانات القوية بأسنانها وأنيابها جيرانها وغيرهم من الضعفاء الذين يركنون إلى الفرار طلباً للسلامة.

- إنها حياة عظيمة، إنها كذلك على الأقل بالنسبة إلىَّ إذ أنه فى وسعى أن أصرع أى شىء فى الغابة إننى أحيا حياة القوى، ذلك ما قاله فهد صغير للسلحفاة.

وتقول له السلحفاة:

- إننى لأرجو أن تموت فى مجد كذلك.

- إنك من دعاة الهزيمة.

ويزمجر الفهد الصغير ويخطر فى مشيته عابثاً بشواربه.

هذا النوع من الحياة جعل السلحفاة فى هم، فأخذت تطوف وتتحدث مع جمع من الحيوانات، وتحاول جاهدة إقناعهم بالعيش فى سلام مع غيرهم ولكن ذلك لم يكن مجدياً، إما لأنهم مصدر رعب أو لأنهم يخشون غيرهم فهم لا يستطيعون أن يتصوروا حياتهم بغير هذا الأسلوب.

لذلك كان عسيراً على السلحفاة أن تجد مدداً ممن يرضون بالعيش فى فى المستعمرة تحت الأرض.

ويتساءل الأرنب:

- علام هذا الاضطراب؟

وترد السلحفاة:

- إن ثمة أمارات ونذراً بأن جدياً سوف يحدث ويهلك جمع غفير، وسوف

تموت أشجار الغابة؛ فإذا اندلعت النيران فيها الآن فسوف تحرقها كما يحترق الهشيم، وأحب أن أنجى بعضهم قبل فوات الأوان.

ويأتى الجدب فى حينه ويندلع النيران كذلك وإذا الحيوانات التى كانت تتقاتل وتتصارع، تندفع فى جهد مشترك لتنقذ نفسها، ويفر الأسد والأرنب جنباً إلى جنب ويجرى الفهد فى أعقاب الغزال فى فزع لم يستطع معه أن يقتله، أما الفهد الصغير الذى كان من قبل يباهى السلحفاة فيهوى فى الشرك وتلتهمه النيران.

ويتلمس بعض اللاجئين طريقهم إلى النفق ولكنه يسمح لقليل من تلك الحيوانات بالدخول فيسمح بالبقاء تحت الأرض لخنزير صغير أو اثنين ولبعض القنافد ولعدد من الحيوانات الصغيرة المسالمة الذين كانوا لا يتدخلون فى شئون غيرهم، بل كانوا فى حالة من الذهول حتى لا يكادون يشعرون بما هم فيه من حظ سعيد.

وأخيراً تهطل الأمطار فى العالم العلوى وتخمد النيران ولكن مساحات شاسعة من الغابة لم تعد إليها الحياة والنماء فتقى جرداء لا ثمر فيها لسنين عدداً، وإذا الأحياء يرجعون إلى أوكارهم القديمة فلا يجدون فيها الحياة الهانئة.

ويقول الأرنب للسلحفاة:

- حسن، أرجو أن تكونى عزفت الآن عن رأيك تماماً فى تقديم العون لأولئك الذين يعيشون فى العالم العلوى، يجب أن تعلمى أنك ببساطة تضيعين الوقت.

وهزت السلحفاة رأسها:

- قد يكون هناك واحد أو اثنان فى مكان ما ووقت ما يستحقان المساعدة.

وتعود السلحفاة تطوف باحثة عن بعض من المخلوقات ممن يستحق الحياة الفاضلة ومازالت فى طوافها حتى يومنا هذا.

ولعلك تعرف ذلك بلا ريب إذا كنت ممن يقتنون فى دارهم سلحفاة.. أنها تظهر وتختفى لآماد بعيدة وبصورة خفية.

الطائر المصفر

إن للطيور الصغيرة- كصغار الناس- طموحاً وهى تسعى إلى تحقيقه فى بعض الأحيان عن طريق الكفاية والاستحقاق، وفى البعض الآخر عن طريق الدهاء، زعموا أن طائراً صغيراً قد عقد العزم على أن يحقق غايته سواء عن طريق الخير أو الشر، كان صوته خافتاً نحيلاً وكان يتوق فوق كل هذا إلى أن يتمكن من أن يجعل صنفيره عالياً ولكن لم يستطع أن يجعل صوته الخافت أعلى مما هو الآن.

ويقول لنفسه:

- لو أننى ظفرت بشىء أصفر فيه فسوف أفعل ذلك، ثم راح فى الغاية يتصيد بحثاً عن شىء يجعل منه لنفسه صفيراً، ولكن لم يجد شيئاً فدير خطة بالغة الدهاء، كان يعيش إلى جواره طائر كبير جميل يميل إلى أن يعامل غيره من الطيور الصغيرة فى شىء كثير من الازدراء.

وذات يوم يزور الطائر الصغير الطائر الكبير ويدور بينهما ما يبدو أن يكون نقاشاً عارضاً:

- لقد سمعت أن الديدان ستقل نوعاً ما هذا الصيف.

- فى الواقع أن هذا لا يعنينى.. إننى أستطيع أن أطير أميالاً إذا ما دعت الضرورة، إننى لأتوقع أن أجد كثيراً منها.

- أشك فى ذلك، أما أنا فلا يعنينى كذلك لأننى أستطيع أن أطير بدون طعام.

- ماذا تقصد من أنك تستطيع أن تطير دون طعام؟

– لقد كنت أدرب نفسى، وفى بعض الأحيان كنت لا أذوق الطعام أياماً متتاليات، أعتقد أننى أستطيع أن أصوم أسابيع دون أن يصيبنى شىء كثير من العناء.

– ها.. حسن.. إذا كنت أنت تستطيع أن تصوم أسبوعاً فإننى أستيع أن أصوم أسبوعين.

– هل أنت راغب فى مراهنتى على ذلك؟

– بالطبع أرغب.. عليك أن تمدنى بأربع وعشرين من الديدان الكبيرة إن أنا كسبت الرهان.

– سوف أطير معك.. أؤكد تماماً أنك لن تقوى على الصمود أسبوعين بدون طعام.

– آه.. سترى.. والآن ما هو الطريق لذلك؟

– إن السبيل القويم لذلك هو أن نحبس أنفسنا كل فى عشه، ولما كنت أصغر منك حجماً فأفضل أن أقوم بذلك، سأقوم بالأعمال الأولية أولاً، سوف أختم عليك فى عشك تماماً بحيث لا يرى منك سوى ثقب صغير لعينيك وسوف تكون فى وسعك أن ترى أننى قد حبست نفسى فى عشى وأن ترى أنه ليس ثم تدليس، وبعدها تستطيع أن تضع على عينيك ما يعصبهما.

ويقبل الطائر الكبير الرأى فى تحمس، لقد كان شديد التمسك برأيه وكان مقتنعاً أن فى وسعه أن يعمل ضعف ما يعمل غيره، ويقبع فى عشه متلطفاً بينما يغدو الطائر الصغير يبنى من حوله حائطاً، ويلتف به الحائط من كل جانب إلا من فتحة صغيرة يستطيع منها أن يرقب الطائر الآخر.

ويواصل الطائر الصغير البناء حول نفسه حتى لم يعد يراه أحد تماماً وينزع الطائر الكبير قطعة الجبس من فوق عينيه ويستقر فى مكانه صائماً.

أما الطائر الصغير الماكر فقد استطاع أن يحشر نفسه فى أضيق مكان وأن يترك فى الواقع من حوله ثقباً يسمح له أن يخرج ويدخل ويحصل على طعامه

دون أن يتنبه الطائر الغبى الكبير لذلك.

ويصحو الطائر الصغير مبكراً وينفلت ليحصل على بعض الطعام ويعود حين تطلع الشمس التى لم يكن يراها كل منهما دائماً، بل كانا يحسان دفئها ويسأل الطائر الصغير:

- كيف حالك؟

- جميل.. إننى لا أعبأ بالجوع على الأقل- كيف حالك؟

- جميل أيضاً، يقولها وهو يحرص على ألا يبدو مقنعاً.

وينقضى اليوم الثانى على نفس المنوال وإن كان تصريح الطائر الكبير بأن أمره على ما يرام قد شابه قليل من التهجم.

ويأتى اليوم الثالث ويتحقق الطائر الصغير من أن صوت ضحيته يجىء خافتاً، وفى اليوم التالى يصبح صوته ضعيفاً بشكل قاطع وينادى فى يومه التالى مرتين قبل أن يتلقى رداً، ثم لا يسعه بعد ذلك أن يستجيب لأى نداء، ورغم هذا يواصل الطائر الصغير البقاء دفيناً ثم يتسلل ليلاً يجلب الطعام.

وتمر أيام ثلاثة بعد ذلك لا يستجيب الطائر الكبير للنداء فيذهب الطائر الصغير إليه ويفتح العش فإذا بالطائر الكبير ملقى بداخله هيكلاً من العظام.

- مات من أيام مضت.. يا له من غبى متباه.

ويلتقط الطائر الصغير عظمة فخذ الطائر الكبير ويضعها فى منقاره ثم ينفخ فيخرج منها نغماً جميلاً.

ويقول الطائر الصغير فى استغراب:

- ها.. والآن فى وسعى أن أصفر بأحسن قطعة فيه ويأخذ فى الصفير وهو يطير مطوفاً طول اليوم محدثاً طنيناً مزعجاً يصم الآذان، ويسبب هذا هرجاً واضطراباً فى الغابة، ذلك أن الطائر الصغير كان ضئيلاً نحيلاً له ساقان كالعصى إلى حد جعل الضجيج الذى يحدثه يبدو مثار تعجب كثير، إن عصفور

الكناريا لا يسعه أن يغنى بصوت أعلى منه، ويمضى وقت يسبب هذا الصوت شيئاً كثيراً من الإزعاج ويعتزم طائر كبير من طيور الكناريا وضع حد له ويقول آمراً:

- اعطنى صفارتك هذه.

وينفش الطائر الصغير ريشه فى غضب عظيم.

- لن أعطيكها.. لقد كلفنى ذلك الذهاب آماداً بعيدة بحثاً عنها ولن أتنازل عنها.

- لا أظن أنك حصلت عليها من طريق الشرف ولكنى لن أعبأ بهذا.. إعطنى إياها فى الحال وإلا سيصيبك من ورائها الأذى.

ويضطر الطائر الصغير الذى لا يسعه الوقوف فى وجه الكناريا إلى أن يعطيه الصفارة ويطير بعيداً متوعداً إياه بالانتقام.. ويطير الكناريا إلى منزله حاملاً معه الصفارة ويقدمها لزوجته:

- إننى أريد منك أن تغنى بهذه- إنها ملك ذلك الطائر الأحمق الذى كان يرسل طنيناً مزعجاً فى الأيام الأخيرة، سوف لا نردها إليه مهما كان الثمن، فإذا ما جاءك أحد ليستردها فعليك أن تكونى على حذر منه.

وتقول أنثى الكناريا:

- كيف أعرفه إن حام من حولى؟

- إنه صغير وله ساقان نحيلتان كالعصى لم نر مثلهما من قبل نحولا.

- حسن سوف أرقب هاتين الساقين.

وفى اليوم التالى يأتى الطائر الصغير النحيل حائماً حول المكان بينما كانت أنثى الكناريا تستريح فى عشها فيقول لها:

- إننى جئت لآخذ صفارتى، إننى قد أقرضتها زوجك أمس لقد أخبرته أنى سوف أعود بعد الظهيرة لأستردها.

صحيح ما تقول؟.. من العجيب أنه لم يخبرنى بذلك.

- أظنه قد نسى.. لا تهتمى بالأمر سوف آخذ الصفارة الآن.

وتهب أنثى الكناريا تهشه.

- فى الواقع لن تأخذها.. لقد سمعت عنك من زوجى كل شىء وكيف كنت مصدر إزعاج؟

- قد يكون ثم خطأ فيما تقولين، لم أكن لأفعل شيئاً من هذا النوع، ربما يكون قد اختلط عليك الأمر بينى وبين غيرى.

- لا.. لم يختلط على الأمر.. إنك لأنت الطائر الصغير ذو الساقين النحيلتين.. إننى لأعرفك حيثما تكون.. اذهب الآن فلن تأخذ الصفارة.

ويبتعد الطائر الصغير حانقاً أشد الحنق ويجلس مطرقاً يفكر فى طريقة يسترد بها الصفارة فليس له من أحباب يقومون له بذلك لأن أحداً لا يحبه كثيراً، وهو لهذا يقرر إخفاء ساقيه ويحوم حول المكان يجمع شيئاً من الريش الرقيق ويلصقه حول ساقيه النحيلتين ويضيف قليلاً منه إلى وجهه أيضاً، ويعود إلى عش الكناريا ويستكشف المكان بعناية فإذا به يجد أنثى الكناريا وحدها فينظر إليها فى شجاعة ثم يقول فى صوت خفيض:

- عمت مساء.. لقد سألنى زوجك أن آتى له بتلك الصفارة التى عليها تحرصين.

وتحملق أنثى الكناريا فى شىء من الريبة فى وجهه أولاً ثم فى ساقيه بعدئذ ولكنها حين تلحظ أن ساقيه تبدوان سميكتين يأخذها التردد وتقول فى احتجاج رقيق:

- إن زوجى لم يقل لى شيئاً من مجيئك للصفارة.

- أعرف ذلك.. لقد قابلنى منذ برهة وأخبرنى عن ذلك الإزعاج الذى يحدثه الطائر الصغير المقلق بتلك الصفارة التى يلهو بها، لهذا فقد استقر الأمر

بيننا على أن أفضل شىء يعمل هو أن ندفنها دراءً للمتاعب.

- حسن.. أعتقد أنه رأى سديد، إن ذلك سيوفر على مؤونة المحافظة عليها طيلة الوقت.

وتعطيه الصفارة دون تردد.

ويعود الزوج بعد دقائق فتقول له:

- لقد أعطيت صديقك الصفارة.. هل قمتما بدفنها فى مكان أمين؟

- بربك علام تتحدثين؟

وتقص عليه قصة الزائر، فيصيح:

- يا للعجب.. إننى لم أرسل أحداً، لابد وأنه ذلك الطائر الصغير الوقح، ألم أقل لك أن تكونى على حذر منه؟

وتولول الزوجة:

- لقد كنت على حذر منه لقد نظرت إلى ساقيه على وجه التخصص فرأيت أنهما غير نحيلتين على الإطلاق، لقد كانتا فى الواقع سميكتين ومكسوتين بالريش.

- إنك غبية.

وينشب بينهما شجار يشتد فينقلب عراكاً مريراً.. وبينما هما يتصايحان ويقفز كل منهما على الآخر إذ بهما يستمعان إلى صوت الصفارة يتردد من حولهما مدوياً وأن الطائر الصغير الماكر يحوم مصفراً فى عنف.

إن فى هذا لعبرة.. ذلك أن المرء لا ينبغى أن يحكم بالظواهر.



لماذا تقول الأغنام ماء.. ماء؟!

زعموا أنه كان لفلاح ابن وبنت.. كانت البنت رقيقة هادئة تعنى لأبيها بشئون بيته بينما كان هو يرعى شئون مزرعته، أما الابن فقد كان مصدر كثير من التعب لأبيه لأنه لم يكن ليرغب فى القيام بعمل ما من تلك الأعمال التى يؤديها عامة الناس، لقد كان الابن على جانب من المهارة بيده ولسانه وكان فى الواقع يتعشق أمرين، صيد الحيوان وتأليف الأغانى وعلى الأخص تلك الأغانى التى تتيح الفرصة لإظهار تفوقه فى الدعابة مع جيرانه.

لم يكن الأب ليحب لولده صيد الحيوان وكان ينهاه عن الوجه إلى الغابة، وكان الولد يلح فى الرجاء أن يكون صياداً، وذات يوم بينما كانت الأخت تسعى إلى الغابة لتجمع شيئاً من الحطب إذ بالأخ يطلب أن يذهب معها كذلك، ويطلب إقراضه فأساً يقطع بها أغصان الشجر ليصنع منها الشباك، لقد كان الوالد يمنع ولده من الصيد ولكن لا بأس عليه أن يتوجه إلى الغابة ليساعد أخته فى جمع الحطب وأن يعمل شيئاً نافعاً مرة فى حياته.

وعند وصولها الغابة إذا بالولد يتأخر عن أخته، وينصع من قطع الحطب فخاً ويستلقى على مدى منه يترقب، ويجزى سريعاً على صبره، وإذا بالقنفد يحوم حول الفخ يشمه مقبلاً عليه إقبالاً عجيباً فيقع فيه ويأتى به الولد إلى منزله مزهواً بما ظفر ثم يعد ناراً يشوى عليها القنفد، أما الأب والأخت فلم يعودا وينقلب الولد عائداً إلى الغابة ليعد مزيداً من الفخاخ ويعود الأب إلى منزله وكان أول ما لحظه رائحة لذيذة تنبعث من القنفد المشوى ويغضب الوالد أولا لأنه يعرف أن ابنه يواصل وضع الفخاخ فى الغابة ولكنه بعد ذلك يسائل نفسه إذا كان يظلمه فى هذا التصرف فإذا كان الولد يرغب فى الواقع فى أن يكون صياداً فينبغى عليه أن يسمح له بما يريد وفوق ذلك فإن هذا يجلب لهم

طعاماً زكياً مغذياً، وينفد صبر الوالد من الترقب، وإذ هو ينتهى من طبخ القنفد وبعده ليأكل بعضاً منه ويعود الولد فى نفس اللحظة ليرى ما يفعل الوالد ويأخذ فى الغناء ساخراً منه. كان غناؤه ترديداً لرغبته فى أن يكون صياداً وكيف أن والده كان يبعده عن ذلك وكيف أنه قد رفض أن يعيره فأساً وكيف أنه راح يعد الفخ بدونها وكيف اقتنص القنفد وكيف عاد ليجد أباه الذى أنكر عليه طريقه جالساً يستعد ليأكل القنفد.

ويصيح الرجل المسكين فى حيرة من أمره ولكن يحتج بأن الولد إذا واصل القنص فسوف لا يستطيع أن ينهاه عنه، وأنه سوف لا يأكل شيئاً من القنفد أو غيره مما يصطاد الولد، ويعطى ابنه القنفد ولكنه يطلب منه أن يستبقى قطعة منه لأخته التى مازالت تعمل عملاً شاقاً.

وتعود الفتاة فى هذه الآونة حاملة الحطب ويغنى لها أغنية تتحدث عن طيب نفسها وكيف أنها تعمل عملاً شاقاً وكيف أنه يؤثرها بنصف القنفد لتأكله، وتتقبل الفتاة منه ذلك مسرورة، لأنها كانت جائعة ويأكلان حتى إذا ما بقيت اللقمة الأخيرة فإذا الفتاة تقول إنها من نصيب أخيها لأنه هو الذى اقتنص القنفد، وإذا هو يلحف فى أن تكون من حقها بعد عملها الشاق وأخيراً تأكل الفتاة القطعة الأخيرة بعد ضغط منه، وما أن تفعل الفتاة ذلك حتى يأخذ الولد فى غناء ساخر يردد فيه قصته من بدايتها ومضيفاً إليها أن القطعة الأخيرة من القنفد لم تعط إليه وتضطرب الفتاة لهذا اضطراباً شديداً وتشعر أنها قد أذنبت فى حقه، ولكى تكفر عما ظننته جشعاً منها تقدم لأخيها عصا جميلة طويلة مدببة كانت قد انتزعتها من الغابة، أنها ذات مظهر محبب فى مثل هذا الوقت من العام إذ يمكن بواسطتها أن تثنى أغصان شجر الكمثرى دون أن يصيبها ضرر فتقطف ثمارها.

ويأخذ الولد العصا مزهواً بمهارته، ويسير بها على الطريق ويرى بعد مسافة من السير رجلاً يجنى ثمار محصوله من الكمثرى دون أن يستعمل عصا ملائمة ومؤدياً هذا العمل بطريقة سيئة، ويلفت نظر الرجل إلى أنه محتاج فى

عمله إلى عصا خاصة ويبدى الرجل أسفه لأنه لا يملك عصا ملائمة وأنه لا يسعه أن يذهب للغابة ليحضر واحدة لأنه يشكو عرجاً وهنا ينبئه الولد بأنه لديه هذه العصا المخصصة لذلك وأنه يقرضها إياه ويتقبل الرجل العرض شاكراً ويستعمل العصا فى ثنى الأغثان فيجمع كمية وفيرة من ثمار الكمثرى وإذا بالعصا تتكسر لسوء حظه.

وإذ يحدث ذلك ينوح الولد ثم يردد أغنيته فى مبدئها ومضيفاً إليها مقطعاً جديداً عن ذلك الرجل الذى تسبب بإهماله فى تحطيم عصاه.

ويحزن الرجل بطبيعة الحال لما حدث ولكنه يعزو ذلك إلى شىء من سوء الطالع الذى حطم العصا، وقد كان فى الغالب ماهراً فى معالجة مثل هذه الأشياء ويعرض على الولد نصف محصوله من ثمار الكمثرى تعويضاً له عن كسر العصا.

ويستبشر الصبى بهذا الجزاء ويجمع نصيبه من الكمثرى ثم يسير فى طريقه ويصل بعد قليل إلى حداد ينفخ كيره وكان قد انتهى من عمل يومه، إلا أن ناراً ضخمة مازالت مشبوبة، ويقترب الصبى من الحداد ويقول له إنه لمن المشين أن نضيع مثل هذه النار الجميلة هباء وأنه لأفضل شىء أن تشوى عليها ثمار الكمثرى «إن ثمار الكمثرى فى غرب إفريقية ليست مثل ثمارنا فهى لا تؤكل هناك إلا بعد أن تشوى على النار»، ويوافق الحداد ولكنه يقول إنه ليس لديه هذا الثمر، وهنا يفض الصبى لفافته فتبدو الثمار ويدعو الحداد أن يأخذ منها ما يشاء إذا استطاع أن يشويها على النار، ويفرح الحداد فرحاً شديداً ويأخذ الاثنان فى شواء الثمار وأكلها حتى إذا ما بقيت واحدة منها جادل أحدهما الآخر فى أدب، وإذا بالصبى يقنع الحداد أن يأكلها حتى إذا ما التهمها يرفع الصبى عقيرته بالغناء مردداً كل شىء عن قصته ومنتهياً منها بذلك المقطع الجديد عن الحداد الذى التهم آخر ثمرة من الكمثرى، ويقتنع الحداد بأنه بعمله هذا كان جلفاً ويرجو من الصبى أن يقبل منه سكيناً جميلة يثقب بها ثمار النبيذ، إن السكين كانت تعدل أكثر مما تعدل ثمار الكمثرى لذلك فإن الصبى

يرضى بها شاكراً وينطلق راضياً عن نفسه أشد الرضا، وفى الطريق يشاهد الصبى رجلاً يثقب ثمار النبيذ بسكين مثلوم يصيب أشجاره بعطب ويقبل عليه محتجاً «انظر إلى الطريقة التى تثقب بها أشجارك باستعمالك تلك السكين المثلوم، لماذا لا تستعمل سكيناً مخصصة لذلك؟».

- إننى رجل فقير وليس معه من المال ما أحصل به على سكين جديدة.

- إن لدى سكيناً رائعة يسعدنى أن أعيرك إياها.

ويقدم الصبى السكينة للرجل الذى يسر لذلك، ثم يمضى فى عمله بها مسرعاً حتى يملأ وعائين من النبيذ ويفزع إذ تنقلت السكينة من يده وتتحطم قطعتين، ويرفع الصبى عقيرته فى أغنية مردداً بداية قصته ومضيفاً إليها مقطعاً جديداً عن النصل المكسور ويشعر الرجل بهوان حاله لذلك، ويسرع فى أن يقدم للصبى نصف ما جمع من النبيذ والذى يزيد ثمنه بطبيعة الحال على ثمن النصل المكسور ويأخذ الوعاء ثم ينطلق به بعيداً.

ويلقى على بعد امرأة عجوزاً تبدو عليها آثار الإجهاد والظمأ فيقدم لها شربة من النبيذ، وتسر المرأة لذلك ثم يتبادلان معاً الشراب حتى ليكاد يفرغ النبيذ، ويلح الصبى على المرأة أن تشرب آخر قطرة منه فتتجرعها بعد شىء كثير من الممانعة ولكنها تفزع فزعاً شديداً حين يبدأ الصبى أغنيته ويزيد عليها أبياتاً من الشعر يتضمن كيف أنها شربت آخر قطرة مما معه من النبيذ.. وتكاد تبكى خجلاً وعاراً فتبحث عن شىء تقدمه للصبى عوضاً عما شربت.

- إن الشىء الذى أعتز به كثيراً هو هذه الشفرة الجميلة، يجب أن تأخذها.

إن الشفرة التى نتحدث عنها فى هذه البلاد ويطلق عليها ما.. ما.. شىء عظيم القيمة ويفرح الصبى بهذا البدل فرحاً شديداً ويأخذها وينطلق على الطريق مزهواً بمهارته.

ويلقى أخيراً فى طريقه راعياً يقود إلى السوق قطيعاً من الغنم، ويلحظ الصبى لأول وهلة أن قائد الأغنام لا يحمل جرساً أو حلية يتميز بها ويلفت نظر

الراعى الذى يجيبه:

- الحظ ذلك، ولكن الجرس قد تحطم ولا أملك غيره.

- حسن إننى لا أملكَ جرساً ولكننى أستطيع أن أعيرك هذا.. الما.. الما إنها سوف تلمع متوهجة فى الشمس وبذلك تعرف الغنم قائدها.

ويعارض الراعى فى ذلك أولاً ثم لا يلبس أن يتغلب الصبى على اعتراضه ويفرض عليه الشفرة فرضاً ويعلقها الراعى فى رقبة قائد الغنم.

حتى إذا وصل إلى السوق يضيح الما.. ما.. ولا يستطيع أحد أن يعثر عليه.

ويعود الصبى إلى ترديد أغنيته الساخرة وقد زاد عليها ما بدا من الراعى من تقاعس ونكران للجميل.

وإلى هذا الوقت تستطيل الأغنية حتى ليمل كل امرئ، حتى الغنم من الاستماع إليها وعلى الأخص عندما ينشئ الصبى لا بيتاً واحداً ولكن عدة أبيات من الشعر عن الما.. ما.. الضائع.

وتضييق الغنم أخيراً بما يعمل الصبى حتى أن قائدها يحاول بثغائه أن يطغى على صوته فيصيح «ماما.. ماما» وتردد باقى الغنم النداء وتواصل «المأمأة» بصورة تصم الآذان ويدير الصبى ظهره هارباً.

وفى كل مكان يظهر الصبى تتبعث صيحات ما ما ما فى سخرية واستهزاء وأسوأ من هذا ظلت الأغنام كذلك تردد ثغاء ما ما ما وكانت ثم أغنام كثيرة فى المنطقة حتى إنه لم يعد لدى الصبى الفرصة لكى ينسى حيلته الرخيصة.

وأخيراً يهجر الصبى المكان نهائياً ويذهب إلى منطقة أخرى ليس فيها أغنام ولكن لم يعد ينشئ الأغانى الساحرة التى تسىء إلى جيرته.

لقد كانت الأغنية التى وضعت عن الشفرة سبباً فى أن الأغنام فى جميع أنحاء العالم تصيح دائماً ماء.. ماء.. ماء.

الفهرس

الأساطير الأفريقية

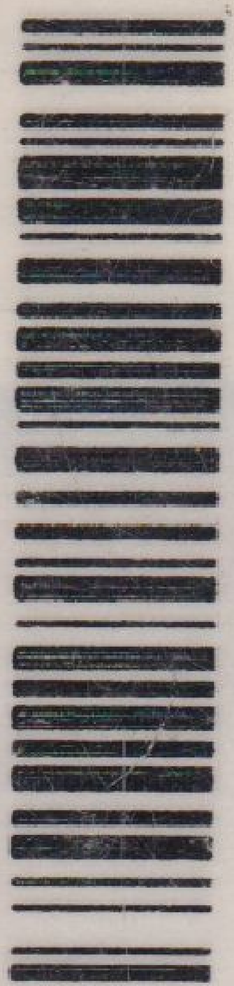


أساطير الخلق الأفريقية - القمر أباً للعالم - المرأة التى حاولت أن تغير مصيرها - الكلمة - موت أوباتالا - لماذا أصبحت السماء بعيدة؟ - طفل الغابة - التى لا تغضب - ثعبان الغابة

يطالع القارئ فى هذا الكتاب مجموعة من الأساطير تعبر عن الصراع الأبدى بين الحق والباطل، وبين الحرية والعبودية فى أفريقيا، كما أنها تمثل موقف الإنسان من قوى الطبيعة، ومحاولته تفسير ظواهرها وتعليل أسبابها، ثم هى من قبل ومن بعد تومض ببصيص من نور يجلو موقف الرجل الأسود الأفريقى من مستعمرية.

وسيشعر القارئ بالمتعة الفنية عند قراءة تلك الأساطير لما تتضمنه من ضروب الجمال وما يتوافر لها من عناصر الإبداع الذى ينفذ إلى قلب القارئ ووجدانه.

ولقد استطاعت هذه الأساطير أن تضىء شمعة خافتة مرتعشة النور، وجذوة خابية اللهب لتحمل مكنونات الصدور وخباياها، وخفقات الضلوع، وزفرات الأنفس فى إطار فنى يدعو إلى الأسى، ويثير الإحساس بالجمال.



كنوز
للنشر والتوزيع